

روايـة



المشرف العام: د. أحمد مجاهد
سكرتير التحرير الفنى: هشام نوار

رواية
جواد
جمال مقار

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
١ شارع الجبلاية ، دار الأوبرا ، القاهرة

الرقم البريدى : ١١٢٤١١
تليفون : ٧٢٥٢٣٩٦
فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

بريد إلكترونى
egypt council @ yahoo.com

تصميم الغلاف للفنان
على رزق الله



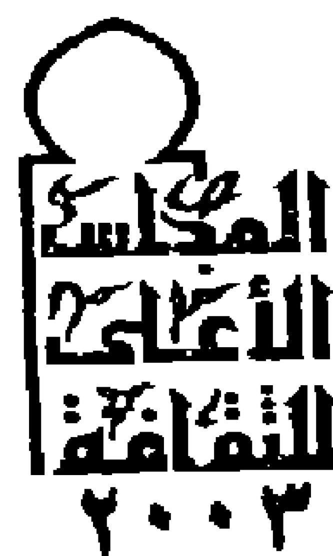
المجلس الأعلى للثقافة

إبداعات التفرغ

رواية

جواد

جمال زكى مقار



المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : جـواد

اسم المؤلف : جمال زكى مقار

الطبعة الأولى - القاهرة ٢٠٠٣م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St . Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084

تنــويـه

أحداث هذه الرواية نسج من الخيال والواقع، وبما أن الكلمة المكتوبة أكثر واقعية من الواقع نفسه، فإنني أزعم أن هذه الرواية كذلك.

أما بالنسبة لما ورد في العمل من أسماء فالقارئ بحصافته سيعرف من منها المختلق ومن منها الحقيقي.

(١)

غرة بيضاء فى جبين الفجر

في حلكة الليل، تململ الفتى الأمرد الذى تركوه بجوار عفراء فى نومته، أيقظته حمحمة قوية تمزج الألم بالشكوى، فرك عينيه وأسند ظهره إلى الجدار، رفس عفراء بطرف قدمه فى أعلى كفلها، قال:

ـ اولدى واخلصى، نشفت ريقى ونشفتْ من البرد.

لف نفسه ببطانية قديمة مهلهلة، رأى الفرس تمط رقبتها، وتئن أنيناً مكتوماً متألماً، ثم بقيت ساكنة، ظنها تموت، ألقى البطانيةعنه وانتفض مفزوعاً، نهض، جرى صوب بيت سيد (كبير السياس)، دق الباب بجماع كفه دقاً عنيفاً وهو يصيح:

ـ يا ريس سيد، يا ريس سيد، إلحق.

قفز سيد من فراشه لاعناً أبا عفراء والباشا والزمن، فتح الباب، سأل:

ـ مالك، تصيح فى ليل ربنا، خير.

ـ إلحق عفراء، لتموت.

نط سيد فى مكانه:

ـ يخرب بيت أهلك.

هرول خارجاً والفتى يهرول خلفه، همس لنفسه:

ـ لو ماتت الباشا يطردنا، يارب استر.

أزاح باب البوكس بكفه، تناول الوناسة المعلقة على الحائط ورفعها، تراقص ضوؤها الواهن، وتكسرت ظلاله على جسد عفراء، كانت ترقد على جنبها فوق القش، نظرت إلى السائس العجوز، أنت شاكية إليه، فابتسم وهو يقترب، انحنى عليها، ازدادت ابتسامته اتساعاً، لكز الفتى بقبضته فى كتفه. قال:

ـ هى بخير يا جحش، رح سخّن حلة مياه وهاتها، وهات خرقة نظيفة، رح إجرِ.

جرى الفتى واختفى خلف شجرة جميز هناك، أوقد ناراً بين حجارة كانون وأطعمها أغصاناً جافةحتى علت منها ألسنة اللهب، فوضع سطلاً مملوءاً بالماء فوقها.

جلس سيد يستجمع همته التى بددها الخوف، تحسس جسد عفراء، مشى بكفه الخشنة على كتفها، ربت عليها، اطمأنت إليه، فهمس لها:

ـ شدى حيلك، الله لا يسيئك، كرامة للنبى يا شيخة قومى.

حاول أن يُنهضها ليعدل من رقدتها، ارتعد جلدها حين لامست أصابعه نعومة الظلفين الأماميين، اعتدل، أخرج حق المضغة من صدره، لملم ورق الدخان وقذفه إلى فمه، تبعه بقطعة من ملح العطرون، قرشها ولاك الدخان معها، حتى صعد الكيف إلى رأسه، انتعش مزاجه، قال يخاطبها:

ـ يا شيخة كفاية دلع، مالك، أنت زينة، قومى قومى.

ندت عنها أنة قوية. فتجمد فى مكانه، ثم بقيت ساكنة وهى تنظر إليه، عاد يحادثها حتى أنست له، حملقت فيه بعينيها الواسعتين، تشممت هواء الفجر الرخى المنسل من الباب المفتوح، رفع الوناسة وقربها من وجهها، فأعشى بصيص الضوء عينيها، عاد الفتى يحمل إناء ماء يتصاعد البخار منه، قال سيد له وهو يضع المسرجة على حافة النافذة:

ـ حط الحلّة على الأرض، وهات يدك معى.

وضع الفتى حلّة الماء على الأرض وتقدم ليساعده، رأياها تلوى عنقها فتوقفا، توتر جسدها وهى تتساند على قائميها الأماميتين، رفعت جسدها كله فاستوت واقفة، أرخت نصفها الخلفى وفرشحت قائميها، أطل الظلفان شفافين بعد أن طشا قرن الماء المتجمع فى البرنس فانسكب منهمراً، هلت غرة الصغير بيضاء ممزوجة بسوائل لزجة مخاطية تشوبها خطوط دامية، قفز السيد فرحاً، قال:

ـ قوية يا بنت العرب وشديدة.

أشار بيده للغلام، فقرب له حلة الماء الساخن، بلل خرقة واعتصرها، مر بها على كفلها، دلك لها ظهرها، اندفع رأس الصغير، هتف الفتى:

ـ الرأس يا ريس سيد.

ناوله سيد الخرقة، وشمر عن ساعديه، مد كفيه ووسع للمهر الوليد قليلاً، أطل الكتف فالكتف، فالبطن والظهر والكفل، كاد الصغير ينزلق إلى الأرض، تلقفه السائس العجوز وأراحه على القش، وقلبه يرقص جذلاً. رآه يرتعش من برودة الجو، أظلافه بيضاء كالشمع، جسده مبتل ساخن، غرته بيضاء بينما جسده كله أسود، أشار سيد للولد أن يغلق الباب، أعاد الفتى إشعال مسرجة الزيت التى أطفأها الهواء.

كانت منهكة، حمل الصغير ووضعه أمامها، أرخت رقبتها فى حنو وتلمست ظهره، لعقته بلسانها الحار، سكن متلذذاً، ألقت بالمشيمة، فتنهد السيد، ربت عليها . قال:

ـ غرته بيضاء، ونهارنا أبيض بإذن الواحد الأحد.

هم الفتى يجرى، فهم سيد مقصده، قال بصوت عال:

ـ مكانك.. استأنَ يا شاطر، أنا أبلغ الباشا.

* * *

كان السائس العجوز رغم أعوامه الكثيرة التى لم يعتن بعدها أبداً رجلاً صلباً قاسى العظام، عاش مطلع شبابه فى الإسطبل منذ أنشأه جودت بك فى منتصف العقد الثانى من هذا القرن، بعد انتهاء خدمته فى دار الحماية لأسباب لم يفصح عنها قط لأحد بغير غمغمات سريعة مقتضبة تصلح لأن تكون سباباً للخونة والإنجليز معًا، كان يرجع من جهة الجنس إلى أصول جركسية جعلته ينفر من التماس المعايش فى التجارة أو عمل من الأعمال الحرة، فاختار عزلته ولعلها هى

أيضاً اختارته. اشترى حديقة موالح تقع على مساحة عشرين فداناً فى منطقة عين شمس، وكأنه اشترى فيما اشتراه سيد خفيرها، الذى قام بأمر منه باقتلاع أشجار الليمون واليوسفى، قسّم الحديقة إلى أجزاء ثلاثة، وفى الواجهة أقام أعمدة ضخمة سامقة تعلوها يافطة ضخمة كتب عليها اسم الإسطبل، ينتصفها رأس حصان بنى اللون، صنع من الجص، تطل منه عينان من الخرز، وتتدلى من رقبته حدوة بها خرزة زرقاء كبيرة، ثم تتلو ذلك بوابة حديدية، على جانبيها وبامتداد الإسطبل سور عال قدت صخوره من الحجر الجيرى. على الجانب الأيمن من البوابة بنى جودت بك قصراً من طابقين، كما شيد على الجانب الأيسر سلاملك لمن يفد عليه من ضيوف، أمامهما أحواض زرعت فيها زهور الأقحوان والداليا والريحان، يمتد بعدها ممر طويل تغطيه تربة حمراء، على جانبيها اصطفت أشجار الكافور والجازورينا، أما بوكسات الخيل فقد حاذت جانبى السور، ثم يقطع سور مستعرض منتصف المسافة خلفه، هناك يقع مضمار وبادوك لرياضة الخيل وتدريبها، يمثل المضمار ربع المساحة الكلية، أما الربع الأخير فقد خُصص لزراعة البرسيم والشعير ليمد الاصطبل باحتياجاته من البرسيم الأخضر أو الدريس الجاف أو الشعير المجروش..

كانت روح جودت تسكن منطقة مجهولة تنفسح فيها سهوب، فوقها تركض خيول برية. كان اختياره لموقع الاصطبل صادقاً، ففى أقصى شرق عين شمس تقع الجمعية الزراعية الملكية(*) التى تأسست فى عام ١٨٩٨، أى قبل إنشاء وزارة الزراعة فى مصر بثمانى عشرة سنة، على مساحة ستين فداناً، ملحق بها محطة لتربية الحصان العربى وحده لا غير، حيث تشبه المنطقة فى طبيعتها المستوية مناطق السهوب الشاسعة الدافئة التى انحدر منها أجداد ذلك الحصان، تلك السهوب

(*) الجمعية الزراعية الخديوية تأسست عام ١٨٩٨، وفى عام ١٩٢٨ أطلق عليها الجمعية الزراعية الملكية.

الممتدة الواقعة فى بلاد ما بين النهرين حتى الصين، هناك وجد ضالته من الخيل المؤصّل المنسّب، حيث شرع فى اقتنائها لتجارته، تخير من عائلاتها الخمس -الهدبان، والكحيلان، والعبيان، والدهمان، والصقلاوى- خيارها، فهو لم يجد فيها فقط تجارة يميل إليها، ولا عزاء لوظيفته الضخمة التى فقدها فى دار الحماية، إنما وجد فيها افتتان روحه بالجمال فى آية من آياته جسداً وروحًا، كان يشى لمحادثه وشيًا (يمكنك أن تلتمس فى جسده مائتى وخمسين موضعاً للجمال الربانى، لتقطع رحلة ما بين الرأس الدقيق القسمات، إلى العينين الواسعتين المعبرتين، فالأذنين القصيرتين، والظهر المستقيم، الذيل المرفوع عند الجرى، أو قوة القوائم المستقيمة، هذا قليل من كثير. أما عن الروح فلا تسل، ذكاء خارق، سرعة فى التعلم، حب ووفاء لصاحبه، إذا كبا أو تعثر لا يحنى رأسه أو رقبته، ذلك ليحمى فارسه من أن يلقى أرضًا، بذا استحق لقب حصان، فهو حصن لراكبه، أو خيل فهو اختيال لمقتنيه، وهناك فى أعمق أعماق روحه شىء مرواغ لم استطع الإمساك به، شىء هو روح الجمال نفسه، شىء يطل من بريق عينيه، أهى القوة ذاتها؟ أهو الشعر نفسه؟ ربما قلت لنفسى يومًا إنه الطموح ولا غير، طموح جامح لا حدود له كأنه يحاول تجاوز ذاته، ثم عدت لأقول لا ليس هذا فقط، إنه شىء أبعد وأغور وأجمل من أن تمسك به، عليك فقط أن تحسه وتمسه بروحك، انظرإلى هذه الأحاديث النبوية الشريفة -عند ذلك يشير إلى محدثه بإصبعه للوحات مكتوبة بخط كوفى متمكن فى لفاته وتقاسيمه- انظر ما يقول سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم - فتفسح اللوحات بمكنون نفسه - يشير وهو يقرأ بصوت عال (لن يخبل الشيطان أحداً فى داره فرس عتيق)، أو هذه (عليكم بكل كميت أغر، أو أدهم أغر محجل)، أو ذلك الحديث (خير الخيل الشقر)(*) ، صدقت يا رسول الله، بل إن الرسول ما لبث أن فضلها فى السهمان -على ما يروى أبو عبيدة- على أصحابها، فجعل للفرس سهمين ولصاحبه سهم).

(*) أبو داود : سنن ص ٢٢٦ ، النسائى : سنن ص ١١٩ ، مسلم : صحيح جـ٦ ، ص٣٣

وكما كانت الأحاديث النبوية الشريفة تلف جدران غرفة مكتبه، كانت كذلك الصور والرسوم التوضيحية والتشريحية، كان حب ذلك الكائن يلف حياته كلها حتى ألهاه عما سوى ذلك، لم يكن الحب وحده يكفى، فاجتمع له من العلم والخبرة الشيء الكثير، كان عالماً بمواصفات عائلات الحصان العربى التى تشعبت عن عائلاته الخمس الأصلية حتى بلغت أكثر من مائة عائلة فرعية، خبيراً فى البيع والشراء والأثمان، نصيحته لتفادى عيوب الوراثة عند التزاوج لم تخب أبداً، فلو كانت الأم قصيرة جاء لاستيلادها بذكر مرتفع، ولو كانت ذات ظهر به بعض عوج، اختار لها ذكراً ظهره بالغ الاستقامة، عند ذلك يصبح تنحى الصفة غير المرغوب فيها أكثر احتمالاً.

أما إذا تكلم عن ألوانها، فإنه ينهى النقاش بما جاء به كتاب الأصمعى قائلاً: (أصول الألوان فى الخيل أربعة: أولها الأبيض وقل أن يخلص من لون يخالطه، ثانيها الأسود وألوانه، وكل فرس شديد السواد يقال له أدهم، ثالثها الأحمر، والمراد بالأحمر هنا الكميت وهى حمرة يخالطها السواد، ورابعها وأخيرها الأصفر العسلى وألوانه: خالص، فاقع، ناصع، أعفر، أصدأ، وما سواها وهو مفرع عنها).

لكن الحياة كما هى عليه دوماً، لم تصف له كل الصفاء، يوماً مرض نور ابنه الوحيد، مرضاً كاد يفضى به إلى الموت، وكان بعد طفلاً لم يجاوز الثانية عشر من عمره، وبقيت أمه ساهرة عليه تمرضه بكمادات الماء والخل لتخفض من حرارة رأسه، بينما ظل جودت الرشيدى بنفسه ساهراً على فرس تعثرت ولادتها، وفى الفجر دوى القصر بأصوات مشاجرة حامية بينه وبين زوجه، كانت من أصل تركى تتيه به أمامه من وقت لآخر، لها طبيعة نارية تلجأ إليها إذا ما جد الجد، سلقته بلسانها حين رأته يتسلل عائداً مغبوطاً جذلاً، فرقت جذله بنظرة قاسية، ثم أطلقت فيه لسانها:

ــ جننت ورب الكعبة، لحست الخيل عقلك، أتتركنى أنا والغلام فريسة ونهباً للموت.

ـ صونى عفة لسانك وإلا...

ـ وإلا ماذا، أتهددنى، سأترك لك القصر، قم وإحضر خيلك الآن لتسكنها معك.

اندهش لبراعة الفكرة وما تحمله من سخرية مريرة منه، لم يشأ أن يبحر بعيداً فى الشجار معها، اقترب منها فى دربة سائس أريب وهو ينظر إليها، همس بصوت وان:

ـ أرجو أن تخفضى من صوتك، الخدم يسترقون السمع وراء الأبواب، ماذا سيقولون عنك، سيقولون ابنة الحسب والنسب العريق كشفت عن لسان أمضى مما لبنات بولاق أو الحسينية.

جاءت رميته الأولى صائبة بارعة، فانخفض صوتها حتى كاد يتلاشى، ساحت دمعتان كبيرتان من عينيها قبل أن تنزلقا إلى وجنتيها، تقدم أكثر منها، همس وهو يمسك بكفها سائلاً:

ـ كيف حال الولد؟ لم استطع البقاء فى القصر وهو على هذه الحالة من المرض.

بدا عذره مقبولاً، همست:

ـ هو الآن بخير، انخفضت حرارته، واستسلم للنوم.

ـ عظيم جداً، غداً سينهض كالحصان، لا تخافى.

* * *

فلحت تجارته وذاع صيته، وجاءته القاهرة برجالاتها، تلتمس الشراء تارة، أو الفرجة والتسرية مرات أخرى، بذلك ظلت علاقته بها طازجة ندية، بل إن للكواليس أحياناً حضوراً أكثر مما لخشبة المسرح نفسها، بما تحتوى عليه من صدق وصراحة وبعد عن المداهنة والنفاق.

يوماً أهداه أمير عربى جوادين، أرسلهما إليه امتناناً باحتفائه البالغ الذى أبداه له أثناء رحلة صيد فى صحراء مصر الشرقية، كان ما أهدى له تحفتان حقاً، جواد قارح ابن أربعة أعوام، فى صهيله نداء خفقت له قلوب المهارى الصغيرات، وفى جسده رشاقة تأتيه من اتساق أبعاده، وجمال يذيعه لونه الأبيض الشاهق، أما الفرس فلم تكن قد تجاوزت مرحلة المهورة، حدد عمرها بعامين على الأكثر، كانت تنبأ عن فرس فريدة فى بابها متى اكتملت، فيها دلال ورقة، أنست له بمجرد أن داعب جبهتها بكفه وألقمها قطعة سكر، حمحمت له، فكاد قلبه يذوب من رقتها، أسماها عفراء لدكنة لونها، أما الجواد فأسماه «نور على» تيمناً باسم ابنه: هكذا يبقى طوال الليل أرقًا فى فراشه يتخطف النوم ويتخطفه، حتى يداهمه الفجر فيطل من النافذة، عندها يعدو إلى جواده وفرسه، كنزه الفريد، يظل ينعم النظر فيهما لاهياً عن الخادم الذى يقف صامتاً خلفه، ينطق من حين لآخر ليذكره بأن إفطاره وشايه فترا، حتى يضج من إلحاحه:

ـ طيب، طيب، رأسى انفلق منك، رُح.

وهى تصب الشاى الذى أعيد تسخينه، تنظر إليه فى عجب من أمره، فهو لا يكف عن وصف محاسن جواديه الجديدين والتمعن فى التماس كريم أصلهما، بينما ينكب ابناه اللذان ظلا ينتظران قدومه – على الطعام، تسأله زوجه:

ـ أما كان من الأفضل أن تسمى جوادك باسم آخر غير اسم ابنك؟

ـ أسميته اسماً يخالف اسم ابنى، أليس اسمه نور على؟

تتعجب أكثر لتبريره، تقول:

ـ لكنك لا تدعوه بغير نور فقط.

ـ سأحرص بعد ذلك على نطق اسمه كاملاً.

تقول ساخرة:

ـ ولِمَ لَمْ تسمِ الفرس (مريدة) على اسم ابنتك؟

يرد فى برود:

ـ فكرت والله فى ذلك.

يشرد بنظره بعيداً وهو يحك ذقنه، قبل أن يقول:

ـ مريدة اسم جميل لفرس أصيلة.

تتذمر الفتاة، تترك قطعة الكرواسون من يدها:

ـ أبى، أرجوك لا أحب هذه المداعبة.

يضحك ملء شدقيه، يحتضنها.

* * *

يوماً جاءه البواب النوبى مسرعاً، همس فى أذنه بالاسم، نهض من جلسته على المكتب، أغلق الكتاب الذى كان يقرأ فيه، ردد اللقب (الأمين الأول) معرفة قديمة من أيام كان جودت الرشيدى مرؤوسًا له فى دار الحماية، فتح النافذة، رأى السيارة الباكار، لوح له بيده، فابتسم الرجل وهز رأسه محيياً، تساءل وهو يهبط درجات السلم (ما الذى جاء بالثعلب إلى حظيرة الدجاج؟ ربنا يستر).

استقبل الرجل مُرحباً:

ـ أى شرف عظيم نلته اليوم بتشريف سعادتكم بيتى المتواضع.

هز الرجل رأسه، قال مداعباً:

ـ كما أنت لم تتغير، مازلت مهرجاً كبيراً.

ـ هذا سر شبابى يا معالى الباشا.

قضى معه ساعتين يفرجه على الإسطبل والخيل، متحاشياً الذهاب إلى بوكسى عفراء ونور على، وهو ما ينى ينظر لضيفه من طرف خفى، يراه يدقق البصر فيما يعرض عليه من خيل، حتى ضاق بتلك المرواغة الباردة، قال:

ـ لكن أين الجواد الأبيض الذى جاءك هدية مؤخراً؟

بهت مما تحويه صرامة العبارة وصراحتها من وضوح الغرض. لكنه تماسك مغتصباً بسمة باردة ميتة، قال:

ـ بالطبع كنت سأريه لمعاليك، هو مسك الختام، تعال.

استقلا الكارتا التى يجرها سيسيان استولدهما من اجتماع جوادين بأتانيين حصاويين أتى بهما سيد من (كفر الجاموس)(*) ، أبقاهما شهراً. عرضهما فى فترة شيعانهما فأبلى الجوادان فيهما بلاءاً حسناً.

توقفا أمام البوكس المغلق، أشار جودت بك إلى السائس بيده، ففتح بوابة البوكس العلوية، أطل الحصان برأسه، تمعن فيه الرجل حتى اطمأن إلى صحة مقصده، استدار إلى جودت الرشيدى، وضع راحة كفه على كتفه، قال وهو يبتسم له فى وداعة يعرفها الرشيدى جيداً، وداعة ناعمة نعومة الحيات:

ـ هنا مربط الفرس، إنه يريده، ولا أكثر، ثق أن هذا سيكون مفيداً لمستقبل نور ابنك، أليس على قدر علمى فى السنة الأخيرة بكلية البوليس؟

ـ هو ذلك.

كان وجهه ممتقعاً، قال الآخر:

ـ لا تجزع هكذا.

ـ لا، أبداً، لست جزعاً، طلباته أوامر سامية.

قال وهو ينظر فى ساعته:

(*) كفر الجاموس : هو الاسم القديم لمنطقة تقع فى أقصى شرق عين شمس ، تغير الاسم عدة مرات ، مرة عندما زارها الملك فاروق فى نهاية الثلاثينيات إلى كفر فاروق ، ومرة أخرى مع مقدم الثورة إلى كفر الزهراء ، والآن تشمل منطقة العشرين .

ـ سعدت بزيارتى لك، ولولا ضيق الوقت وكثرة المشاغل لبقيت أكثر.

فرد بما يستوجبه كرم الضيافة:

ـ ما الذى تقوله سعادتك؟ لابد وأن تتناول الغداء معنا لترى ولديى، فأنت لم تراهما منذ كانا طفلين صغيرين. نور أصبح رجلاً، ومريدة أسفرت عن عروس كالقمر، ستفارقنا بعد أيام، ستسافر إلى فرنسا لتكمل تعليمها فى السوربون.

نظر فى ساعته مرة أخرى، قال:

ـ لا بأس من فنجان قهوة.

ـ لكن...

ـ أرجوك لا تلح على.

ـ كما ترى سعادتك.

مضيا إلى القصر، فى طريقهما همس له ببعض كلمات رقيقة، كما أخبره بأنه قد سبق له رؤية ابنه نور فى إحدى الحفلات، وهو فتى مهذب فعلاً، سيكون له مكان ودور فى القلم المخصوص، قال:

ـ إترك هذا لى، سأرتب له مستقبلاً باهراً.

تناولا القهوة فى مكتبه، صعد الشابان إليهما، أحسنا تقديم التحية لضيفهما، أما سمية هانم فقد ابتسمت ابتسامة خفيفة ذات مغزى لم يفت على جودت بك، كان يعرف أن خالها كاظم باشا على علاقة وثيقة بالديوان الملكى، لابأس إذن من ضربة تحت الحزام، تلقاها وكتم توجعه بين ضلوعه، أوصل ضيفه إلى عربته، وودعه عند بوابة القصر، لما عاد أرغى وأزبد:

ـ هذا الغلام اللعين، هذه البطن الكبيرة النهمة ستلتهمنا جميعاً يوماً ما.

تكتمت سمية هانم ضحكها وأخفت ابتسامتها فى كمها جيداً.

* * *

قبل اندلاع الحرب الكونية الأولى بعام كان جودت الرشيدى قد أنهى دراسته للتاريخ فى اكسفورد كما أراد له أبوه، الذى أرسل له برقية من اسطنبول مفادها أن يعرج فى طريق عودته لمقابلته هناك لأسـبـاب خاصة لم يستطع تخمينها قطعًا، وهو على ظهر الباخرة، كان يعلم أن لعائلته جذوراً قديمة هناك، لكنهاوشائج باتت مع بعد الشقة والزمن واهية لا تكاد تفصح عن نفسها إلا فيما قل وندر من الأحداث، الاحتمال الوحيد الذى استبقاه قائماً حتى لحظة لقائه به فى الميناء والذى حاول قدر جهده أن يزيحه عن خاطره، هو أن الرجل العجوز يمر بنزوة من نزواته، ربما تعلق قلبه بفتاة يروم الزواج منها، لكنه ما إن أبصرت عيناه الرجل يقف منهكاً كطائر عجوز يدق أرض الميناء بعصا الماهوجنى، حتى أسقط تخمينه تماماً.

كان يمشى بجانبه يستمع فى أدب لكلمات الإطراء (عفارم عليك، اليوم رفعت رأسى بحصولك على إجازة التاريخ)، وقبل أن يستقلا الحنطور الذى قرقعت عجلاته على الأحجار المربعة المصنوعة من البازلت، همس له بأن الدين الحنيف يوصى بالزواج، عاودته للحظة خاطرة أن الرجل العجوز يوشك أن يتبع إحدى نزواته فى الزواج، لكن الرجل عاد يفسر له الأمر، قال:

ـ اخترت لك بنتاً من خيرة بيوتات هذه البلاد، حسباً ونسباً، كما أن خالها كاظم بك على علاقة طيبة بدار المعتمد البريطانى، الأمر الذى سيضمن لك وظيفة طيبة هناك.

كان فتى طيباً طيعاً، ولو أن أباه اختار له قردة لتزوجها، سمعه يوصيه أن يكون لطيفاً مهذباً باختصار (جنتلمان)، سأل:

ـ ما اسمها؟

ـ سمية.

ـ أهى بكر؟

رشقه أبوه بنظرة قبل أن يرد عليه:

ـ أظننا لا نحب الطعام البائت.

ضحك كلاهما، ثم صمتا.

توقف الحنطور بهما، أمام قصر منيف يدل على حالة من اليسر والجاه، له طراز شرقى رفيع يعلن عن نفسه، هناك قبة مصفحة بالنحاس تنتصفه، تتنزل فى انسياب بديع على سقفه، وعلى جوانبه مشربيات من الأرابيسك نصف مفتوحة، تحوطه حديقة عامرة بأنواع من الزهور، يلفها سياج، نصفه من حجر وردى ونصفه قضبان من الحديد المسنن.

عند الباب كان كاظم بك فى انتظارهما، تلقاهما بالأحضان والترحاب هاتفاً:

ـ تفضلا، تفضلا.

كان يقف بجانبه كهل تجاوز الخمسين من عمره، على رأسه طربوش أحمر قان، فى يده عصا مقبضها من عاج معقوف على هيئة رأس حية، قامته مديدة، نظرته مطمئنة متأملة، ابتسم لهما، ظنه أباها، مال على أبيه متسائلا:

ـ أهو أبوها؟

ـ لا، كن صبوراً.

التزم الصمت، استقبلهما الرجلان وأدخلاهما غرفة جانبية متسعة حسنة الأثاث والرياش. جلس يدير طربوشه بين يديه، حتى جاءت امرأة يتطاير منها أريج عطر أنثوى فواح، كانت فى منتصف العمر، تنعم بصحة وجمال لم يمسهما الزمن، لها قامة تقترب من القصر، وجسد مدملج، ووجه مستدير أبيض تشوبه حمرة خفيفة، يتناثر على صفحته نمش قليل، أحكمت لف وشاحها الأسود الشفيف حوله، التقت نظرتها به، بدت عيناها صافيتين لوزيتين، ابتسمت له، وحيته بنظرتها، بينما كان الجميع وقوفاً، تولى كاظم بك تعريفهم:

ـ هذه سلوان هانم، أختى، وهذا مراد أفندى أستاذ ابنتنا سمية، وهذا هو جودت الرشيدى ابننا، الذى حادثتك عنه.

انحنت المرأة فى أدب، قالت:

ـ تكاد تطابق صورتك فى خيالى ما سمعته عنك من ظرف وحسن أدب.

رد جودت الرشيدى:

ـ العفو يا هانم، هذا من لطفك.

جاء خادم يرفل فى جبة من الساتان الأبيض المقلم، يحمل صينية عليها كنكة قهوة تفوح منها رائحة الهال، صب القهوة فى الفناجين، وانصرف.

مضى وقت رتيب قطعته كلمات المجاملة المكرورة، سأله مراد أفندى عن نوع دراسته التى تلقاها فى اكسفورد، أعلمه باقتضاب إنه حصل على إجازته فى دراسة التاريخ، تهادى الحديث بينهما، فإذا بالرجل يكشف عن ذهنية مثقفة قارئة، ضربت فى قراءة التاريخ وغيره من العلوم، قطعت سلوان هانم حديثهما معلقة:

ـ مراد أفندى أوقف عمره على تحصيل العلم.

عندها دقت فتاة لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها باب الغرفة دقات واهنة، استدارت الوجوه نحوها، التقت عيونهما لحظة خاطفة، ثم ارتدت النظرة بسرعة، قالت المرأة:

ـ هذه ابنتنا سمية.

رأى أمامه فتاة تلبس ثياباً عصرية، تفصح أن صراع القديم والحديث الذى كان يعتمل فى تركيا حينها قد حُسم، كانت أكثر طولاً من أمها لها قامة فارهة، وشعر ينساب فى حرية على كتفيها، ورثت عنها استدارة الوجه ولون البشرة والعينين، غير أنهما ينمان عن طبيعة حامية وعناد متمكن، لكنها أعجبته، لم تكن

خجولاً، ولم تتكلف ذلك، تكلمت بحرية وبادلته الحديث، فكشفت عن لباقة وعن لغة أحسن تدريبها، دهش لذلك، سألها:

ـ أين تلقيت دراسة اللغة العربية؟

أجابت:

ـ علمنيها أبيه مراد.

صكت الكلمة أذنه، مضى الوقت بهما، وحرص أبوه وكاظم بك على أن يشتتا أية فرصة للنقار بينهما.

فى المساء خرج وأبوه ليتنزها فى شوارع المدينة على أن يعودا ليقضيا ليلتهما فى قصر سلوان هانم، وهما يستقلان الحنطور، سأله عن (مراد أفندى)، فأخبره بما علمه من كاظم بك عنه، كان أبو سمية قد أتى بمراد صبياً صغيراً، طوشه ليأمن جانبه، وتركه يرعى فى وسط الحريم اللواتى عمر بها القصر فى زمن عزه، وبوفاة الرجل تراجعت مكانتهم الاجتماعية، واستغنوا عن كثير من الخدم، لكنهم أبقوا على مراد أفندى، فقد كان شخصاً ظريفاً لطيف المعشر واسع الثقافة، عومل دوماً معاملة كريمة، فى سنوات شبابه كان نهماً إلى القراءة، التهم ما عمرت به مكتبة الأب من كتب كثيرة قيمة، ولما شبت سمية أوكل إليه أمر تعليمها، تلقت عنه العربية والفارسية، وساح بها فى حكمة الشرق القديمة وحكاياته الخرافية حتى تعلقت به، يومًا حسمت أمرها وطلبت من أبيها أن يُجلس مراد معهم على الطعام، أبى الرجل قبول مطلبها، فلجأت إلى عنادها وصلابة رأيها وهى بعد صبية، صامت عن الطعام أيامًا، رفضت خلالها حتى خاطر مراد أفندى وهو يحاول أن يثنى عزمها. حتى رضخ الأب وأضفى على مراد لقب أفندى من عنده، وقبل جلوسه معهم على مضض ظل يلازمه حتى أعفاه موته بعد شهور من حماقات البشر جميعها.

* * *

(فيه وداعة يا أمى، وبه ليونة ومسايرة تخفيان عنا جوهره الأصيل، لا استطيع أن أقطع فى أمره، ربما لا يكون الرجل الذى أحلم به)، هكذا قالت لأمها حين سألتها رأيها فيه، فلما أجابتها بذلك، احتقن وجه الأم بدماء مغيظة، خرجت كلماتها تصفر من الغضب:

ـ أنت عنيدة وقصيرة البصر، أمامك فتى ليس به نقيصة واحدة يُأخذ بها. فتى حسن تعليمه وتربيته، ينحدر من أصلاب تركية خالصة، دمه من دمائنا، أما ترين أننا لسنا فى حالة تسمح لنا بممارسة عنجهيتنا على الناس، كان أبوك مسرفاً مزواجًا، بموته تمزقت ثروته بين ورثته، شأنه شأن كل شىء فى هذه البلاد التى تشبه دجاجة سلقها الزمن وتخاطفت أجزاؤها الأيدى الجائعة النهمة، ها هى فرصة تلوح لك فلا تضيعيها.

جلست الفتاة صامتة تفكر، والأم ترقبها بطرف لحظها، ثم أجابتها:

ـ أوافق.

تهلل وجه الأم، لكن الفتاة سارعت وهى تشير بسبابتها:

ـ لكن بشرط.

تراجع البشر من وجه المرأة، قالت:

ـ ها قد بدأنا.

ـ لا والله، شرط حقيقى، لا أتصور أن أعيش غريبة فى بلد غريب مع رجل غريب بدونه.

آثرت الأم أن تطيل حبال صبرها مع تلك الفتاة النكدة، قالت:

ـ اللهم أجعله خيراً، ها، ما هو شرطك؟

قالت الفتاة بلهجة قاطعة:

ـ أن يسافر مراد أفندى معى.

تساءلت الأم؟

ـ يوصلك ثم يعود؟

ـ لا

ـ يبقى معك فترة حتى تأنسى لهذا الغريب؟

ـ لا

ـ إذن ماذا تريدين بالضبط؟

ـ يقيم معنا هناك.

جحظت عينا الأم من الدهشة، قالت فى حنق:

ـ أبك خبال؟ كيف تريدين منى أن أقول هذا الكلام لخالك، وكيف يمكنه أن يصرح بمثل هذا المطلب الغريب لحميك وخطيبك؟

ـ مهلاً، هما ليسا بعد نسيبين لنا، فأنا لم أوافق إلا بعد موافقتهما على شرطى هذا.

ـ أنت ترغبين فى إثارة المشاكل، ووضع العراقيل أمامنا.

ـ لا يا أم، اسمعى ربما كان من المحتوم على الفتاة أن تهجر بيت أهلها لتلحق برجل غريب، ومهما ادعت فهى ترغب حقيقة فى أن تغادر بيت أبيها إلى بيتها الحقيقى. أما أنا فلا أرغب فى ذلك إلا إرضاء لك، أنت تعلمين أن مراد أفندى رجل قديس، لم يهبنى فقط علمه وحنانه، إنما هو بالنسبة لى كالهواء الذى لابد منه لحياتى، معه عرفت سلام روحى، هو الذى قوّمَ هذا الروح الثائر الذى يسكننى.

نظرت لها المرأة بامتعاض، قالت:

ـ بذا لن تتزوجى أبداً، لا جودت الرشيدى ولا غيره، كيف تتصورين أن رجلاً سيقبل هذا؟

ـ له أن يقبل أو لا يقبل، فإن قبل سأكون له نعم الزوج.

انكسرت الأم فجأة، قالت:

ـ لماذا يا ابنتى؟

ـ لماذا؟! هذه كفارة عما فعله أبى بهذا الإنسان، عشت عمراً أحمل ذنبًا لم اجتنيه، وكلما ازداد فهمى للدنيا، ازداد حبى لمراد أفندى، هو لى أب وأخ وأنيس، وحتى لا أطيل عليك إما أن يقبل هذا الرشيدى شرطى، أو ليذهب مصحوباً بألف سلامة، هذا فصل القول فى هذا الموضوع.

قالت ذلك ونهضت منصرفة لحالها، تاركة أمها تضرب أخماساً فى أسداس، كانت تعرف ما جبلت عليه تلك الفتاة من عناد، لا مفر إذن من قبول شرطها، أسرت بهذا إلى خالها الذى تعجب، لكنه صمت، ثم قال لها:

ـ دعى الأمر لى، فالولد مطيع لأبيه، وأبوه صديقى.

* * *

وهما جالسان يدخنان الشيشة التى عمرت بفصوص الحشيش، تضاحك الأب سائلاً:

ـ لكنه بلا فائدة، ماذا تفعل باصطحابه معها؟

ـ لا شىء يا بك، لا شىء أقسم لك، لا تدع الحشيش يدفعك إلى السخرية.

ـ لا والله، ليس للسطل أى دور على عند الجد، إنما أتعجب من أحوال الدنيا.

ـ صدقت يا بك، صدقت.

* * *

ـ ثق بكلامى، إنه لا خطر منه على الإطلاق.

هز الفتى رأسه رافضاً، ربت الأب على كتفه، ثم قال بلهجة قاطعة:

ـ اعتبره نوعاً جديداً من الخدم.

موافقته أثارت حيرتها أكثر مما أثارت غيظها، فحجتها وإن كانت صادقة إلا أنها كانت كافية لأن يذهب غير مأسوف عليه، هكذا أسقط فى يدها، حاولت فى الأيام القليلة الباقية أن ترى فيه شخصاً جديداً، لكنها أيقنت من تعاملهما معاً أنه شخص وديع بالفعل، يغلب عليه الميل إلى المسالمة، ومع ذلك فهو قادر على المكايدة ببرود يجيد اصطناعه.

أما مراد أفندى فقد طلع عليهم بشرط لا يقل غرابة عن شرطها، هو أن يشحن معه مكتبة الأب الذاخرة، لم يلق هذا الشرط معاندة من سلوان هانم التى كانت ترى مثل هذه الأشياء (زبالة) تزحم البيت، فوافقت ممتنة، أما الرشيدى الأب فقد قال لابنه:

ـ دعه يأخذ المكتبة معه ليدفن نفسه فيها، هذا خير لك.

* * *

زفت إليه بعد أيام قلائل، وبمقدار ما سمحت لها الظروف تدبرت حاجاتها معه، لم يكن يأبه كثيراً أن يؤخذ برأيه، فما يعجبها من أشياء يعجبه من قبيل عدم الاهتمام لا من قبيل الميل الإنسانى الغريزى الذى يحدث عادة بين المخطوبين، رتب لهما حفل زفاف – وإن لم يكن مسرفاً فى البذخ – إلا أنه كان بهيجاً، ازدانت فيه واجهة القصر بالأعلام على عادة أهل ذلك الزمن، وفرشت لهما الأرض بالحصباء الملونة، وصنع ممر من أغصان الزيتون التى يزينها الورد، وضرب لهما نفير، وعج بهو القصر الكبير بالأهل وأصدقاء العائلة المقربين، وتمايلت مغنية سمينة بيضاء مكتنظة

باللحم على أنغام البزق والعود والماندولين، ثم زفا على وقع الدفوف والبشارف إلى غرفتهما التى عرفت فيها فتى مصحًا قوياً يجيد صناعة الحب فى حنكة وروية تقودهما غريزة صادقة تبدو من فرط صدقها خبيرة مدربة، أما هو فعرف فيها قطة لا تروض، تعطى وقتما تحب وإن كان يحكمها الواجب أحياناً، إلا أنها قادرة على التمرد على ذلك الواجب متى أرادت، لذا التمس حبها وجارى دلالها، وكلما اعتقد أنه أخضعها له فرقت إحساسه بذلك، على أية حال، نجحا فى اجتياز بكارتهما.

* * *

لما عادا إلى مصر بقيا أسبوعين فى قصر أبيه بمنيل الروضة، انشغلا فيهما فى تجهيز فيللا خاصة بهما تقع بسكة معمل السكر بالقرب من قصر العينى.

فى أول الأمر كانت مشاعره تجاه مراد أفندى محايدة، والرجل نفسه عمل على ألا يزعج وجوده لطيف مشاعر شهور الزواج الأولى، فآثر أن ينزوى فى غرفته بين كتبه مكتفياً بطعام بسيط يأتيه به خادم نوبى، يأخذه ممتناً، أيقن جودت الرشيدى بحياد ذلك الإنسان تجاه الوجود الذى يعيشه مكتفيًا بالقليل القليل منه، أما هى فقد أخذت عقدة الذنب عندها منحى جديداً، إذ اعتقدت بأن استسلامها لنمط الحياة الذى ضرب على الرجل نوعًا من التسليم بسجنه سجناً مؤبداً، وفى جلسة شاى الخامسة أمرت الخادم بأن يدعو مراد أفندى ليأتى ويتناول معهما مشروباً فى التراس، لاحظت امتعاض جودت، لكنه لم يفصح عن استيائه، جاء الرجل باشاً، حياهما بكلمات رقيقة:

ـ نعمتما بالصحة والعافية يا ولداى.

ردت تحيته فى حب:

ـ عشت لنا يا أبى مراد.

أما هو فصمت ولم يرد بكلمة، تناول الرجل كوباً من عصير الليمون، فلما انتهى منه نهض مستأذنا، سألته أن يبقى معهما، فشكرها، وانصرف، ولم يكد يفعل، حتى

واجهها جودت:

ـ كيف تدعين مثل هذا المخلوق بأبيك؟

دهشت، ونفر عرق من الدم الغاضب فى جبهتها، أجابته بلهجة تقطع بمعانى الكلمات:

ـ أنت تعلم أنه بمثابة الأب لى، ونحن متفقان من البداية على ذلك. بل إننى كنت على وشك أن أطلب منك أن تدعوه بنفسك للجلوس على مائدة الطعام معنا.

ضحك بصوت عال، قال لها:

ـ طلبك مرفوض يا هانم، للأمور حدودها.

ـ بمعنى؟

ـ بمعنى أن يلزم غرفته.

ـ ولكننى لن أقبل ذلك.

ـ لك أن تقبلى أو ترفضى، بحسب هواك.

أدركت فشلها فى إقناعه، ونهضت معلنة نفورها من لا إنسانيته، تاركة إياه يجوس فى ممرات الفيللا ليلاً، كان يضرب كفًا بكف، يصطخب رأسه بأفكار شريرة، يرى نفسه ممسكاً بتلابيب هذا المراد، شاداً الرجل إلى شجرة من أشجار الحديقة ليسوطه أمامها، وهى تذرف الدمع مستعطفة تطلب الصفح وتعلن التوبة، لكن الخيال لم يرق به أبداً إلى الواقع، كل ما هنالك أنهما تعرفا على المشادات اليومية، حتى جاء يوماً قال لها (كان أبوك من الذكاء والحصافة حين اقتلع خصيتى هذا المخلوق صغيراً)، اندلعت براكين غضبها الأناضولى، فقذفت بالحمم فى وجهه (ما أنت إلا فلاح جلف بلا قلب ولا رحمة)، أخذت تحزم أمتعتها مستعدة للرحيل إلى بيت خالها، تركها تفعل ذلك وهو جالس فى بهو الفيللا يدخن شيشته المكللة بأوراق طباق الطرابزون التركى. رآها تقف عند أعلى السلم فى ثوب أبيض وحول

رأسها وشاح مزدان بزهور صغيرة رماها بنظرة تحاول سبر جديتها، أشاحت بوجهها في كبرياء، همت بنزول السلم، فتراجع غيظه الغاضب ليفسح لفيض من مشاعر تقطع بعمق حبه لها، صعد الدرج إليها أمسك بحقيبة ملابسها، صرف الخادم الذى نادته، في غرفتهما أعلن هزيمته أمامها، وقبل في قرف أن يجلس الرجل معهما على الطعام.

العجيب أن مراد أفندى الذى لم يكن قد خبر شيئًا مما دار بينهما هو الذى رفض في أنفة وكبرياء ملآ نظرته إلى جودت بك، حين أخبره متلطفًا أنه يدعوه للجلوس معهما على مائدة الطعام، ولما ألح عليه، قال في لهجة لا تقبل المساومة:

ـ أفضل أن آكل حيث وضع الله لى طعامى.

وجد جودت بك في رفضه فرصة ليطعن بها الرجل، فقال ناصحاً متودداً وكأنه يمازحه:

ـ لا يأبى الكرامة إلا حمار.

تضرج وجه الرجل بالدماء، لكنه آثر أن يستبقى غضبه، فقال:

ـ قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

رد عليه مواصلاً ممازحته الثقيلة:

ـ أما ترى أن قد هذه تفيد الاحتمال؟

صمت الرجل ولم يرد، واستدار منصرفًا عنه، لكن جودت ما كف يومًا عن كراهية مراد أفندى كراهية كظيمة، ومع ذلك لم تتسلل الكراهية إلى نفس الرجل، كان فقط يتحاشاه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

* * *

كان جودت الرشيدى قد انتظم في سلك العمل موظفاً في دار المعتمد البريطانى فى معية السكرتير الشرقى للدار، وعرف بالجد والانضباط وحسن المسلك، قضى بذلك عاماً طيباً لم تنغص عليه حياته سوى تلك المشادات التى كانت تقطع استرسال نهر حياته مع زوجه، لكن المياه كانت تعود دائماً إلى مجاريها الطبيعية.

ثم وقعت الواقعة، اندلعت الحرب الأولى، وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وخُلع الخديو عباس حلمى الثانى، انتهز الإنجليز فرصة وجوده فى تركيا ونحوه جانباً، وعُين مكانه السلطان حسين كامل، ليحسم تعيينه التناقض القائم فى وضع مصر بين احتلالين التركى والإنجليزى، وكان السلطان الجديد إمعة بأكثر مما أراد الإنجليز له، وسُنح لجودت الرشيدى أن يطلع من خلال عمله فى السكرتارية الشرقية لدار المعتمد على جوهر الوضع الجديد، فقد كتب السكرتير الشرقى يقول عن السلطان (كان يزعجنى دائماً، سائلاً هل يستطيع أن يدعو هذا الشخص أو ذاك للغداء أو العشاء، وحينما أخبرته بأنه يستطيع أن يدعو من يشاء تهلل فرحاً، كما لو نال حقاً كان يسعى إليه، وكان يقضى معظم وقته فى أراضيه مع الفلاحين لينسى بهم هموم الحكم والسياسة).

لاشك أن ذلك حز فى نفس جودت الرشيدى، ثرثر فى بعض جلساته به دون أن يحتسب لحرج وضعه، ويوماً وهو فى مكتبه طُلب لمقابلة السكرتير فى أمر هام وعاجل. دخل وهو يغلق آخر أزرار سترته، وقف أمام الرجل الذى تصنع انشغاله بتوقيع بعض الأوراق. تركه واقفاً حتى تنحنح، رفع رأسه إليه معتذراً، قال له:

ـ اجلس من فضلك قليلاً.

جلس متوجساً، فلم يكن من دأب ذلك الشخص الذى كان يقودهم فى عجرفة مصطنعة أن يدعو أحد منهم إلى الجلوس، مضت دقائق ثقيلة قبل أن يفرغ الرجل له، قال:

ـ ها.. قد انتهيت، كيف حالك؟

ـ بخير، أشكرك.

- سوف لا أطيل عليك، فالأمر للأسف ليس بيدى، لكن رجال «الانتلجنس بيرو» راجعوا ملفك، وبالأمس جاءتنى رسالة سرية جداً، مفادها أنك متزوج من تركية.

مد يده إليه بالرسالة، قرأها على عجل، وأطرق مفكراً، ثم رفع رأسه إليه، واصل الرجل حديثه:

- بالطبع، لم أرض بسهولة بما ينوهون إليه من وجوب تقديم استقالتك، فأنت تعلم بأننا فى حالة حرب مع تركيا، لذلك اتصلت بهم فور استلامى الرسالة، هناك حل واحد، إذا أردت أن تظل متعاوناً معنا.

صمت الرجل وراقب وقع الكلام على جودت، وجده هادئاً ينصت إليه، قال:

– للأسف، هو أن تطلق زوجتك – استدرك بسرعة – ليبق واضحاً أن هذا رأى شخصى وليس رسمياً. بذلك يمكننى مساعدتك.

نهض جودت الرشيدى مبتسماً كأن ما قيل له كان يعرفه، قال:

– استأذنك قليلاً لأعود بالرد.

خرج، جلس إلى مكتبه ليكتب خطاب استقالته، قدمه للرجل الذى أريكه هدوء مرؤوسه، وحنكته فى التصرف، قال له:

– سوف أوصى بأن تكون مكافأتك غير عادية، فأنا أعلم أنك تنتظر ولدك الأول وأرجو ألا يؤثر ذلك فى حياتك، فأنت شخص جاد وستجد طريقك فى الحياة.

نهض مسلماً عليه، شد الرشيدى على يده، وانصرف.

* * *

(ثرثرت كثيراً يا جودت، ولم تعرف كيف تمسك بلسانك أمام ذلك الشخص الذى أشرت إليه، نعم استطاع أن يجرك لتقل ما قلت، وما قلته يا بنى نقله ذلك الذيل

بحذافيره إلى السكرتير، ألم تقل له إنجليز الأمس هم إنجليز اليوم هم إنجليز الغد. وإن إعلان الحماية على مصر لم يزد الطين إلا بللاً، وإن رئيس الوزراء ليس إلا موظفًا تابعاً من موظفى الحكومة الإنجليزية، يسقط بإشارة من المندوب السامي، وما رئيسه إلا وزير الخارجية البريطانى).

أجابه جودت:

ـ ولكن يا كاظم بك جميعنا نعلم ذلك.

رد الرجل مسفها كلام جودت:

ـ أن تعلم غير أن تقل، هذا ما قاله لى السكرتير بنفسه، حين التمست عطفه عليك معتقداً أنه لا وجه للمقارنة بين زواج الخديو عباس حلمى من ألمانية وزواجك أنت من تركية، ألقى الرجل فى وجهى ما نُقل إليه عنك فأسقط فى يدى، ولم يكن فى وسعى سوى أن أشكره لانتهاء الأمر عند هذا الحد، ولا أعرف كيف سولت لك نفسك أن تندفع فى مثل ذلك الحديث مع شخص أنت تعرف ولاءه المطلق لهم.

هذا الشخص الذى انتقل بعد ذلك من العمل فى دار الحماية إلى الالتحاق بالديوان الملكى، هو نفسه الذى يجيء إليه اليوم ليطلب بل يأمر بأن يأخذ «نور على» أفضل جواد عنده هدية مقابل وظيفة تافهة لابنه فى القلم المخصوص، لا لن يكون ذلك مقابل ثمن بخس، ليدفعوا ثمناً أعلى إن أرادوا، وسيعرف كيف يفعل ذلك.

* * *

فى الصباح، عندما انتهى السائسون من تطمير الخيل وتنظيفها بالفرشاة وتمشيط معارفها وذيولها، جاءه سيد يسعى بخبر وصول عربة كبيرة تتبع إحدى الجمعيات العمومية، معها مندوب يحمل رسالة شفهية ويطلب أخذ نور على، قال جودت بك:

ـ أنا قادم إليه، اذهب وأخبره بذلك.

ركب جودت بك الكارتا، ومضى نحو المندوب، حين توقف عنده حياه الشاب فى أدب سابغ، وأخبره بفحوى رسالته، فأجابه جودت بك:

ـ يؤسفنى جداً ألا أسهل مأموريتك لأن الحصان يعانى من مغص شديد، لا يمكنك أخذه الآن، أخبر سعادته بذلك.

* * *

فى الظهيرة تلقى جودت مكالمة من إنشاص، قال محدثه:

ـ أكلمك من إنشاص، نعم، نعم هو معى، لا، نستجم ونناقش معاً بعض الشئون.

رد جودت بك:

– يؤسفنى أن أؤخر طلبك، فبالأمس أصيب الجواد بمغص شديد، نعم وقع البيطار عليه الكشف الطبى فوجده مصاباً بطفيليات فى أمعائه، ويرجح وجود بعض ديدان تسبب له المغصة، لا، لا، لا يمكن أن أرسله على ذلك النحو، دعه بعض الوقت، البيطار يبذل معه ما فى وسعه.

ـ ....

ـ ماذا تقولون سعادتكم؟ يتعجل رؤيته، سأبذل أقصى ما فى وسعى، لكن الأمر قد يطول، لا، لا، أنتم تعلمون أن لدى أمهر البيطريين.

ـ ....

ـ نعم تحكمنا صداقة قديمة من أيام دار الحماية، وأنا لا أنسى أياديكم البيضاء على هناك.

أدرك محدثه اللمزة، واصل حديثه:

ـ مـاذا تقولون، الإسطبل وجميع من فيه رهن إشـارتكم، لكنـى بحكم صداقتنا القديمة أود أن أسر لسعادتك بشيء خاص جداً، لقد مللت ذلك اللقب، ضـقت به، وضاق بى، كما يضيق الثوب القديم بالإنسان.

دوت قهقهة فى السماعة، قال له محدثه:

ـ لم تعد مهرجاً فقط، ولكن أصبحت أيضاً مراوغاً.

ـ أنا، لا، والله، ما زلت مهرجاً فقط.

علت القهقهة مرة أخرى، فاستبشر خيراً.

* * *

لم يمض سوى أسبوع حتى أنعم عليه بلقب باشا، كاد يطير من الفرحة، هزج وغنى مثل طفل صغير ودار فى غرفات القصر، داعب الخدم، حيا معظماً بكفه صورة أبيه. ركع على ركبتيه أمامه، حادثه (ها أنا قد أنفذت وعدى لك).

وكما طار من الفرحة، طار «نور على» بعيداً، جاءت السيارة نفسها، والمندوب نفسه، فُتح بابهاالخلفى. مد عليه لوحان من الخشب البلطى، صعد نور على بخطوات رشيقة عليهما، وفجأة استدار برأسه، أولى القصر نظرة أخيرة حسيرة، حطت نظرته على جودت باشا، حمحم له فى كبرياء سلبه كل فرحه، ترقرقت دمعة فى عينه، أخفاها ما استطاع حتى أغلق باب مكتبه بالقصر عليه، وأطلق إسار دموعه.

* * *

سـالـومـى

ازدانت واجـهة القصر بالمصابيح الملونة والأعلام الخضراء بأهلتـها ونجـومـهـا، وأضاءت الثريات الضخمة المتدلية من الأسقف العالية أبهاء القصر الداخليـة، بدأ يفد على المكان رجال بيـاقات بيضاء منشاة وبزات ردنجوت سـوداء وطرابيش حـمراء وسيـارات فاخرة أوستن وبليموث، نزلت منها نساء موفورات الصحة والجمال بأسنان بيضـاء نضيـدة، وشعور مـقعوصـة، وجيـاد تزينها عـقود من الألماس واللؤلؤ الحر، تهامسن:

ـ سيأتى بنفسه؟ مستحيل.

ـ سترين بعينيك.

تقول ثالثة ساخرة:

ـ سيعرس الليلة.

تقول حاقدة لموتورة:

ـ ومن صاحبة الحظ السعيد يا ترى؟

تهمس الأخيرة فى أذنـها باسم صاحبة الحظوة، فتُرسل ضـحكات مدوية ممزوجة برغبات ملتاثة، تهز واحدة رأسها فى سخرية، تقول:

ـ ونعم القبيل والحسب النبيل، ما رأيك أنت يا رضوان باشا.

يهز العـجوز المذعور رأسه وينصرف عنهن بعيداً، حيث يقف نور جودت وحـيداً كطائر غـريب فى بزة تشريفـة تزين الكتف نجـمـة وحيـدة مثله تعلن أنه نال إجـازة تخرجه، مد الرجل العجوز يده مهنئناً، قال:

ـ أدام الله أفراحكم، لا أعرف! أأهنأك بالنجاح والتخرج أم أهنأ الباشا بالباشوية؟

هز الفتى رأسه وغمغم بكلمات قليلة، ضاعت فى صخب وصولها، رآهاتقف عند الباب منتصرة منتشية، تهامست الشفاه باسمها (ليلى كمال)، استدارت الرؤوس إليها مرت بين الشهقات المكتومة والعيون المحملقة، وقبل أن تعطى جسدها للفوتييه الذى احتضنها نضت الفرير الأسود الثمين وأعطته لوصيفتها، على الفوتييه المقابل تجلس (هيلين نصيرى) فى فستان سواريه من الموسلين الأسود الفضفاض يكشف جيدها ونحرها. يكاد ثدياها الكبيران يقفزان منه، ويتدلى لحم ساعديها، حولها جيشها الصغير من فتيات مهجنات أرمينيات بياضهن مشرق ناصع تشوبه ظلال مصرية وتعربد فى دمائه حمية النبيذ اليونانى، يرسلن الضحكات كشقشقات العصافير، هزت رأسها لدجاجتها الجديدة محيية، فقد علمت من مصادرها أن جاهه الكبير وهو جالس يرقب نوارس البحر من مقعد صغير على ظهر يخته عائداً إلى البلاد بعد قضاء أجازة الصيف بأوروبا، حطت عيناه على دجاجتها التى ذاع صيتها، وأبدى لمساعديه اهتمامه الشديد بأمر مؤخرتها وهو فى حالة من الهياج جعلته يقطع ظهر اليخت جيئة وذهاباً.

* * *

تنهد جمع من العجول الشابة التى لم تتجاوز منتصف العقد الثالث، أقبل الشباب عليها يحييها، التفوا حولها، البعض مد لها اوتوجرافه لتسطر فيه كلمتين وتمهرهما بتوقيعها، بينما استخف بعضهم دمه، وحين أسرف أحدهم فى الاستظراف رمته بنظرة ازدراء حبست دمه، تراجع مستأذناً، وهو يقول:

ـ عن إذنكم.

سألته:

ـ إلى أين؟

ـ أقف فى التراس.

ـ طيب، إياك تنسى تأخذ معك الغسيل تنشره.

ضج جمع العجول المتحلقة حولها بالضحك وهم يشاهدون الشاب يفر مذعوراً، أما نور جودت فقد ظل من ركنه يرمقها، لا يستطيع أن يحول عينيه عنها ، كأنه ما رأى من قبل امرأة، بقى مسلوب الإرادة أمام جمالها الأخاذ، من حوله مر الخدم وفرقعت زجاجات الشمبانيا.

حانت منها التفاتة إلى الركن الذى يقف فيه، التقت عيونهما، تأملته لحظة قبل أن تتشاغل عنه كامرأة مجربة تستخف تلك النظرات التى لا تعنى لها شيئاً، أما هو بسنوات مراهقته التى كاد يتجاوزها فسعد بتلك النظرة، فانبعثت فى دمائه فورة، همّ يعبر إليها، قاطعت خطواته أجساد الخدم النوبيين بوجوههم الصامتة ونظراتهم المحايدة، يدورون بصوان عليها أنواع من العصائر وأخرى عليها كؤوس ملؤها نبيذ فرنسى فاخر تتلألأ حمرته القانية، رأى خادماً يسرع نحوه، انحنى عليه وهمس باللقب فتفرق عزمه، كان الليل قد أوغل بهم وهم فى انتظار مجيئه، دار بعينيه بحثاً عن أبيه، وجده يحادث عجوزاً يبادلها الضحكات، هرول نحوه، همس له، أدار جودت باشا بصره بحثاً عن سمية هانم، وجدها مستغرقة فى الإشراف على تجهيز البوفيه، أرسل لها واحداً من الخدم لينبهها، استدارت مسرعة نحوه، اتجهوا إلى الباب الكبير.

وقف الجميع حين أطل جلالته، ولا غير تأوهات العذارى المبهورات شىء يقطع الصمت الذى حل بالمكان، وهن يبصرن فتى رائقاً واعداً فى ميعة صبا يكاد يندثر ليفسح لدفق شبابه مكاناً، كان أميل إلى الطول، يلبس بزة صيفية، ويشد شعره إلى الخلف بما يقطع بأن صيف أوروبا التى عاد منذ أيام منها ما يزال آخذاً به، بدا متحرراً من كل الرسميات يوزع ابتسامته على الجميع تحيط به حاشية من الرجال،

أسرع جودت باشا نحوه، انحنى مقبلاً الكف التى امتدت إليه، بينما أمسكت سمية هانم بكرانيش ثوبها وانحنت تحية له، ثم أقدم نور جودت وقبل اليد الكريمة. مشى أمامهم يتبادل النكات مع حاشيته ويرسل الضحكات، أشار بكفيه المبسوطتين إلى الجمع الواقف، قال:

ـ واصلوا أحاديثكم.

عاود الجميع الجلوس، جال بعينيه بحثاً عن هيلين نصيرى، رآها تهرول نحوه كالأوزة، تتقافز أجزاؤها، ومن حولها تقافزت فتياتها فى رشاقة، أقدمت نحوه، انحنت ممسكة بكرانيش ثوبها فى أدب ضاف، بادرها القول:

ـ كيف حالك يا هيلين؟

ـ نقبل أياديكم الكريمة.

ـ معاذ الله يا هيلين.

قال وهو يمد كفه مقلوبة إليها فانحنت وطبعت لثمة رقيقة على كفه، ضج من حولهما بالضحك، ولما اعتدلت، أمسك بلحم ساعدها، قرصها قرصاً خفيفاً، سألها:

ـ ما هذا؟ أراك تسرعين الخطو نحو الاعتزال.

بدت فى عينيها نظرة عاتبة حزينة، اختفت سريعاً، قالت فى دعابة:

– سوء استخدام، لكننى يعلم الله حاربت على كل الجبهات أنا وجيشى الصغير هذا. كم عملنا على خلخلة ركب جنود الاحتلال.

ـ ليس هناك احتلال منذ المعاهدة يا هيلين.

أشاح بوجهه عنها، بحث فى الوجوه عن ليلاه، رآها تنظر إليه متأملة، نظرتها السوقية أطربت الحيوان داخله، لكنه شد لجام حصانه، يجب أن تأتى مثل كل الأخريات، أقدم مضيفه نحوه، همس فى أذنه:

ـ البوفيه جاهز، أتفتحونه الآن؟

ـ البوفيه، ها: لا، لا أبقيه الآن، سأفتتحه بعد قليل.

مال على هيلين، همس لها بكلمات سريعة، هرولت بجسدها اللحيم، ثم أبطأت وقع خطواتها، أقدمت نحوها، همست لها:

ـ إنه يدعوك، اذهبى وانحنى أمامه، وقبلى يده.

نهضت، مشت وهى تميس بكتفيها، مالت نحوه وعلى وجهها ابتسامة عذبة رقيقة أحكمت صنعها، وكلما خطت نحوه خطوة، ازدادت ابتسامته اتساعًا، حتى صارت قبالته، انحنت كما تقتضى اللياقة، ثم قبلت يده، هم بلثم يدها، تلقى نظرة من هيلين التى كانت تمروح بمروحتها فى عصبية بالغة، إذ التقت العيون وجحظت من الدهشة، أمسك بيدها ومشى بجانبها يسامرها:

ـ سمعت عن فنونك الكثير.

ـ أخجلتم تواضعى. (أجابته فى اقتضاب).

ـ يجب أن تمتعينا بفنك الجميل الليلة.

ـ طلباتكم أوامر سامية.

ـ تجيدين الحديث كما تجيدين كل فنونك.

أصابها كدر من تكراره لكلمة فنونك، مالت قليلاً لتواجهه، قبل أن تنحنى، سألته:

ـ أتأذنون لى؟

ـ تفضلى.

ذهبت، تبعتها وصيفتها، اختفيا فى غرفة داخلية جانبية، تشاغل بالحديث إلى المحيطين به، بعد قليل، عادت فى بدلة رقص لا تخفى سوى نذر قليل، لتبرز جسداً

يميس إذا مسه الهواء، لها خصر ذاب وذابت فيه العيون، وثديان ناهدان ناهضان فى عتو وبكارة كأنهما لم يمسا أبداً، وجيد مشرئب شامخ شاهق، يحيط به فى تحنان عقد من الألماس يبادله الغيرة والحيرة، وعينان ضرب فيهما المرود لتوه خطاً ساحراً، حتى النساء تحيرن فى أمرها، وهو نفسه تساءل (أهذه هى ليلى كمال التى كانت تقف بجانبى منذ قليل؟)، ضحك من بجانبه، اعتبروا ما يقوله دعابة من دعاباته، بينا كان صادقاً. هز رأسه، هو الخبير بالنساء يعلم جيداً أن الثياب تضفى على المرأة جمالاً يزيحه العرى جانباً ليفسح الرؤية لعين الغريزة، هبطت عيناه وحطت على فخذين مدملجتين مترعتين بالوعد، فابتسم مرتبكاً، أومأ لها، فبادلته الابتسام والإيماء، مشت نحو قائد الفرقة التى كانت تعزف لحناً رقيقاً يصلح خلفية للأحاديث، توقفت الفرقة عن العزف. همست فى أذن قائدها، أشار إلى عازف إشارة محسوبة، وقع بعدها العازف ضربات سريعة متتالية، حتى انتبه الجميع، ثم بدأت الفرقة تعزف لحناً شرقياً راقصاً. كانت قد تناولت على عجل كأساً من النبيذ ، فأرسل ومضات حامية إلى دمائها، دخلت فى دائرة الرقص، عند منتصفها انحنت فى رشاقة محيية إياه، ثم طارت على أطراف أناملها حول محيط الدائرة، تكاد لا تمس الأرض، تكسرت أضواء الثريات فوق اللآلئ المتناثرة على حمالة الصدر والسرة، رقصت بلا خوف، ملهوفة مرة، مجنونة مرات، عاصفة باللحظات، حيية، ماكرة زاهية كالدنيا، فراشة ضليلة حائرة تذوب فى الضوء والمسافة واللون، تهبط بها الموسيقى إلى لحظات هى الموت، تموت، تتيقن من موتها، ترتمى جسداً مستباحاً للعيون المذهولة المأخوذة، تهمس لها الموسيقى همساً وانياً، تيقظها برعماً، يتفتح جسدها وردة، تفتح ذراعيها، تدور، تميس بكتفيها، ترمى شعرها وتنكفئ على الأرض بعنف، تتلوى بها الموسيقى، تنهض فى نعومة أفعى تشع عينيها بريقاً شهوانياً شريراً، ثم تأخذها الموسيقى إلى عذاب كامن فى قلب الجملة، ترتشف العذاب الهائل رشفة رشفة، ثم تنهضها مرة أخرى، تبعثها، تدور مجنونة بالجسد، تقبل كتفيها كتفاً كتفاً، ترفع يديها للسماء، ثم يخفت النغم رويداً رويداً يفسح لكمان لعوب تتثنى معه، تتحد به، تتوحد بذاتها حتى

تتلاشى هى والنغم. انسحبت بعد أن انحنت محيية مرة أخرى تصحبها عاصفة من التصفيق الحاد، وهى تسمع همس النساء وتشعر بالعيون تتبعها إلى غرفتها.

أشار أحد مرافقيه – كان إيطاليًا له سمت قواد محترف – إلى مدرب الرقص الإيطالى الذى كان يقف عند أحد الأركان، أقدم نحوهم، كان شاباً رشيقًا فاره الطويل متخففًا من الثياب يلبس قميصًا مفتوحًا وبنطالاً فضفاضًا، تحيط بجيده قلادة بها جعران من عقيق تلفه سلكة ذهبية، له شعر كستنائى وبشرة منمشة، تقدم نحوهم، انحنى ثم اعتدل، قال له:

ـ برافو، لويجى، ما اسم الرقصة؟

ـ سالومى.

رد متعجباً:

ـ سالومى؟ لكن أين الطبق الفضى ورأس المعمدان؟

ضحك الجمع الملتف حولهما. أخذوا الأمر على محمل الدعابة، لكنه قطب حاجبيه، قال:

ـ أنا جاد فيما أقول، أضف طبقاً فضياً ثبته فى كفها.

ـ ورأس المعمدان؟

ـ دعه لخيالنا.

استرسل الحديث على هواه، وأكد بعض الوقوف اتفاقهم المطلق مع براعة الفكرة، قال واحد:

ـ ماذا لو أضفت الطبق إلى يد الراقصة؟ سوف لا تحتاج إلى شرح.

لكن الشاب بدا غير مقتنع، فآثر الصمت، ابتسم حين رآها قادمة نحوهم، التفتوا جميعًا إليها، انحنت مرة أخرى له، أخذ يدها بين كفيه البضتين، ظل ممسكاً بها، هنأها وأثنى على براعتها، قال لها:

ـ فى كابرى شاهدت فتاة من الغجر ترقص ما يشبه رقصتك، لكنك أكثر براعة، كما أن الأخرى فى جسمها صلابة، تشبه صلابة جسد فتيات السيرك.

ضحكت، سألته مستنكرة فى دلال:

ـ أعجبتكم الرقصة أم الراقصة؟

ـ كلاهما معاً، أنا ذواقة، ألا تعلمين؟

صمتت قليلاً، ثم قالت:

ـ شرف عظيم لى إعجابكم هذا.

فجأة انفجرت فتاة فى ضحك هستيرى، لعبت الخمر برأسها الجميل، ضحكت حتى استلقت وشخرت من الضحك، مشى إليها رجل فى مطلع عقده الخامس، يزين فوديه شعر أبيض، مد ساعده وأنهضها فى غضب، نهضت وهى تترنح، طرقع بأصبعيه، هرول إليه فتى كان يقف عند الباب يرقب المشهد، له كتفان عريضان وجسد ممتد فارع، ووجه أسمر، قال بلكنة صعيدية تقطع بانتمائه إلى عالم آخر يفارق عالم الوجوه التى يعمر بها البهو:

ـ أمر معاليك.

ـ خذ مشيرة إلى البيت.

حاولت الفتاة أن تعترض:

ـ بابى.

رماها بنظرة ألجمتها. مشت تترنح بجوار ذلك الثور، حاول أن يسندها، أزاحت فى غضب ساعده، وهما يمران بهم رمقت ليلى كمال جسد الفتى الذى يعج بالعضلات، جرعت الكأس التى فى يدها، استدارت مبتسمة لمولاها، سألته:

ـ ألم تصبكم الرغبة فى الطعام؟ أشعر الآن برغبة شديدة فى تناوله.

قال لها فى جوع:

ـ وأنا أيضاً.

أمسك يدها ومشى بها، قال:

ـ هيا بنا نفتتح البوفيه.

* * *

كان نور جودت يقف فى مواجهتها، رآها تلتقط الطعام فى تؤدة ومهل مدربين حديثًا، طريقتها فى مضغ الطعام ككل شىء آخر فيها، تثير فيه أحاسيس لم يسبق أن اجتاحته كما تجتاحه الآن، عروقه تفور بدماء هائجة، لكنها كانت تقف بجوار ذلك الكائن المخيف، تراجعت أحاسيسه، لتفسح مجالاً لمشاعر خائفة مضطربة بداخله، كان حقاً بلا تجربة، هى أيضًا قطعت بغريزتها الصادقة بأن الفتى طار لبه، ابتسمت وهمست لنفسها، لا بأس به من فتى غض الإهاب، به ألق لم تره فى غيره من الرجال، ولفتات تشبه لفتات طائر جارح، صادته قبل أن يروغ منها كما فعل من قبل، التقت عيونهما للحظة خاطفة، افتر ثغراهما ببسمة سريعة، لكن كل شىء بعدها انتهى تاركًا خلفه حسرة ألمت به، فبانتهاء العشاء، أصر على الرحيل آخذاً معه معيته. أخذ الحفل ينفض، وقف هو وأبوه وسمية هانم عند الباب الكبير لتوديع المدعوين، ظل ينتظر مجيئها لتحتضن كفه كفها فيودعها بعض أسرار قلبه، لكنها لم تأت، ذابت فى الهواء، كيف؟ حاول أن يحل لغز اختفائها فجأة فلم يستطع.

* * *

فى ليل غرفته جاءت حاملة سلة الأحلام، كانت فى ثوب أبيض شفيف، تمشى يتبعها الضياء، ترف حولها طيور من نور، تقف فوق مائدة مستديرة كبيرة،

رقصت له وحده، وهو ثمل نشوان، وهى أيضاً نشوانة عربيدة، راغت منه مرات، ثم جاءته مخمورة لاتدرك المسافة بين الضحك والبكاء، أنشبت أظفارها المخضبة بطلاء أحمر دموى فى كتفيه وغرست أسنانها فى جسده، لم يصرخ، استعذب فيض اللذة والألم فى دمه، ارتمت بجانبه على السرير، جاس بيده فى شعرها السائب، أنت متشكية متوجعة، انهارت سدوده، سبح فى محيط من اللزوجة، رآها تستحيل إلى عنقاء تصعد عموداً من الدخان وتذوب فيه، صفع ضياء الصبح المنسل من فرجة الستائر عينيه، أعشاهما، نهض، ليستحم، ترك الماء الدافئ ينساب على جسده طويلاً ليلطف من كد أحلامه.

حياة جديدة

وهم جالسون إلى طعام الإفطار، تأمله جودت باشا طويلاً، قال له:

ـ اليوم أول أيام خدمتك، ستجد كل شيء ممهداً أمامك، فالأمس لم يصنع هباء، حصلت لك على توصية كبيرة منه، ستجعل يومك هناك إذا أخلصت بأيام يقطعها غيرك بلا طائل، لك أن تفخر بكونك ابن جودت باشا. كن حيادياً، ضع لسانك فى جيبك لأطول فترة ممكنة من يوم العمل، فالصمت يضفى على المرء مهابة قد لا تكون به، والفم المغلق لايدخله الذباب، وها أنت ترى من صمت ومن تكلم، الأول تبوأ مكانه فى القصر وفى الوزارة، ومن تكلم ما يزال يرعى الخيل فى مروج صنعها خياله.

بدت من الشاب نظرة تشى بالضجر من النصيحة، قال الأب مؤثراً الاختصار:

ـ أدعو الله أن يوفقك.

انصرفوا جميعهم إلى تناول الطعام.

* * *

عند مبنى المديرية بباب الخلق أنزله سائق السيارة، سأل:

ـ متى أجىء لتوصيل سعادتك؟

لم يكن يدرى متى،

قال :

ـ ساتصل بك فى البيت قبلها بساعتين.

انصرف السائق، أما هو فصعد الدرج إلى الدور الذى يقع به القلم المخصوص، اتجه إلى مكتب مدير الأمن، هناك كان الشاب العملاق الذى اصطحب الفتاة الثملة بالأمس يقف عند الباب، رأسه ملفوفًا فى ضمادات تشى ببقع من صبغة اليود، علم فيما بعد أن الفتاة حاولت أن تجبره والسائق على العودة إلى الحفل مرة أخرى، وعندما رفض وتمسك بتنفيذ أوامر الأب، صفعته بزجاجة البرفان فى جبهته فشجتها – عظم له الشاب واستأذنه ثوانى، دخل المكتب، ثم عاد مسرعًا، أدى له تعظيمًا ضخمًا وفتح الباب أمامه حتى يدخل.

عندما أصبح فى منتصف الغرفة المتسعة، وقف الرجل الكبير، عرف فيه حافظ باشا أبا فتاة الأمس الثملة، تلقاه الرجل مرحباً، قال:

ـ تفضل، اجلس وانتظر دقائق قليلة وسأفرغ لك.

وقع الرجل بعض أوراق أمامه بسرعة، ثم رفع رأسه إليه، حيّاه مرة أخرى، قال:

ـ مرحباً بك فى بيتك، لا تندهش من التعبير، هذا تعبير يعرفه كل من عمل فى القلم المخصوص منذ أن أنشأه سليم باشا زكى فى عام ١٩٢٩ . فعملنا يأخذ أكثر وقتنا، لذا يكاد يكون هو بيتنا بالفعل، وهو ليس بالعمل بمقدار ما هو رسالة يجب أن تؤمن بها وتعيش لها، فإن فعلت لقيت جزاءاً طيباً لإخلاصك.

صمت الرجل برهة، واصل حديثه:

ـ ملفك لا يحتوى على أوراق كثيرة، لا غير شهاداتك، وخطاب من يحوزه حاز كثيراً من المجد.

لوح له بالخطاب، قال:

ـ سيساعدك كثيراً على الترقى متى اجتهدت معنا، عملنا فى الأساس هو متابعة الأنشطة الهدامة التى تهدد أمن الوطن ونظام الحكم الملكى، لذا أنشأ هذا القلم،

قبله كانت الأمور تسير على هواها، بالطبع قطعنا شوطاً كبيراً فى تخصيص مكاتب مختلفة لكل نوع من الأنشطة، عملنا يبدأ فى ساعة معلومة من الصباح، لكن متى ينتهى، هذا لا يعلمه إلا الله.

سمع باب يفتح، من خلف البارفان الذى يفصل باب الغرفة عن عمقها ، سمع صوتاً نسائياً، رآها أمامه، تلك الفتاة التى كانت بالأمس فى الحفل، تمسك فى يدها ثلة ورد صغيرة ، تقدمت نحوهم، قالت وهى تسلم عليه:

- بونجور يا عزيزى.

رد تحيتها، قالت:

- بونجور بابا.

رد الرجل فى جفاء واضح:

- صباح الخير.

جلست غير عابئة، التقطت سيجارة من شنطة يدها دستها فى فمها الواسع، أشعلتها ونفثت دخانها، قال الرجل شبه معتذراً:

- إنها الحياة الحديثة.

ضغط على زر جرس، فدخل الشاب الضخم، قال:

- أوامر معاليك.

- أنت جبلة، أسأل نشرب حاجة أم لا.

- أوامر معاليك.

نظر إليه الرجل مغتاظاً، قال سائلاً:

- ماذا تشرب يا نور؟

- إن كان قهوة مضبوطة.

ـ هات فنجان قهوة مضبوطة، وهات لى شاى، وأنتِ؟

ردت الفتاة بلهجة جافة معاندة:

ـ قهوة مضبوطة، يظهر يا نور بك أن مزاجنا واحد.

ابتسم لها، لكنه إستاء من اجتماع مزاجهما على شىء.

وفجأة راوده إحساس عابر بأن الرجل الذى يجلس أمامه على درجة عالية من الحقارة والوصولية، لكنه أخفى مشاعره جيداً.

قالت الفتاة والجندى يضع أمامهم المشروبات:

ـ جئت لأطمئن عليه، رفض يأخذ باقة الورد، تصور، ها، خذ، ضعها فى الفاز هناك.

مد الجندى يده وأخذ منها باقة الورد ونسقها بسرعة فى الفاز وخرج، تناولت مشروبها، شعرت أن وجودها غير مرغوب فيه، نهضت مستأذنة، قالت:

ـ خلينا نشوفك يا نور بك.

ـ انشاء الله قريباً.

خرجت، تنهد الرجل، قال:

ـ إنها ابنتى طيبة القلب جداً، ولكنها عصبية بعض الشىء.

حقيقة الأمر إنه من أيام مضت رتب مجيئها فى ذلك التوقيت، لكن ما اجتنته بالأمس أضاع كل شىء، كان يعرف كرجل خبير بالناس أن ذلك اللقاء أصبح بلا معنى، بل ربما كان له أثر عكسى، لكنها أصرت على المجىء، تناسى الأمر، قال:

ـ قضت أعراف العمل هنا أن يقضى الجدد شهراً بين المكاتب المختلفة قبل تسكينهم فى مكتب ما، لكننى ساختصر لك المدة إلى خمسة عشر يوماً بعدها أرتب لك أمراً يفيدك، سأوكل لك قضية تكاد تكون منتهية أصلاً، هذا سيجعلك تحب العمل، وسيدفعك كثيراً خطوات للأمام.

دق الجرس، دخل الجندى، قال له:

ـ استدعى اليوزباشى أحمد صالح.

دقائق مرت، دخل اليوزباشى، كان شاباً يتجاوز الثلاثين بقليل، أدى التحية، قال حافظ باشا له:

ـ هذا نور جودت، زميل جديد معنا.

نهض مسلماً فى حرارة، بينما كان الرجل الكبير يكمل التعارف:

ـ اليوزباشى أحمد صالح، إسمع يا أحمد، كما أفهمتك من أيام عليك الاهتمام الشديد بنور، هو عموماً معك لمدة خمسة عشر يوماً، الآن، عليكما بالانصراف، لدى أمور كثيرة أود أن أفحصها بنفسى، نهض، أدى التحية اللازمة واستدار خارجاً مع أحمد صالح.

* * *

كان عليه أن يحل مشكلة بعد المسافة بين بيتهم وباب الخلق، استأذن أباه فى الإقامة فى فيللا معمل السكر، فوافق على مضض منه، مضض لم تتجاوزه سمية هانم ، فهى لم تعهد بعد طفلها عنها، خصوصاً بعد سفر مريدة إلى فرنسا لتكمل تعليمها ، لكنها رضخت فى النهاية، هنالك وجد الفيللا فى حالة مزرية من الإهمال، فاستعان بقوة سويلم الجبارة التى أزاحت أكوام الغبار المتراكمة منذ سنين، وهناك أيضاً اكتشف فى سويلم كنزاً من المعلومات، فقد خدم أربعة أعوام متتالية فى القلم المخصوص، ولم يبق له سوى عام واحد وتنتهى خدمته ليعود إلى بلدته فى المنيا.

* * *

كان يتأمل ذلك الكائن الضخم، وهو ينقل قطع الأثاث كما ينقل طفل لعبة من لعبه، وتذكر أن كل من رآهم من جند هناك يتميزون بتلك القوة الهائلة ، وبنوع من الغباء المستحكم ، والآلية الشديدة فى القيام بالمهام ، أو تنفيذ الأوامر ، حتى لو أدى ذلك إلى شج رأسه كما حدث لسويلم، خاطبه سائلاً:

- سويلم، من أى مديريات مصر أنت؟

استدار الجندى إليه، أجابه:

- أنا من مديرية المنيا مركز سمالوط، بلدنا اسمها بنى غنى شرق المركز.

راح يقص عليه قصته.

* * *

كمواسم الحصاد، سار الحاصدون، تجريدة لجمع الرجال الهاربين من الجهادية أخذت خط سمالوط وصولاً للقرى والنجوع المدفونة فى قلب المركز، واحدة بعد أخرى فتشوها، جمعوا الرجال منها، وشدوهم بالحبال فى طابور طويل، حتى وصلوا قرية بنى غنى، هناك نزل الصاغ (جمال محمدى) ورجاله ضيوفاً على عمدة البلدة، كان مصطفى غانم العمدة يعرف بأمر الزيارة، نادى بصوت جهورى:

- علوانى.

جاء خادم تغطيه كومة من الأسمال تشبه بقايا جلباب، قال بصوت كالجعير:

- أوامرك يا أبوى العمدة.

- رح هات لى شميعة أفندى بسرعة يا جحش.

هرول علوانى، كان ابناً غير شرعى، أنجبه العمدة من امرأة من الحلب، وجدوه فجر يوم بعيد ملفوفاً فى خرقة بالية داخل مقطف يجعر عند باب الدوار، كبر فى

الدار وصار واحداً من الخدم، عندما وصل إلى الشجرة التى يجلس شميعة أفندى عندها إلى ترابيزة منهمكاً بكتابة أسماء أنفار جمع لطع الدودة فى أرض العمدة، جأر علوانى:

- خال شميعة.

انتفض الرجل، رفع عينيه اللتين تغطيهما عوينات غليظة إليه، هتف من غيظ:

- مالك يا ولد المحروق.

- أبويا العمدة طلبك.

- طيب رح الوقت، أنا جايى وراءك.

جمع شميعة دفاتره على عجل ، ومضى إلى الدار حتى وقف بكتفيه المعقوفين ورائحة أنفه الكراهية أمام العمدة ، الذى كان يتناول غداءه هو والصاغ ، بينما تناثر الجند حول الدار يأكلون فى حلقات، ظل واقفاً بهما حتى انتهيا من طعامهما، قال:

- أوامرك يا عمدة.

- أين الكشف؟

ضرب شميعة كفه فى جيب سترته المزيتة، أخرج ورقة مطوية فردها ، وقدمّها إلى العمدة الذى أعطاها بدوره إلى الصاغ، وهو يسأل:

- لكن الهوجة شديدة هذه المرة يعنى، فى حرب يمكن؟

رد الصاغ فى حرص وظيفى:

- لا يا عمدة، مطلوب عساكر أكثر لدعم بلوكات النظام.

- آه، قلت لى (أدار وجهه بحثاً عن علوانى)، ولد يا علوانى ناديت شيخ الخفر؟

- نعم يا حضرة العمدة، حالاً يجىء.

تنحنح من خلفه شيخ الخفر وهو يعدل طربوشه، قال:

ـ السلام عليكم، أوامر البك العمدة .

ـ إصحب جمال بك، أره بيوت الناس المكتوبة أسماءهم فى الكشف.

* * *

نادى شيخ الخفر على خفيرين مضيا مع التجريدة يجمعون العيال من الدور والغيطان، كانوا إذا ما دخلوا داراً وأخذوا عيلاً من العيال خرجت خلفه النساء يندبن عليه:

ـ يا داخل الخيمة يا أبو طربوش   خدوك غنيمة ولا اشتروك بفلوس

يزجرهن شيخ الخفر ويهشهن، يتراجعن وهن يخمشن خدودهن ويبعثن بصراخ وعويل مر حزين.

* * *

توقفت التجريدة عند بيت هوارى، تطلب ابنه سويلم، دق خفير بابها المفتوح بكف ثقيلة، برزت له عجوز هالكة، ما إن رأتهم حتى جرت إلى الداخل، زعقت فى حفيدها سويلم وابن عمه إبراهيم، نفضا طبق المش وأرغفة البتاو، هبا واقفين، تبادلا نظرة سريعة، جريا بعدها، صعدا إلى سطح الدار، قفزا إلى الغيط، أطلقا سيقانهما للريح، عند نقطة انتهاء الغيط، قال سويلم:

ـ سأختبئ فى بوابور طحين عقور أفندى، وأنت؟

ـ فى الشجرة إياها، رح ربنا معك.

اقتحم شيخ الخفر الدار ومعه الخفيران، دار بعينيه فى المكان، سأل العجوز:

ـ أين سويلم يا وليه؟

صمتت المرأة وتدثرت بسنوات عمرها الكثيرة، دلف من باب الزريبة وصعد إلى السطح لم يبصرهما، نزل قال للصاغ:

ـ يعنى يغلبنى، أنا عارف عشه، بنا سعادتك.

كان يعرف أن سويلم عاشق بنت عقور، لابد وأنه فى وابور الطحين، اتجهوا من فورهم إلى هناك، قال شيخ الخفر لعقور:

ـ طلع الولد أحسن لك يا عقور بدل البهدلة وكب الطحين.

ـ لا يا عم قنديل، من يغلب الحكومة. من؟ الولد عندك خش هاته، قلبى لا يطاوعنى.

أخرجوه معفراً بالطحين، هتف بعقور وهو يمضى معهم:

ـ أشوفك بخير يا خال.

ـ رح يا ولدى ربنا معك.

سأل شيخ الخفر الصاغ:

ـ نقيده؟

ـ بالطبع.

هتف بهما:

ـ لا داعى، يا عم قنديل، خلينى أخرج من البلد بكرامتى. طيب أقول لك حاجة، إبراهيم هوارى مخفى فى جذع الشجرة الفارغة، هناك.

قال الصاغ وهو يضحك:

ـ نذل بالفطرة.

رد سويلم:

ـ لا، إبراهيم أخى بالروح، ما أقدر استغنى عنه.

ابتسم الصاغ وهو يتأمل العبارة، سأله:

ـ تعرف القراءة يا ولد؟

ـ أعرف القراءة والكتابة أحسن من شميعة أفندى، وأيضاً أحفظ جزء عم وإبراهيم هوارى أيضاً فصيح ويعرف القراءة والكتابة.

عند جذع الشجرة الجوفاء، هتف شيخ الخفر:

ـ اظهر وبان عليك الأمان، اطلع يا حلو.

مد يده وأمسك بتلابيب إبراهيم الذى أطل، أول ما وقعت عينه على سويلم أولاه نظرة عاتبة لائمة، قال سويلم:

ـ سامحنى يا إبراهيم، أنا قلت كأس ونشربه سويا، وأنا وأنت على الخير والشر.

* * *

لما مالت الشمس، كنا وصلنا مركز سمالوط، جاء صول عجوز، مندوب الجهادية قيد أسماءنا، سألنى أنا وإبراهيم:

ـ تعرف القراءة والكتابة يا ولد أنت وهو؟

رددت:

ـ بالتأكيد يا حضرة الصول.

قال:

ـ الصاغ جمال موصى عليكما.

ـ خير؟

ـ خير، الخدمة ستكون فى المخصوص، هيص يا حمار منك له.

في الصباح حشرونا في عربة سجن بالقطار، حتى وصلنا إلى القاهرة، قضينا أنا وإبراهيم ستة أشهر في التدريب، لكن لحد اليوم إبراهيم لم ينس لي ذلك.

* * *

تأمل نور جودت البناء الإنساني الضخم الذي يعج بالعضلات ويذخر بقوة طبيعية قال وهو ينهض عنه:

ـ يومًا سأصنع منك أسطورة في القلم المخصوص، انتهينا من ترتيب الفيللا والفضل يعود لك.

ـ العفو سعادتك.

نهض، أدى التحية، وانصرف.

* * *

قال له اليوزباشي (أحمد صالح):

ـ مضى عليك شهر هنا، ومازلت صفحة بيضاء لم يخط فيها غير اسم وشهادة، ألم تمسك حياة كلية البوليس في شيء؟ أنتم يا أولاد الذوات تدفعون ثمناً آخر غير ما ندفعه نحن، تعدمون التجربة فتفقدون الخبرة، (نهض، دار حوله، ثم واصل حديثه)، التجربة يا شيري خير معلم تضرب ثم تشرح الدرس، دعنا نخط أول سطر في كتابك.

ضغط على زر الجرس، دخل إبراهيم هواري، وحش أسطوري من وحوش ما قبل التاريخ، دق أرض الغرفة الباركيه بقدمه، فزلزل أركان الغرفة، رماه اليوزباشي بنظرة قاسية صاح فيه:

ـ بالراحة يا بهيم، يعنى تحيينا وتهد الغرفة على دماغنا، رح، إحضر بدر واصل من العمبوكة.

هتف الجندى فى آلية وهو يدك أرض الغرفة بالتحية:

ـ تمام يا أفندم.

استدار خارجاً وأحمد صالح يبادل نور جودت نظرة تعجب، قال ضاحكاً:

ـ أراحه الله من عناء العقل، برأسه قطعة لحم ملوثة بالمخ.

بعد قليل عاد هوارى يمسك بقفا بدر واصل كما يمسك طفل بعصفور بائس، وقف بدر واصل كطائر منتوف الريش، عيناه مكتويتان، جفونه ملتهبة، نزعت عنها رموشها، جسده يرتعش من البرد والخوف، ثيابه ممزقة عند الكتفين ومتسخة، فى رسغى يديه قيد من حديد.

قال أحمد صالح:

ـ بالطبع اطلعت على الملف جيداً.

هز نور جودت رأسه، واصل أحمد صالح:

ـ لقد تعرف عليه السرجنت الآخر المصاب، وأقسم إنه هو وآخران قاموا بطعنه هو والكوربورال (لى كلفت)، ولم يبق إلا اعتراف ابن القحبة هذا، حتى نقدم الملف للنيابة جاهزاً، تذكر أن هذا البغل من أتباع حجاج، وأن الوزير المفوض بالسفارة يتابع الموضوع بنفسه، ويتعجل الانتهاء منه، سأترككما معاً، أتمنى لك وقتاً طيباً.

* * *

ساعتين قضاهما مع الفتى، جرب الحيلة تلو الحيلة، أخذه بالحسنة فى بادئ الأمر ، فك قيده، طلب له مشروباً وأعطاه سيجارة، تحدث معه فى أمور عامة، ثم تطرق إلى الموضوع بحياد، كأنهما ليسا طرفاً فى الموضوع، منذ خمسة عشر يوماً،

وُجد جاويشان إنجليزيان مصابان بعدة طعنات قاتلة على مبعدة أمتار من بار يقع عند ناصية شارع جواد حسنى، أحدهما لفظ أنفاسه، أما الآخر فبقى على قيد الحياة، ولما تحسنت حالته أدلى باسم (بدر واصل) ، وبمناظرته له أقسم أنه هو وآخران لا يعرفهما، انقضوا عليهما بعد خروجهما من البار ، ووجهوا طعنات أسلحتهم البيضاء إلى جسديهما قال نور جودت:

ـ أقصد أن الإنكار لن يفيدك.

أجابه الشاب:

ـ كانا ثملين بقولك، كيف تثق بأقوال سكير؟

رد نور جودت فى حزم:

ـ هناك قرائن تقطع بصدق أقواله، فأنت طالب هارب من مدرسة ميكانيك الطيران التى يخدم بها السرجنت أيضاً، كما أنك تحوز ملفاً عندنا فى مكافحة الشيوعية، أنت من أتباع حجاج، وهناك تقارير تفيد بترددك على مكتبة الميدان، تقطع بذلك نشرات الرينيو التى وجدت معك عند القبض عليك ، ولولا ذلك لكانت النيابة العامة هى جهة التحقيق فى قضيتك.

رد الفتى:

ـ شاهد واحد لا يكفى، أنا وإن كنت يسارياً، فإننى أنتمى إلى اتجاه لا يرى العنف وسيلة من وسائل العمل السياسى.

أجابه نور جودت:

ـ أعلم ذلك، لذا تم تحذيرك من خطورة أفكار العنف التى تحملها، وقيامك وآخرون معك بقتل السرجنت جاء انتقاماً شخصياً لموت حامد.

صمت الفتى، لكنه أصر على اللعب للنهاية، راوغ نور جودت حتى أيأسه ونشف ريقه، أعاد القيد إلى يده، واستدعى إبراهيم هوارى لأخذه إلى العمبوكة مرة أخرى.

* * *

سخر منه أحمد صالح سخرية لاذعة مؤلمة، قال له:

- عديم الخبرة، طرى العود، أسلقه إن شئت، لكن لا تقل إنه لم يعترف هكذا بمثل هذه السهولة، لا شأن لى بذلك، هذا عملك أنت، يجب أن تتغير.

تركه ومضى، يجب أن يتغير، كيف؟ راودته تلك الفكرة التى مرت بخاطره من أيام قليلة، وهو يرتب فيللاه مع سويلم، الذى استدعاه، أخذه وإبراهيم إلى الغرفة التى رمى بها بدر، فتح الباب، قال لهما:

- جراه على الأرض جراً، تعاليا به ورائى؛ لكن سويلم زاغ منهما وترك إبراهيم يجتذب بدراً من منتصف القيد الحديدى الذى يلف الرسغين، جره حتى وصل به عند غرفة فى آخر الممر، قال له نور وهو يجلس ماداً ساقيه على المكتب:

- هو، لك، دق عظامه، لط به، حتى ينطق.

صرخ فى الفتى:

- ستعترف الآن.

أشعت عينا الفتى بالإصرار والتحدى.

كم مضى من الساعات عليه، وإبراهيم ينقرز جسد الفتى بالخيزرانة، أو يذيقه ثقل كفه، ركلات قدميه، ونور يجلس هادئاً، كانت روحه تتغير، فى البداية ضجت الروح بداخله، كاد يؤمن ببراءة الفتى، لكنه أغمض عينيه عن حاله، أصر إصراراً قاطعاً أن يبعث الدفء فى ذلك الوحش القديم الذى يسكن الإنسان حتى أيقظه من سباته ، لم يكن هو الذى هتف بإبراهيم:

- كفى دلعاً، لط بابن القحبة هذا.

أمسك إبراهيم ببدر، مزق بنطاله، كما نضا عنه هو أيضاً بنطاله، هم يفعل، صرخ الشاب:

- كفى سأعترف.

هتف نور جودت:

- ليس قبل أن يلاط بك.

- دون ذلك الموت، إن فعل لن أنطق بكلمة.

تراجع نور جودت عن عزمه المجنون، قال:

- اتركه الآن، حل قيده، تعال اجلس أمامى، ها، قل ما عندك.

فتح الملف وأمسك بالقلم.

(٢)

ما لم يقله بدر واصل

جنازة حارة

(الله، الوطن، الملك)، هتفنا جميعاً ونحن نحيي العلم، بعدها استدار السرجنت (لي كلفت)، مشى بجثته الضخمة نحو اللواء قائد المدرسة، ضرب كعب قدمه بكعب القدم الأخرى، هتف، فاشمأز اللواء خيرت من رائحة البصل العنيفة التي فاحت من فم السرجنت، قال بعربية عرجاء:

ـ كله تمام.

تبادل حديثاً سريعاً مع اللواء، بعدها استدار إلينا، هتف بصوت عال:

ـ كله أفرول صيانة، مفهوم، ربع ساعة تكون هنا، يللا، انصراف.

عدونا في اتجاه عنابر الكامب، مررنا من أمامه، صاح السرجنت:

ـ حامد عليش، تعال بالخطوة السريعة.

جرى حامد نحوه، توقف أمامه دق كعبي قدميه، رأيناه يقرص خده، كان فتى في السابعة عشر من عمره، له فم رقيق، يعلو شفته العليا زغب خفيف أصفر يضفي على وجهه المستدير ملمحاً أنثوياً، يتضرج وجهه بالدماء إذا ما داعبه أحد بكلمة، ذلك ما حدث عندما قرصه السرجنت في خده، لكن الفتى كان أبعد ما يكون عن الشذوذ، ضحك السرجنت، قال له:

ـ أنت صيانة لا، ستهتم بأمر ريو.

ـ تمام يا افندم.

عندما دخل العنبر ليستبدل أفرول الطابور بأفرول آخر، كان وجهه ما يزال محمراً من الانفعال، بعضنا لاحظ اهتمام السرجنت الزائد به، لكز واحد منا محمود عبد الوهاب فتنهد، قال:

ـ إيه، دنيا، ناس لها حظ، وناس الدنيا قالت لها طظ.

رد عبد الجواد على بلكنته الصعيدية:

ـ يا أخى، يا بخت من كان السرجنت خاله.

انفجر العنبر فى الضحك، من طرف خفى راقبتُ الدماء تصعد إلى وجهه البرىء الطفولى، نهض بعد أن أتم تبديل ملابسه، خرج، قمت إليهم، وقفت فى وسط العنبر، قلت:

ـ يا زملاء عيب.

* * *

كنا قد لبسنا خرقاً مهلهلة عليها بقع كبيرة من الزيت، تلك ما يسمونها أفرولات الصيانة، أخذنا طريقنا إلى الورشة، هناك تدلى من جنزير مشدود إلى السقف موتور طائرة من طراز (الجلادياتور)، فى طريقنا رأينا حامد من بعيد، يجلس أمام السرجنت (ريو) ممسكاً فى يده طبقًا معدنياً به لحم مسلوق لم نكن نصيب مثله، وبجانبه زجاجة تحتوى نصف كيلو من اللبن، لوحنا له بأكفنا، فلم يرد تحيتنا:

جاء السرجنت، وقف عنده، قال له وهو يومئ بإصبعه محذراً:

ـ خذ بالك.

فهم حامد ما يقصده، هز رأسه فى طاعة مستكينة، فهو يذكر جيداً ما حدث لمحمد الوراق، ومن منا نسى، كان الوراق واحداً من دفعتنا، ابناً لفلاح من أطفيح، قليل الذكاء، رشحه غباؤه لأن يتولى إطعام ريو وتنظيفه، فلم يكن يرجى من ورائه نفع، كان عبد الجواد على يصفه (مخه مقفول على فأس وزنبيل)، فى يوم قال لنفسه وهو ينظر إلى زجاجة اللبن التى تقدم لريو فى الصباح (وماله يا أبو الوراق هو نصف وأنت نصف)، فعلاً شرب نصف زجاجة اللبن، بعدها حاول أن يطعم الكلب قطعة

واحدة من اللحم، فلم يفلح، رقد الكلب على الأرض، مد ساقيه الأماميتين ووضع فكه بينهما متظلماً، تحول إلى تمثال صامت، كان الوراق يتوسل إليه وهو يمسح بكفه رأسه (أبوس رجل أبيك كل، حرمت أعملها مرة ثانية، كل، الله لا يسيئك)، لكن الكلب الوولف بقى ساكناً.

فى العاشرة، موعد تناول السرجنت للشاى، مر بهما، وجدهما على هذه الحالة وقف فوق رأس الوراق، والغضب يعصف به رفع الوراق من ياقته، أحكم قبضته حول زوره حتى جحظت عيناه، قال السرجنت:

ـ يا لص، سرقت لبن الكلب.

ـ لم يحدث، أقسم لك.

ـ تقسم لى، الكلب متظلم يا غبى، وأنت مكتب، لازم أحاكمك بتهمتين: السرقة، والاستيلاء على أغذية ميرى مخصص تعيين سرجنت بجيش جلالة الملك.

ـ تمام يا أفندم.

ـ حالاً مكتب.

لم يجده التوسل.

كان ريو خبيراً فى كشف الألغام، نشأت بينه وبين لى كلفت صداقة أنداد، فهو أنيس السرجنت وصفيه، يجلسان معاً فى الليالى الصائفة، يقص عليه السرجنت عن بيته البعيد، وذكريات طفولته الأليمة، والكلب يستمع إليه، لم يكن يعادل به شيئاً فى الدنيا، كل هؤلاء المتدربين فداء ظلف منه.

* * *

قُدم الوراق إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى يرأسه اللواء قائد المدرسة والسرجنت عضواً، وضابط مصرى آخر، حكموا عليه بعشرين جلدة ـ خفضت

بالتماس منه إلى عشر جلدات عند التنفيذ ـ ورفت من المدرسة، اصطففنا جميعًا لنشاهد إنزال عقوبة الجلد به، ساطه السرجنت بنفسه ليضمن ثقل الكف التى هوت بالسياط على ظهره العارى لتشق أخاديد عميقة.

فى المساء عادوا به من المستشفى، دخل العنبر مطأطئًا مكسور النفس، يسنده اثنان من الطلبة، كان يلملم حاجاته القليلة والدموع تنساب على خديه، قلت له مواسياً:

ـ هون الله عليك أمرك.

أجاب من خلف دموعه:

ـ لا يهمنى الجلد، لكن أكل عيشى ضاع.

تعجبتُ، مضيتُ معه حتى وصلنا إلى بوابة الكامب، هناك كان لى كلفت يقف متربصاً صرخ فىَّ:

ـ ارجع العنبر، اجر.

أمسك بالفتى من قفاه، صاح فيه بغضب:

ـ أنت، لص ابن زانية، اخرج.

ضربه بالشلوت.

* * *

كنا نغلى غضبًا، كل واحد منا شعر بأن ما لحق بالوراق لحق به هو، مرت أيام حالكة بنا، فى الصباح لم يعد العلم الأخضر بنجومه الثلاثة وهلاله يرفرف فوق رؤوسنا، فنحن لم ندرك الخدعة إلا عندما أصبحنا فى المعسكر بالفعل، قالوا لنا إن سلاح الطيران يطلب شباناً، وعدونا بأننا سنصبح طيارين أو مصورين جويين، لكننا

فى المدرسة اكتشفنا أشياء كثيرة، أولها أن اللواء المصرى، لم يكن سوى شُرابة خُرج وأن القائد الحقيقى هو السرجنت بما له من سطوة عليه، وبمضى الوقت أدركنا أنهم يعدوننا لنكون (طلباً) لطائراتهم، نلحسها بألسنتنا يعنى إذا طلب منا ذلك.

* * *

كان السرجنت يلف خيوطه حول حامد على مهل، وبدهاء عمل على تحطيمه أولاً لما لمسه من مقاومة، فمن وقت لآخر كان فتى المراسلة الخليع يأتى فى وقت متأخر بالليل يقف على باب العنبر فارداً ذراعيه على الباب وهو يلوك اللبان بخلاعة فى فمه المقزز الذى يشبه خطم خنزير، يضحك، ثم ينادى:

ـ حامد عليش، السرجنت رايدك.

يكمل وهو يتلكأ فى الكلام:

ـ رايدك جداً.

يضحك، فيتعالى هتاف وصفير من فى العنبر، ينهض حامد، وجهه ينضح بالخجل والغضب، يذهب ليقابل السرجنت، كنا نراه متلصصين من نافذة العنبر واقفاً انتباه أمام السرجنت الذى يجلس يدخن سيجاراً وريو مقعياً عند قدميه، يحادثه قليلاً ثم نراه يخلع سترته وبنطاله، يضعهما على الأرض ويقف بملابسه الداخلية مشدود القامة فى وضع انتباه يرتجف من هواء الليل البارد، يظل هكذا بعض الوقت، ثم نرى السرجنت يصنع دائرة فى الهواء، بعدها يجرى الفتى فى دائرة واسعة حولهما، يصيح، فيصل صياحه إلينا (كوك، كوك، أنا بعكوك.......) يظل يردد المقطع، ينفجر بعض من فى العنبر فى الضحك، انفجرت فيهم غضباً أنا وحبشى، فصمتوا.

أراه يعود، يتسلل إلى العنبر، يخشى أن يراه أحد منا، يندس فى فراشه الذى يعلو سريرى (كنا ننام فى سرير بدورين)، فى هدأة الليل أسمع نحيبه المكتوم وصرير أسنانه، ارتجافه العصبى الذى كان يهز بنا السرير.

فى الصباح وهو ينتعل البيادة أبصر يده ترتعش، أحييه فلا يرد التحية، ذهنه غائم غائب، ووجهه عليه علائم تشبه البلاهة.

بينما مضى لى كلفت فى لعبة القط والفأر متلذذاً بساديته، تراه مرة يقرب حامداً يدلله قائلاً : (أوه، مودى حبيبى، تأخذ تعيين ريو، تأكله، انتبه، إياك وأكل سرجنت ريو)، يهز الفتى رأسه، ويذهب ليؤكل الكلب.

ثم ينقلب عليه فجأة متعللاً بسبب تافه، زرار فى سترته لم يحكم إدخاله فى العروة أو يتحين خطأ هيناً له أثناء العمل، فيسلقه توبيخاً وسخرية، شيئاً فشيئاً كان الفتى ينحدر، وشيئاً فشيئاً كانت تنمو داخلنا أشياء كثيرة.

* * *

ذات مساء بعد انتهاء يوم عمل شاق طويل، جلست أتبادل الحديث مع زميلى حبشى، كان أيضاً بلدياتى من زفتى، جاء صادق جندى المراسلة، وقف وقفته المعتادة بالباب، هتف بحامد (يا بختك يا عم)، ثم قال وهو يتقصع (راحت عليك يا أبو صادق راحت عليك والله، الله يسهلك يا عم، رح).

نهض الفتى، أدار عينيه فينا فى كراهية، كانت وجوهنا صامتة واجمة، وكان وجهه أيضاً صامتاً حزيناً، أشعت عيناه بنظرة ملتاثة.

غاب حامد طوال الليل، انتظرت عودته لكنه لم يعد إلى العنبر، لم نره فى طابور الصباح، تساءلت هامساً لحبشى (أين ذهبوا به؟)، فلم يجب وظل يفكر، بعدها نادى السرجنت على محمود عبد الوهاب، كلفه بإطعام الكلب، همس البعض له، قلدوه وهو يتغامز على حامد (ناس لها حظ، وناس...) رمانا بنظرة ألجمت الجميع، كان فتى خشناً جهماً، له وجه قاتل، مشى به بإصرار إلى السرجنت، وحين حاول أن

يقرص خده أطاح بيده في عنف، ارتفعت دماء حانقة إلى وجهه، فقابلها عبد الوهاب بنظرة احتقار متحدية.

* * *

ثلاثة أيام مضت ولم يعد حامد، كنت قلقاً عليه، تساءلت أنا وحبشى الذى اقترح أن نسأل المراسلة، نادى عليه خلسة، استدرجناه خلف الميس، سأله حبشى:

- ولد يا صادق، أين ذهبوا بالولد؟

- ولد من تقصد؟

- أهناك غيره، حامد طبعاً.

راوغنا

- أبداً، مأمورية صغيرة، غداً يعود.

ساومه حبشى:

- أعطيك تعيينى الجاف.

- يا عم عندى منه الكثير.

- طيب، خذ.

دس في يده نصف ريال فضة، فقال فى شذوذ وخلاعة:

- السرجنت شرمه.

هتفنا بصوت واحد، لا ندرى كيف اتفقنا على التعبير:

- يخرب بيت أهلك.

رد الجندى فى لا مبالاة، وفى رقاعة:

ـ وماله، هو الرجل يبقى رجلاً إلا إذا جلس على... رجل، عمومًا غداً يرجع من المستشفى، سامع أن حالته استقرت.

ألجمتنا كلماته، بقينا صامتين، سألت:

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ أسكره السرجنت ثم...، أبوس ايدك أنت وهو ولا كلمة، قال يا خبر بفلوس...

انصرف عنا ونحن في حالة من التفكير والذهول، قررنا ألا نقل شيئاً لأحد وأن ننتظر.

* * *

ذلك المساء عاد حامد، وجهه يعلوه شحوب قاس، نظرته زائغة، يبدو عليه الكد العصبى والإعياء، روحه انقلبت لم يعد ذلك الطفل البرىء الذى عرفته عند كشوف النتيجة ابنًا لفلاح بائس فى رقبته أحد عشر ولداً وبنتاً، كاد يرقص من الفرحة حين وقعت عينه على اسمه فى كشوف المقبولين بالمدرسة.

ظل صامتاً وهو يجلس على طرف فراشه لم يجرؤ أحد منا أن يسأله أو يحييه، بقى طويلاً يدير عينيه فى الفراغ حتى داهمنا ليل ثقيل، اندس فى فراشه، ولما سكنت الدنيا من حوله، راح يهز السرير هزاً عنيفاً حتى أيقظنى.

فى الصباح، ونحن نصطف طابوراً لنتلقى التعيين والجراية، كان يمشى ذاهلاً ساهماً، جلس بجانبى فى الميس، التقط لقمة واحدة من مربى الأورانج، ظل يلوكها طويلاً فى فمه، ولم يأكل غيرها، ربت على كتفه مواسياً، التفت إلىّ فى غضب، كففت عنه، قلت مرتبكاً:

ـ كل، الطابور على وشك أن يبدأ.

هز رأسه فى صمت، التقط لقمة أخرى، ظل يلوكها حتى ضرب البروجى النفير، هرولنا خارجين من الميس.

* * *

كنت أرقب شحويه وهزاله فى قلق، نظرته الملتاثة سريت الخوف إلى قلبى، أحكم حول روحه دثاراً من الصمت التام، لم يكن يرد على أحد إلا بغمغمات مبهمة، السرجنت أيضًا كان خائفًا، تحاشى الاقتراب منه سواء فى دروس النظرى أو فى الورشة.

يومًا، كان قد مضى أسبوعان على عودته، حمل صينية الطعام، جلس بجانبى فى الميس، كان حبشى وعبد الوهاب يجلسان قبالتنا، قال عبد الوهاب:

ـ يوماً سأقتل ذلك الكلب اللعين.

نظرنا إليه نتبين من يقصد بالكلب اللعين، سأله حبشى:

ـ من منهما، ريو أم لى كلفت؟

ارتعد جسد حامد رعدات سريعة متتالية، فصمتنا، نظر إلينا نظرة طويلة جامدة، ثم بصق فوق المربى، قلبها فى آلية بالملعقة، وأكلها فلم يبق فى الطبق شيئاً، تبادلنا النظرات، أدركنا أنه مصاب بجنون هادئ، كل يوم يمر يزيده عزلة وصمتاً، قررنا أن نتحدث مع السرجنت فى أمره، رجوناه أن يرفع تقريراً بحالته، فيرفت، وينتهى الموضوع، لكن السرجنت خشى الفضيحة، رفض، عنفنا محذراً.

* * *

لم يلحظ أحد منا غيابه ونحن نغادر حظيرة الطائرات بعد انتهاء العمل، كان قد اختبأ داخل الحظيرة، ثم تسلل منها إلى الورشة، فتح الباب المعدنى لفرن إذابة المعادن، ألقى بنفسه فيه.

تصاعدت إلينا رائحة كريهة، انتبهنا، رأينا عموداً من دخان ثقيل يتصاعد من الورشة، عدونا، عند الفرن كانت قدماه فقط مرفوعتين إلى أعلى، أما هو فقد تفحم وتلاشى.

بعضنا صرخ صرخات هائلة، اهتزت لها بقية الأسراب، حتى جاء بعض أفرادها.

أحد الطيارين المتدربين، كان اسمه أحمد عصمت، نظر في غضب وهو يضع منديله على أنفه، ليمنع عن أنفه رائحة اللحم المحترق التى التصقت بالجدران من حولنا وعبقت المكان، كان يرتعد من الغضب، تجتاحه ثورة مكتومة، نظر إلينا، تعلقت كلمة بطرف فمه لم يقلها، استدار ومضى بعيداً.

بعضنا بكى بكاء مراً، والبعض انزوى يرتعد رعباً وألماً، أما أنا ومحمود عبد الوهاب وحبشى بقينا صامتين، تتصاعد بداخلنا ألسنة لهب مجنون، أشعت عيوننا بما لم تقله ألسنتنا، لكنها تكاد تصك أسماعنا، رغبة وحشيه فى إسالة الدماء حتى ترتوى رمال ذلك المعسكر اللعين، دماء طازجة يتصاعد منها البخار هى وحدها التى يمكن أن تطفئ ذلك السعير الذى يمسك بأرواحنا.

ليلتها غرق السرجنت فى الخمر، تناهى إلينا غناؤه الملتاث وصوته الأجش الناحب، دار فى أرجاء الكامب ينعق فوق رؤوس المتدربين.

أسر لى محمود عبد الوهاب:

ـ لابد أن أحرق قلبه، سأقتل ذلك الكلب اللعين.

قلت:

ـ لنبدأ به، وما ذلك إلا بداية.

همس حبشى لنا:

ـ أتركا الأمر لى.

بعد أيام أبرز برطمان مربى صغير به مسحوق أسود ينذر بالموت، قال لنا:

ـ أقنعت الصيدلانى بأن الفئران تظل طوال الليل تقرض الخشب العزيزى للعنابر، فأعطانى هذه الكمية، قال لى (إنها تقتل جملاً، ولا تصرف إلا بإذن خاص من اللواء نفسه).

ابتسمنا ونحن نخفى جيداً ما يعتمل فى أرواحنا من فرحة رقصت بداخلنا.

* * *

في الصباح، وُجد السرجنت ريو ممدداً بجوار السلك الشائك، يعلو جانب فمه زبد ممزوج بالدماء، ابتسمنا ونحن نخفى جيداً فرحة رقصت بداخلنا.

رأينا السرجنت ينكفئ فوقه يبكى وهو يجرع من زجاجة ويسكى صغيرة فى يده، والزبد يتطاير من فمه يسبق سيل كلمات السباب.

ربت حبشى على كتفه، رفع إليه وجهه المبلل بالدموع، قال وهو يمسك حفنة من الشعر فى قبضة يده هزها فى وجه حبشى:

- من فعل به تلك الفعلة القبيحة، من؟

هز حبشى كتفه، رمش من عينه لم يهتز، قال بصوت ثابت واثق:

- يعنى من، لابد أنه أحد الشباب الطائش ممن يسمونهم الفدائيين، أو أحد اللصوص الذين يحومون حول المعسكر.

هتف بجنون وإصرار:

- سأعدمهم جميعاً، سأبيدهم حتى لا أبقى منهم أحداً.

قال له محمد عبد الجواد بلكنته الصعيدية:

- وحد الله، لا تفعل بنفسك هكذا.

تكتمنا ضحكاتنا، اقترح أحدنا ساخراً:

- السرجنت ريو كان مثالاً للتضحية والإخلاص، وليس أقل من جنازة عسكرية تقام له فتوفيه بعض حقه.

رفع لى كلفت وجهه إلينا، أدار عينيه فى وجوهنا، ليبحث عن أدنى سخرية أو تهكم، فلم يستطع أن يخترق ذلك الحجاب السميك البارد المسدل على وجوهنا، هز رأسه، قال فى يقين:

- نعم، نعم، هذا ما سيكون.

* * *

عند الظهيرة، حضرت سيارة فان سوداء مرسوم عليها دائرة حمراء يتنصفها صليب أبيض، تحته اسم محلات (ريمون طراف)، تحمل نعشاً من خشب الأرو متقن الصنع، بطنت جوانبه بساتان قرمزى، كنا قد انتهينا من غسل جسد ريو بخرطوم الماء وقام السرجنت بنفسه بتمشيط شعره، وإلباسه سترته الكاكى التى كانت تلف جسده فى الشتاء ثبت شارة الجاويشية بها، أدى التحية له، حمله جنديان وسجياه فى النعش، بلل السرجنت فاتورة النعش بدموعه وهو يوقع عليها، ثم انحنى يضع أشياء ريو بجانبه، كمامة وسلسلة وطوق نحاسى تتدلى منه ميدالية تحمل اسمه ورتبته، تساقطت دموعه بغزارة فوق جسد الحيوان وهو يغلق النعش، تناول جرعة كبيرة من زجاجة الويسكى رفعنا النعش على أكتافنا ونحن نجتهد ألا نضحك، مشى أمامنا جنديان بخطى جنائزية وهما يحملان بندقيتين (لى انفليد) مشرعتى السناكى، اتجهنا نحو الربوة التى سيدفن فيها، كنا نرتقيها، ومن خلفنا السرجنت يرفع عقيرته بغناء مخمور، همس محمود عبد الوهاب فى أذنى (الجنازة حارة والميت كلب)، تمالكت نفسى بصعوبة بالغة حتى لا أضحك وأخليت مكانى لمن خلفى ليأخذ دوره فى حمل الفقيد.

عند الربوة أنزلنا النعش، هتف «لى كليفت» فى الجنديين:

– سلام سلاح.

دقت أكفهما الفلاحية العريضة الخشنة دبشكى البندقيتين بقوة، قام بعضنا وأعملوا الجواريف فى الأرض حتى أصبحت هناك حفرة بعمق متر ونصف المتر، عندها قام آخرون منا بإنزال النعش المربوط بحبلين من طرفيه إلى مثواه الأخير، هتف (لى كليفت):

– نكساً سلاح.

نكس الجنديين سلاحيهما فى حركة مستديرة رشيقة، فلامس سنكياهما تراب الأرض، ضرب نفير البروجى تحية وداع أخيرة، تساقطت دموع السرجنت على التراب ونحن نهيله بالجواريف حتى سوينا الحفرة بالأرض.

* * *

مضت شهور قبل أن نطمئن، فلما اطمأن القلب انفلت اللسان، تناثرت الحكاية فحملتها كلمات الواشين إلى مسامع السرجنت، لكنها لم تبلغ به اليقين، علمنا أنه يضمر لنا شراً، كان حبشي قد قابل حجاج، قال يخبرنا أنا ومحمود عبد الوهاب:

- قابلته أخيراً، لولا أنه يتكلم بعربية ركيكة لقلب العالم وغير خريطة المنطقة كلها. جسده نحيل، عيناه تسبحان بك في محيط من الحلم الواعد، أما صوته فإنه يحلق في سماء واسعة رحيبة رحابة الحرية. قصصت عليه ما حدث، أخبرته أننا في طريقنا لتنظيم إضراب. قال لي «إضراب غير محدد لا، أنتم عسكريين، يعني بين أنياب الأسد، يمكن أن يرموكم بالرصاص، هم لم ينشأوا هذه المدرسة عبثاً، أو حباً في مصر، بل لأنهم يدركون أن النسر الألماني يوشك أن يطير». سألته (وما العمل إذن؟)، فأجابني قائلاً (يجب أن يكون الإضراب سريعًا خاطفًا، لا يزيد عن ثلاثة أيام، ولأسباب محددة، ومطالب واضحة، مثل تحسين الجراية والآدام، رفع مكافأة التدريب، صرف أفرولات صيانة تليق بجنود وليس بشحاذين). سألته ما إذا كان من المستوجب أن ندرج طلبًا بالتحقيق في مقتل حامد،قال لي وبعينيه بريق خاص (دع هذا الأمر لي، ثق أن هذا السرجنت اللعين سوف يكون مآله محكمة عسكرية)، ها ما رأيكما، متى نبدأ؟ أجبته في حزم:

- الآن.

* * *

في فسحات الوقت القصيرة بين العمل والتدريب، كنا، ثلاثتنا نتجول بين المتدربين نشرح مطالبنا، الأغلبية وافقت، بينما تناثرت أصوات قليلة جبانة ومعارضة، لكنها تلاشت وسط حماسة المجموع.

في اليوم التالي بدأنا الإضراب، احتللنا ورش التدريب حتى السادسة مساء، قسمنا أنفسنا إلى مجموعات ثلاث، قاد كل واحد منا مجموعة.

جاء السرجنت إلينا يلهث، وجهه أحمر ينضح بالغضب، صوته آمر منذر، لكن أحد لم يعبأ، اندهش من ضياع كلماته في الفضاء دون أن يلبي أحد منا أوامره، أو يأبه لسبابه، تفرس في وجوهنا الصامتة وجهاً وجهاً، وهو يمشي بين صفوفنا هتف:

- عظيم، ترفضون العمل، حسن، أعطيكم فرصة أخيرة قبل أن أبلغ القيادة.

أشار إليّ بإصبعه:

- أنت، تقدم.

نظرت في صمود إليه ولم أخطُ خطوة واحدة، قال:

- عال جداً، أنت زعيم الإضراب؟ أنت ترفض العمل؟

أجبته في هدوء وثقة:

- نعم أرفض العمل قبل أن تجاب مطالبنا.

ضرب كتف حبشي بعصاه ضربة خفيفة، سأله:

- وأنت؟

أجابه بوضوح:

- معه، أنا والآخرون، لن نعمل قبل أن تجاب مطالبنا.

تعالت الهمهمات والأصوات من كل جانب (ـ تضيع وقتك، مطالبنا أولاً).

كان يكظم غيظاً هائلاً، وجّه كلامه إليّ:

- عظيم، سأبلغ القيادة.

* * *

كان علينا أن نصمد يومين آخرين قبل أن يأتي قائد المدرسة بنفسه إلينا، اصطففنا ثلاثة صفوف بأفرولات الصيانة الممزقة المهترئة، وجوهنا الفتية متهضمة

بفعل سوء التغذية تلمع فيها عيون مذهولة عصبية، وطّنا القلب على ألا يجزع مهما حدث، مشي بين الصفوف يستعرضنا، توقف عند محمود عبد الوهاب، سأله:

- ها، ترفض العمل؟ أتعرف ما الذى يعنيه الإضراب عن العمل؟ يمكن أن ترمى بالرصاص.

بقى الفتى ساكناً، تركه القائد، مر بين الآخرين، سألهم، أجابوا إجابة واحدة واضحة قاطعة، كان وجهه محتقناً حائراً، يمشى خلفه السرجنت، لأول مرة أراه بلا غطرسة، مضطرباً، كثير التلفت، فجأة مال عليه القائد، همس بكلمتين، قبل أن يقول:

- حسن، فلنناقش الأمر، شكلوا لجنة من ثلاثة منكم لترفع مطالبكم إلينا.

ثم استدار خارجاً وفى عقبه السرجنت.

علت صيحات النصر، لأول مرة نشعر بذلك المذاق، اقشعرت أبداننا الفتية الهزيلة، تبادلنا الأحضان، صرخنا:

- هزمناهم.

* * *

مر شهر كالحلم ونحن فى نشوة الانتصار، تغيرت نوعية الجراية وزيدت مكافأة التدريب. يوماً مضينا ثلاثتنا لنقابل الرجل النحيل الذى يشبه غاندى فى شقة بشارع شريف. جاءت فتاة حسناء لها شعر نحاسي وبشرة تشى بانتمائها إلى عرق أوربى، كانت تلبس بلوز شفافًا يحدث بمفاتن جسد تضوع أنوثته فتعبق المكان، دوختنا ابتسامتها، كدت أهتف بها نحن جنود بؤساء فارحمينا، نظرتها وقعت بسرعة على أحذيتنا المتربة ووجوهنا التى لوحتها الشمس وشققتها رياح الصحراء الجافة، قالت بعربية سليمة:

- ستقابلون حجاج بعد خمس دقائق بالضبط، ماذا تشربون؟

أجبنا بلسان مبلبل:

- شاى.

بعد خمس دقائق بالضبط جاء حاملاً صينية الشاى بنفسه، قدمه إلينا، كان يلبس بنطالاً كاكى قصيراً وقميصاً أبيض وينتعل صندلاً بنياً، قامته فارهة وجسده نحيل، عظام وجهه بارزة، ساعداه طويلان هزيلان، حين تكلم كان آية فى التواضع، لكنه باسترسال الحديث أفصح عن حماس نبى شرقى، كانت نبرات صوته ترن فى أرجاء الغرفة، كأنه يوقع ضربات فنان على قيثارة، لم يكن ما قاله حبشى إلا صدقًا، إنه يسبح بك فى سماوات زرقاء، يفض لك مغاليق بوابات الأحلام حلماً حلماً، ها أنا أطل من علياء على أرض ساد بنى الإنسان فيها العدل والحرية والمساواة، لقمة ممزوجة بقطرات عرق الشغيلة، كأنها خبز الذبيحة ودماء الفادى، ونحن نلتقط قطع الكرواسون ونقضمها ذاهلين.

أخذنى الحماس، عرضت عليه فكرة قتل السرجنت انتقاماً لمقتل حامد، نظر إلىَّ مندهشاً، قال:

- لسنا قتلة، نحن نرفض الاغتيال، بل ونديته، إنما ننشد الثورة، والثورة تصنعها الجماهير، وليست الاغتيالات الفردية، ويجب الآن أن أعرف منك إن كنت تتفق معى أم لا بوضوح وصراحة.

أجبته وأنا أهز رأسى:

- اتفق معك بالتأكيد.

قال:

- أرجو أن تكون مقتنعاً بذلك اقتناعاً حقيقياً دائماً.

صمت، كأنه يقرأ خبايا النفوس، فأنا لم أكف عن الحلم بقتل السرجنت منذ أن رأيت قدمى حامد فى فرن إذابة المعادن كأنهما كفان تتوسلان إلىَّ أن خذ بثأرى.

قال:

ـ طب نفساً، ستسمع قريباً أخباراً بشأن ذلك السرجنت.

أَعّلَمنا أننا صرنا أعضاء فى التنظيم، وأن علينا أولاً أن نتلقى محاضرات فى مدرسة الكوادر، تساءلنا ونحن نتبادل النظرات عن كنه هذه المدرسة، قال لا تتعجلوا، عليكم فقط تدبير أسبوع تتفرغون فيه تماماً للانتظام فى الدراسة، كنا بذلك أمام مشكلتين أولاهما تدبير أسبوع بأكمله إجازة يصرح لنا فيها بالغياب عن المدرسة، وهى مدة طويلة نسبياً، فالإجازة الشهرية لا تزيد عن خمسة أيام، سيحل علىّ الدور بعد أيام قلائل، وبذا يكون الأمر قد حل بالنسبة لى وعلىّ أن أتدبر اليومين الباقيين، أما بالنسبة لحبشى ومحمود عبد الوهاب، فكيف يتأتى لهما ذلك، والمشكلة الثانية فهى التزامن، لكننا اتفقنا أن يكون بدء إجازتى الشهرية، هو نقطة البداية.

استطاع حبشى التغلب على المشكلتين معاً، بأن أرسل له قريب برقية تفيد وفاة شقيقته الصغرى التى كانت متوفية أصلاً منذ أعوام، وقع له السرجنت تصريح الغياب بنفسه من قائد المدرسة، فلم يكن يأول جهداً لتحسين صورته، التى كان يعلم من نظراتنا الكارهة على أى قدر من السوء باتت عليه.

أما محمود عبد الوهاب، فقد لجأ إلى حيلة تعلمها من أحد مساجين المدرسة، تناول علبة حلاوة طحينية وضع عليها شطة سودانى لاهبة، فأحدث تهيجاً بشعاً فى معدته، جعله يعدو كالمجنون فى أرجاء المدرسة، ذهبنا به إلى المستشفى حيث جرى له غسيل معدة، أوعز بعض الطلبة للسرجنت أن يوقع له تصريحاً بالغياب لمدة عشرة أيام، حتى إذا ما حدث له مكروه أو مات، لا يقع السرجنت فى أية مشاكل، وهو ليس فى حاجة ماسة إلى المزيد منها.

* * *

ما إن أصبحنا خارج المدرسة حتى تقافز محمود عبد الوهاب كالقرد وهو يهز التصريح بيده فى الهواء ويضحك...

هرعنا إلى قلب المدينة، هناك اتصلنا بحجاج هاتفياً، دعانا للحضور إليه فى شقة شارع شريف.

وهو يمد يده مصافحاً، قال بإعجاب سائلاً:

- كيف تدبرتم أمركم على هذا النحو المدهش؟

قصصنا عليه ما حدث فابتسم وهو يتعجل الحديث عن كيفية وصولنا إلى المدرسة، قال:

- بجوار مقهى الكورسال فى عماد الدين، فى تمام العاشرة مساء، ستجدون سيارة فيات سوداء رقم ٢٢١ ، اسألوا السائق عن الساعة، فإذا أجابكم بأنها العاشرة إلا عشر دقائق، استقلوها على الفور.

نهضنا مستأذنين، ولما كانت الساعة توشك الخامسة مساء، كان علينا أن نقضى خمس ساعات كاملة فى التجول، بدأناها باستطلاع مكان المقابلة حتى لا يلتبس علينا الأمر حينها، لكننا بعد ساعة، كنا قد مللنا التجوال، قررنا أن نشاهد السينما، مضينا إلى سينما مترو حيث استمتعنا بمشاهدة شارلى شابلن يسخر من مغالبة الحياة لأمثاله من البسطاء، لكنه كان يعد بالانتصار فى النهاية.

عندما حل الموعد كنا هناك، توقفت السيارة الفيات بجوارنا، انحنى حبشى سائلاً عن الساعة، أجابه السائق وهو يبتسم (عشرة إلا عشرة)، كانت فى لسانه لكنة يونانية أثارت مرحنا. مضت بنا السيارة مسرعة، جاوزت المدينة خلفها، عندما أصبحنا خارجها، عند أول الطريق الزراعى، أوقف السيارة، نزل، وأخذ يعصب عيوننا بعصابات سوداء، أثار فعله ذلك فى نفوسنا الهواجس، لكن صوته كان يحمل إلينا طمأنة خاصة.

عند انتصاف الليل كنا قد وصلنا، نزع العصابات عن أعيننا، كانت الظلمة متمكنة فلم نستبن ما حولنا، أخذنا إلى غرفة فرشت بالحصير، سمعنا همهمة أصوات

تتململ فى نومتها من جراء حركتنا، تكسر ضوء بطارية اليد التى بيد السائق على أجساد خمسة أشخاص نائمين، دلنا على أماكن نومنا، قال:

- تصبحون على خير الآن.

بادلناه التحية، ومضى.

* * *

فى الفجر، سمعنا حركة أجساد تتيقظ، نهضنا، سمعنا خوار عجول بقر تتناهى إلينا من بعيد، أطللت برأسى من النافذة، رأيت أبراج حمام ثلاثة، فأدركت أننا فى منطقة ريفية، بل هى عزبة، محاطة بسور عال من الطوب اللبن، (عرفت فيما بعد أنها تقع فى المنصورية عندما شاهدت أبراج الحمام الثلاثة أثناء تحليقى بالطائرة، طلبت من الطيار أن يحلق على ارتفاع منخفض، فتمكنت من رؤية خفير من خفر العزبة).

كان قوامنا خمسة عشر دارساً، هم صورة مصغرة من الشعب المصرى، البعض كان عمال نسيج، وآخرون كانوا موظفين بالإدارة الحكومية، هناك أيضًا طالبان، أحدهما طالب حقوق فى جامعة فؤاد الأول، والطالب الآخر كان أزهرياً، أصابنى هذا بالاستياء استغربت الأمر، لكننى عرفت فيه بعد أيام قلائل شخصاً نبيلاً مملوءاً بالحلم.

يبدأ اليوم الدراسى، عند شروق الشمس بعد أن نكون قد تناولنا إفطارنا، كان الطعام هناك بسيطاً كل البساطة، فالإفطار يتكون من الجبن القريش المهروس الممزوج بالزيت وأرغفة من العيش الفلاحى المرحرح الذى خبزته الفلاحات زوجات من يعملون بالعزبة من فلاحين أو خفراء، أما الغداء فلم يكن يزيد عن الإفطار كثيراً، فهو على نفس النحو بالإضافة إلى البطاطس المسلوقة، والعشاء لمن يرغب كان صورة من الغداء.

عندما ننتهى من الإفطار، نذهب إلى المدرسة، (أية مدرسة كانت تلك - سقيفة من حصير البوص، وكراسى، الواحد منها له ذراع ممتدة عريضة يمكنك أن تضع عليها كراستك وقلمك)، وقبل أن نبدأ نأخذ فى إنشاد نشيد الدولية مترجمًا إلى العربية، جوقة واحدة يقودها المصرى بصوت أجش يفيض حماساً، لما ننتهى نجلس إلى الدرس، والمحاضرات كلها كانت تدور حول أمراض المجتمع المصرى الثلاثة، الفقر والجهل والمرض، أحدها، دون ترتيب يأخذ برقبتى صاحبيه، هى إذن لوازم ثابتة للنظام الإقطاعى، لكن رجال الإقطاع لم ينسوا أن يأخذوا ثالوث الشر معهم حين اتجهوا لاستثمار فائض أموالهم فى الصناعة، ليطعموا حياة العمال بها، باعتبار أن المأساة جزء طبيعى لا يمكن لحياة الشعب أن تسير بدونها.

كنا نقضى الليل فى مناقشات حرة، أو فى كتابة ملخصات للمحاضرات التى استمعنا إليها.

كان علىَّ أن أرحل قبل نهاية الأسبوع، لألحق بمدرسة الميكانيك، حجاج يعلم ذلك، رتب لى عودتى وحيداً، شددت على يده، قال لى:

- سأرتب لك فى الشهر القادم الحضور لتعويض ما فاتك، فاليومان الباقيان خصصا لمستقبل الاشتراكية، الأمل فى إزاحة كل هذا الوسخ.

اقشعر جسدى من وقع كلماته، هززت رأسى، همست:

- إلى لقاء قريب.

* * *

السيارة تقطع المسافة بى، وأنا معصوب العينين أسبح فى محيط من الظلمة أبحث عن خيط من الضوء، ثم.. ثم، أمسكت به، لا، بل انبثق بداخلى شعاع من النور الساطع، فاض حتى أزاح الظلمة، ألقاها فغابت فى محيطها، رأيت فى سطوة

الحلم عليّ الحقيقة جلية، من أيام جئت ذلك المكان يائساً، وها أنا عائد مفعماً بالأمل، أتيت واحداً من هؤلاء الذين يرزحون تحت ثقل هائل من مشاعر سوداء، وعدت عارفاً الآن أن مشاعرى وهم كاذب صنعه زيف الحياة من حولى، أمضى الآن خفيفاً مجنحاً فى سماء واسعة رحيمة تحبنى وأحبها، أضرب بجناحى، أقطع المسافة بين الوعد والحقيقة فى طرفة عين، ثم أعود إلى الحلم الواعد، أدور فى جوانب عالم جديد، به مدن جديدة، وناس جديدة تلبس ثياباً جديدة لا تخفى روحها الجديدة ، التى تشبه تماماً تلك الروح التى تشيع من وفى حجاج، كل هذه البساطة والجمال والحب، كيف اجتمعت لإنسان واحد؟!، عندما جئت إلى المدرسة، كان يساورنى بعض الارتياب بشأنه، كنت أسأل نفسى كيف لأجنبى متمصر أن يقود حركة تحاول أن تُفهم الناس أن المأساة ليست بالضرورة جزءاً من حياة البشر متى فهموا وحاولوا مخلصين بناء عالم جديد، لكن أيامًا قليلة كانت تكفى لإزاحة وساوسى الموروثة، أزاحها ذلك التيار من الجدية والصدق فى حب البشر جميعًا الذى كان يهدر دافقًا منه.

أمران أوقفا تدفق تلك المشاعر بداخلى، أحدهما عجبت له، والآخر سؤال ولم يزل، عجبت كيف تراجعت فكرة قتل السرجنت تماماً حتى كادت تتلاشى، فتشت عن صورتى وأنا اغتاله غيلة مرة، وتارة فى مواجهته أفضحه وأشهره قبل أن أرميه بالرصاص، وثالثة أراه متدليًا، ساقاه تدوران فى الهواء، وهو مشنوق كالكلب، كل تلك الصور التى اعتمر بها خيالى واعتملت بداخلى غابت عنى، لم يبق منها سوى طيف بعيد مبهم.

لكن السؤال اقتحم عليّ وداعتى الطيبة الهانئة، لماذا يصرون على استثناء القضية الوطنية من أولوياتهم؟ أخوفاً من الاصطدام بالإنجليز؟ لكن الخوف لا يصلح سبباً لذلك، عندما سألته صراحة، أجابنى (نحن لا نضع العربة أمام الجواد، لابد من إدراك الشعب كله لحجم مأساته الاجتماعية أولاً وإيمانه القاطع بأن الاشتراكية هى

طريقه للخلاص من أدرانه، أما القضية الوطنية فالجميع يعمل بها حتى الخونة والمتملقين.)، سكت لكنني لم اقتنع، لمس هو ذلك بحدسه الحاد، وضع يده على كتفي قال (غير مقتنع)، هززت رأسي، ابتسم وهز رأسه، قال:

- أمر طيب أن نختلف، لكن عليك بالالتزام.

* * *

عدنا إذن إلى مدرسة الميكانيك أشخاصاً جدداً مملوءين حماساً وثقة وجدية، أمام أعيننا هدف وإن كان بعيداً، إلا أننا نكاد نلمسه بأصابع من خيال، حتى كان ما كان.

* * *

كنت أردد أنا وحبشي نشيد المارسييز الذى حفظناه بالفرنسية في المدرسة في فسحة الوقت بين المحاضرات، على الرغم من أننا كنا جاهلين بالفرنسية، جاء محمود عبد الوهاب، سمته يخبر عنه، حاملاً أخبار هامة، قال وأنفاسه المبهورة تتلاحق:

- جاءت لجنة تحقيق على رأسها كولونيل إنجليزى ومعه محققان، رأيته يمسك في يده نشرتنا التى كتبت فيها موضوع حامد، استدعى السرجنت من عنبر التدريب، هناك أغلقوا باب القائد عليهم، ثم انفجر زعيق هائل الدوى برطانة إنجليزية، تبينت منها سباباً مقذعاً، بعضنا اختلس النظر من زجاج النافذة، رأوا السرجنت يقف انتباه وجهه مثل الكبدة، بينما جلس الرجال الثلاثة وعلى يمينهم جلس القائد صامتاً حائل اللون.

توقف يسترد أنفاسه، صمتنا حين رأينا جندى المراسلة قادماً فى اتجاهنا، قال:

- أنتما الاثنان مطلوبان لأخذ أقوالكما.

أشار إليّ أنا ومحمود عبد الوهاب، مضينا أمامه يتبعنا حبشي من بعيد، دخلنا الغرفة أدينا التحية، أشار إلى محمود عبد الوهاب أن يبقى خارجًا، أدى التحية واستدار خارجاً، سألنى الكولونيل وهو يهز الجريدة:

ـ أتعرف هذه النشرة.

كان أحد المحققين يترجم عنه، أجبت بوضوح وثقة:

ـ لا.

استدار بجنبه إلى المترجم، قال:

ـ فى هذه النشرة موضوع عن دارس ألقى بنفسه فى فرن إذابة المعادن من شهر ونصف، أأنت الذى سرب تلك الأخبار إلى هذه الجريدة؟

أجبته بنفى قاطع، تلا عليّ المحقق ما هو مكتوب، فأجبته مؤكداً صحة كل حرف وكلمة ورد بالنشرة، هتف الكولونيل:

ـ حسن، خذ أقواله.

كان المحقق الأول يسأل والآخر يسجل، بينما كان القائد فى حالة يرثى لها، وجهه ممتقع، بجانبه يقف السرجنت، خلته بال فى سرواله، ينظر إليّ نظرة متوسلة جعلت وجهه شبيهاً بوجه ريو، لما انتهوا من أخذ أقوالى استدعوا محمود عبد الوهاب وعلى الرغم من مفاجأة الموقف لنا، إلا أن سلوكه وأقواله مع مراوغة المحقق ودهائه جاءت مطابقة لأقوالى.

* * *

حوكم السرجنت، خفضت رتبته إلى كوربورال، كما حكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر قضاها بسجن المدرسة، كان فى الفسحة اليومية يرشقنا بنظرات متوعدة، لكنه ما إن قضى عقوبته حتى نقل إلى السرب، جاء بدلاً منه سرجنت جديد، ابن حرام

لا شائبة فى ذلك، كان صديقاً لـ (لى كلفت)، عرف منه كل ما جرى، ووضع إصبعه على مقتل ريو مسموماً، وبهدوء وسرية تامة تقصى ما سمعه من قِبَل لى كلفت، أخذ الكلام من أفواه الواشين السابقين، ورفع تقريراً سرياً بذلك.

يومًا جاء فريق من الأطباء بينهم إنجليزى، بعضنا تلقى الأمر بحفر مقبرة ريو وإخراج جثته، ثم وضع الرميم فى كيس من المشمع، أخذوه معهم، وبعد أيام فتِشت الأجزخانة، روجعت كمية السموم المنصرفة لقتل الفئران، فوجدت ناقصة الخمسة عشر جرامات التى ابتلعها ريو، أسقط فى يد الصيدلانى، فاعترف ليحمى نفسه، قبض علينا أنا ومحمود عبد الوهاب وحبشى، استجوبنا بوحشية منقطعة النظير، لكننا صمدنا، جاءت إلينا رسالة من حجاج (ليس أمامكم سوى الصمود، والثبات على الإنكار)، ذلك ما كنا عليه بالفعل، لكنهم كيفوا القضية ووجهت لنا عدة اتهامات، أولها وأدناها سرقة عهدة أميرية، ثانيها الاتفاق الجنائى عن وعى وعن بصيرة على قتل أحد أفراد الجيش الإنجليزى وهو السرجنت ريو، وتنفيذ الجريمة مع سبق الإصرار والترصد، وأخيراً تسريب أخبار ومعلومات عن الجيش إلى جماعات سرية محظورة.

قال لى المحامى الذى انتدب للدفاع عنا:

ـ موقفكم فى غاية السوء، لقد أجاد السرجنت هارفى جمع الأدلة ونسج خيوط القضية، كما أن اعتراف الصيدلانى والشهود قاطع ضدكم، وفى أحسن تقدير، ستواجهون السجن خمسة عشر عاماً.

صمتنا، احتفظنا بهدوء عال، لقد أصابنا ما لقيناه من تعذيب بنوع من البلادة والجلد سألته:

ـ والحل من وجهة نظرك؟

صمت، ثم قال:

ـ الاعتراف هو الحل الوحيد أمامكم، لأنه سيحسن تحسناً طفيفاً من موقفكم.

نظرت إليه فى تهكم، واصل:

- إذا وافقتم على الاعتراف، يمكننى أن أقدم معه التماساً مكتوباً إلى المحكمة التمس فيه التخفيف عند إصدار الحكم، وبعد صدوره أقوم بجولة ثانية والتماس آخر، لأنه كما تعلمون لا استئناف ولا نقض فى الأحكام العسكرية، وربما استطعت أن أصل بالحكم إلى خمس سنوات، ستقضون عاماً واحداً منها فى السجن العسكرى، أما باقية المدة فسترحلون إلى سجن مدنى.

كان يتكلم كأنه قاض وليس محامياً، لاحظ تبادلنا النظرات، صمت، ثم قال:

- آسف من صراحتى، لكننى لم أرد خداعكم، رغبت فقط فى وضع الصورة كاملة وبوضوح شديد أمامكم.

سألته أن يترك الغرفة دقائق لنتحدث سوياً أنا ورفيقاى، فخرج، قال حبشى:

- إنه ابن قحبة هو الآخر، ربما كان مدسوسًا علينا، وما الذى يدعونا إلى الإيمان بصدق كلامه، ربما أودى بنا ذلك الاعتراف الذى يدعونا إليه إلى الرمى بالرصاص.

اتفقنا جميعًا على إنه ابن لزانية، فما يدعونا إليه ليس سوى قفزة فى المجهول، بل إنها تضمن أن نقع بالحتم تحت حكم لا نعرف فحواه، همس لنا عبد الوهاب:

- لم يبق إلا عشرة أيام على مثولنا أمام المحكمة - (كانوا قد أعلنونا بذلك) - حجاج بعث مع محمد عبد الجواد صندوقاً صغيراً جداً، لنرى ما يقول أولاً.

بعد قليل دخل المحامى الغرفة بلا استئذان، جلس دون أن يسأل قلت له:

- نحن لم نفعل شيئاً لنعترف به.

* * *

فى المساء تلقينا رسالة حجاج محشورة فى رغيف، علبة سوداء على هيئة متوازى مستطيلات، طولها ثمانية سنتيمترات، وعرضها خمسة، وارتفاعها سنتيمتران، انزوينا فى ركن محبسنا كالجراء، علي ضوء أعواد الثقاب قرأنا رسالته القصيرة (أحيى صمودكم، الحرية هدية، أخبروني بالموعد بالضبط)، أسفل الخطاب وضعت خمسة مناشير لا تتجاوز طول إصبع اليد، صنعت من صلب قاس لامع، وعلبة تشبه علبة السعوط بها شحم أسود، وكفى.

ابتسمنا ونحن ننظر إلى الكوة المربعة التى تعلو رؤوسنا على ارتفاع ثلاثة أمتار وعشرين سنتيمتر، تقطعها خمسة قضبان غليظة مربعة سمكها ثلاثة سنتيمترات، بدا الأمر شبه مستحيل، لكن ما يسوغه هو أنه الأمل الوحيد.

* * *

كنا نعمل بإخلاص وهمة وافرين، فى الخدمة الثالثة، عندما تكل أقدام الخدمة من متابعة الخطو فوق رؤوسنا، وتهمد ننتظر ربع ساعة حتى نضمن أن النوم والبرد دفعاه إلى اللجوء إلى برج المراقبة الخشبى الذى يقع فى الطرف الآخر، نتبادل الوقوف فوق أكتاف أحدنا الآخر، وفى تؤدة حتى لا نحدث صوتاً نشرنا الأسياخ الخمسة لم نترك منها سوى ما يبقيها معلقة، وما زاد الأمر عناء هو أن نشرها يجب أن يكون عند آخر طرف لها من السقف، حتى نقلل مما ستحدثه من تمزيق لخصورنا، عملنا أيضاً على التقليل من الطعام، فلم نكن نأخذ منه سوى ما نتبلغ به، حتى برزت عظام وجوهنا، ولمعت عيوننا فى ذهول، وفاح عفن أفواهنا. تعجب هارفى من عودة أغلب الطعام، لكنه عزا ذلك إلى انهيارنا.

فى رغيف من الجراية دسسنا الرسالة إلى حجاج (فى الرابعة فجراً)، حملها إليه عبد الجواد، انسل ليلاً عبر السلك الشائك، وهبط بالرسالة إلى القاهرة، وجاءنا بالرد (الفيات ٢٢١ غرباً 4 /فجراً) قالها بسرعة لكن بوضوح، ابتسمت، قال أيضاً:

ـ فى الرابعة إلا ربع سأتضاحك مع زميل، فأهتف قائلاً سيب الملك للمالك، عندها ستشرعون، أتمنى لكم حظاً سعيداً.

ذلك اليوم أكلنا إلى حد التخمة، ونمنا من السادسة بعد إعادتنا والتأمين علينا، وفى الواحدة استيقظت، أيقظت صاحبى بصعوبة، كانا ينامان كالقتلى، بعد ساعة سمعنا صوت أجزاء السلاح تقرقع فى سكون الليل، فعلمنا أن الوردية تغيرت، كل ثانية مرت كحز الموسى فى أرواحنا، حتى ترامى لنا النداء (يا شيخ سيب الملك للمالك)، اعتليت كتفى حبشى، ورحت أفل ما تبقى من جسد الأسياخ وأناولها فى حرص، لحبشى أو عبد الوهاب ليضعها فى هدوء على الأرض، بالضبط ربع ساعة ربما أقل، كنت قد انتهيت من أمرها، آخر القضبان لم أناوله لأحد، أخذته فى قبضتى، أطللت برأسى، رأيت الخدمة ينزوى فى البرج الخشبى، رأسه تدلى على صدره فى وداعة، سحبت جسدى بصعوبة وأنا أكتم الألم من حز أطراف القضبان فى جنبى، صعد بعدى عبد الوهاب، حاملاً بطانية مهترئة كنا نتدثر بها، دليناها عبر الكوة، تعلق بها حبشى، أدقنا وأنحلنا عوداً، جذبناه بسهولة لأعلى، عندما استوى ثلاثتنا على سقف السجن، تسللنا على أطراف أصابعنا غير أن القضيب الذى كان بيد حبشى وقع، قرقع محدثاً جلبة، تنبه الحارس، هتف بكلمة واحدة، (حرس..)، ما كان ليكملها، لا أدرى كيف وثبت كل تلك المسافة التى تفصل بيننا، فى لحظة كنت فوق رأسه، أهوى بالقضيب على رأسه، جحظت عيناه، سقط على الأرض مغشيًا عليه والدم يسيل من رأسه، أخذت بندقيته لأضمن له محاكمة سعيدة.

* * *

قفزنا إلى الأرض كأننا أشباح، عدونا إلى الجانب الغربى من السلك الشائك الذى تولت لفاته الكثيرة ثقب أجسادنا، هناك كان السائق اليونانى واقفاً يبتسم فى هدوء لنا، حتى أبواب سيارته كانت مفتوحة، والإطار الاحتياطى مسنوداً إلى العربة كنوع من

التمويه، ألقاه بسرعة فى شنطة السيارة، انطلقت بنا السيارة فى سرعة مجنونة على مبعدة عشرة كيلوات توقف، قال وهو يشير إلى الحقيبة (بسرعة)، استبدلنا ملابسنا بثياب أفرنجية أنيقة، وجلسنا هادئين، مد يده بخطاب، أخذته، كان من حجاج (يؤسفنى أنه يجب ألا أراكم لأطول فترة ممكنة وكأصدقاء فقط، حيث إن المكتب، اجتمع وصوت بأغلبية الأصوات على رفتكم من التنظيم، وفيت بوعدى لكم نظير بطولتكم الخارقة على تحمل التعذيب، وإصراركم على الكتمان، مرفق طيه مبلغ من المال عساه أن يعينكم، ونسخة ملابس كاملة بها توليفة من بزات أعمال مختلفة لتساعدكم على الاختفاء، كما أن هناك فى جيب البزات التى تلبسونها بطاقات هوية تحمل صوركم صنعها خبير إيطالى، كفاه يجب لفهما فى حرير، حظاً طيباً، وإلى لقاء أرجو ألا يكون قريباً) صمت، أعطيت الخطـاب إلى حبشى، قرأه هو وعبد الوهاب معاً .

* * *

عند ناصية شارع فؤاد التى تفضى إلى بولاق، توقفت السيارة، انحنى السائق اليونانى لنا وهو يفتح أبوابها، نزلنا، قلت:

- إلى اللقاء.

قال كالنبوءة:

- بل وداعاً.

انقبض قلبى من وقع الكلمة، كان الفجر يموت بين كفى القاهرة، وضياء صباح وضاح يعشى عيوننا ويشى بيوم صائف على غير موعد له، انطلقت السيارة لتعبر كوبرى أبى العلا متجهة إلى الجانب الآخر، حيث تقبع القاهرة الأوربية بفيللاتها وقصورها، ونحن ننقل الخطو، فى اتجاه باب الحديد، ذلك أول ما خطر برؤوسنا المشوشة، لكن قدراً من التريث والحذر حدا بنا إلى عدم التعجل فى ركوب القطارات التى ستقل كل واحد منا إلى بيته وبلدته، فهما أول ما سوف يقتحمها البوليس بحثاً عنا، قلت:

ـ لننحرف إلى ناصية كلوت بك، نتناول إفطارنا فى مطعم اسكندر على الأقل.

لا أعـرف من أين تـسلل إلينا روح من المرح، ربمـا بفـعل الحـرية التـى كنا نعلم الآن ما أثمنها، كل دقيقة تمضى بنا تساوى أبداً، خلّفنا محطة مصـر وراءنا، مضينا إلى المطعم قـدم لنـا العـجـوز الأرمنـى أطبـاق الفـول والزيتـون، المبلغ الذى تركـه لنا حجـاج لم يكن هيناً، بل هو أكبـر مبلغ من المال أمـسكته يداى، مـائتان من الجنيـهات، ابتسم الرجل وأنا أمد يدى بعشرة جنيهات إليه، قال:

ـ الحساب سبعة عشر قرشاً يا سيدى.

ارتبكت قليلاً، قلت:

ـ لتونا نزلنا من الأورنوس إجازة.

قال:

ـ خلى عنكم خالص الحساب.

أجبته مصمماً:

ـ لا يمكن.

أخـذ الجنيهات العشـرة، ومـضى خـارج المحل، ثم عـاد بعد قليل ببـقية الحساب، جلسنا على مقهى سطوحى نتناول الشاى ونتدبر أمرنا، قلت:

ـ لا عودة لأحـد منا إلى بلدته على الإطلاق، كما أن وجودنا معاً سيكشف سرنا، سنقتسم المال بالتساوى، ويمضى كل منا إلى حال سبيله، موعدنا دائماً السادسة مساء، على هذا المقـهى. إن لم يجئ أحـد منا، علينا ألا نكف عن التـردد فى نفس المـوعـد حتى تستقر بنا الأمور.

* * *

وجد عبد الوهاب غرفة فى بولاق سكنها عن طريق قريب له، واشترى عربة يد يسرح بها بالخضار، أما حبشي، فوجد عملاً فى ورشة بالسكاكينى لميكانيكة السيارات، وغرفة بالشرابية، أنا أقمت بالمطرية ووجدت عملاً بأحد مصانع الزجاج بدير الملاك، هناك وقعت فى يد وحش، هو صاحب المصنع، كان ينصب فلقة من الحديد على بابه، ليمد من يتأخر من العمال فى الصباح عليها، أول أسبوع انتهى على خير، ذهبت لأقبض مرتب الأسبوع، رأيته، يقف عند شباك القبض، يوجه تعليماته للصراف، (خصم خمسة عشر قرشاً من بسلامته نظير كسر نصف صندوق من الزجاجات)، يأخذ العامل ما تبقى من ملاليم يقلبها فى يده ويمضى دون أن ينطق بكلمة، رأيت صاحب المصنع ينظر إلىّ ويبتسم، حين جاء الدور علىّ، وضع يده على كتفى، قال:

- الحقيقة أنت ممتاز فى عملك.

شكرته، وقفت أمام الصراف الذى نظر إلىّ فى استغراب باد، سألنى:

- خير؟

قلت:

- الأسبوعية..

ضحك وهو يتعجب أكثر، سأل:

- أنت لم تعمل فى مصانع من قبل؟

قلت:

- بالطبع عملت.

قال صاحب المصنع من خلف ظهرى:

- يبقى ناسى يا نظير أفندى، أعطيه خمسة قروش سلفة، أخصمها الأسبوع القادم.

مد نظير أفندى يده بالقروش الخمسة إليّ وهو يقول:

ـ هذا الأسبوع هو أسبوع الباب، اسم الله عليك.

ابتعدت وأنا أسمع صوت صاحب المصنع يهدر غضباً:

ـ عطل طلمبة المازوت وردية كاملة وجاء ليقبض بروح أمه.

كان صوت الرجل يترامى إليّ متوسلاً ذليلاً:

ـ أخصمها على دفعات ربنا يعلى مراتبك.

كانت أصواتهما تخفت تتلاشى، وأنا أعبر مبتعداً، وقعت عينى على الفلقة، راقبت ما لحق بها من تطوير يناسب المدينة وبشاعتها وهى تأكل أبناءها بوحشية تفوق وحشية القرى، استبدلت أخشاب الفلقة بقضبان من حديد، والأحبال الليف بجدائل من سلك الرافعات، تعمل على تثبيت المحكوم ظهره مبسوطاً على الأرض وساقاه مرفوعتان إلى أعلى بما يسمح للأبيدى صاحب المصنع بتنويع الضرب على أخمص القدمين ثم الإليتين، كان لا يحل وثاق ضحيته إلا إذا ضرط الرجل من شدة الضرب وهو يحزق متملصاً، عندها يضحك الأبيدى، يدع باشكاتب المصنع يفك قدمى الرجل.

مرة سمعت عاملاً يقص على آخر كيف خدع الأبيدى، عندما شده الأسبوع الفائت إلى الفلقة، فبعد ضربات قليلة ضرط بفمه محكماً تقليد الضراط، أضحك ذلك الأبيدى فأطلق سراحه.

لكنه لم تمض سوى أيام قلائل حتى وشى به زميله، دار حوله الأبيدى كعادته قبل أن يوقع به، لعب به كما يلعب القط بالفأر، كان الفتى يعمل على التمبيرا (فرن التبريد التدريجى الذى تمر فيه الزجاجات موضوعة فى صوان من الصاج الثقيل، حيث تدخل من طرف وتخرج من الطرف الآخر)، أدرك الفتى من نظراته أنه يروم إيقاعه، فاضطربت أعصابه، سقطت منه صينية الزجاجات على الأرض، وتهشم ما بها، عندها لم يضع الأبيدى وقتاً أمسك به من قفاه، قال له:

- موعدنا غداً فى الصباح، ولو راجل صحيح لا تأتى.

تركه ومضى عنه، هرول الفتى خلفه متوسلاً، زجره بقبضة يده التى حاول أن يقبلها قال له (طيب رح لشغلك)، كان من عادته ألا يمد أحداً إلا فى الصباح، يأتى إلى المصنع دون إفطار حتى لا يثبط الطعام من غليله.

فى صباح اليوم التالى أمسك خفيرا المصنع بالفتى وشداه إلى الفلقة، كان صوت صراخه يصل إلىّ مثلما يعوى جرو صغير، كنت بالأمس فى غرفتى وحيداً كعادتى أفكر فيما عساى أن أفعل لو حدث ذلك أمامى، أخذتنى خيالات كثيرة، لكننى أفقت من أوهامى على عجزى، أنت وحيد هارب مطارد فاقد للانتماء، فنمت على فراش من حسك، أشواكه فى ذلك النهار كانت صرخات الفتى تشق الفضاء وتخز جسدى وأنا أرقب العمال يسعون كالسائمة إلى أعمالهم، أوصدوا عيونهم وعقولهم، لا يرون سوى آلات المصانع، وما صرخات صاحبهم إلا صرير آلة معطوبة يجرى إصلاحها قبل إعادتها إلى العمل. فتشت عن ذلك الثائر الذى كنته فلم أجد إلا شخصاً مجرداً ينظر إلى الأشياء بعين مجردة.

مرت شهور ثقال لم يغب عن النفس فيها إحساس المطارد، أن تعيش مطارداً، تنام بنصف عين، ما أقبح الأشباح التى تجوس فى مدائن أحلامك أو منامك أو يقظتك، تهب محتسباً لأية قعقعة، تحصى أصوات الليل صوتاً صوتاً، مواء القطط الشبقة، هذر الرجال مع نسوة ضحكاتهن غنجة، وأصوات رجال آخرين يعبرون الحارة بعد انقطاع سير السابلة فيها، يرفعون عقائرهم بغناء مخمور، صرت تحفظ أصواتهم وحكاياهم المكرورة، هذا راشد العجلاتى قضى الليل فى بوظة بشارع كامل صدقى، وعاد مخموراً مسطولاً، يتوسل لامرأته مرة ويضحك ساخراً مرة وهو يقول لها (أرمى المفتاح يا امرأة خللى الليلة تفوت على خير)، والمرأة تزجره (رح بات مطرح ما كنت)، يرد عليها ساخراً (ما عليك من المفتاح، طيب أرمى الخرم) يقهقه فى قلب الليل، فترميه بسباب فاضح، يبادلها السباب بأوسخ منه.

تأخذك غفلة، النوم سلطان، تهب مفزوعًا، تتابع سيمفونية الأصوات، تنحدر مراودات الفجر، الشيخ عبد الحق، صلباً مكابراً يمضى رغم ثقل أعوام عمره إلى الصلاة بدك أرض الحارة بعصا غليظة، يدق بالعصا على نافذة واطئة داعياً ساكنها إلى الصلاة يصيح بصوت أجش قبيح (يا فتاح يا عليم)، يجاوبه مدبولى الخضرى وهو ماض إلى سوق روض الفرج (يا رزاق يا كريم، كيفك يا شيخ عبد الحق) لا يرد الرجل عليه، بينهما ضغائن قديمة، لا تمحوها محاولات التمحك، امرأة تكابد إيقاظ زوج (يووه، قتيل)، ثغاء طفل وليد ما انقطع عن البكاء منذ أن قدمت الحارة، هرولة أمه برضاع من الكراوية أو الكمون (لا، يا عين أمك لا)، ثم يفجأك نور الصبح كأنه الفضيحة، يقتحم الغرفة عليك، والنوم يثقل جفنيك، تنهض مثقلاً ممروراً الروح والحلق بلا حيلة تمضى إلى المصنع الذى تكرهه كراهية الموت، مجذوباً كالحمار إلى الجزرة، الهوية وإلا افتضح أمرك، من أنت؟ عامل بمصنع الأبيدى.

* * *

تهل بوجهها الصابح المغسول، تقف فى حوش البيت، شعرها يعلق به البرد، تلبس بيجامة زوجها، ما إن رأتك حتى أولتك نصف التفافة سريعة، كأنها ما رأتك، لا تنقطع عن الغناء، تنحنى تلتقط قطعة من الملابس من الطست، تعتدل فيترجرج ردفيها، يرتج قلبك، تنزع مشجب من فمها، تواصل الغناء:

- (يسعد صباحك يالفندى   هات لى بسيسة ويوسفندى
إن جبتهم يادى الشاطـــر   أبيتك الليـــلة عنـــدى)

ثم تضحك فى غنج فتترقرق ضحكتها على صفحة أول النهار، منذ أيام وهى تعمد أن تقف هناك، تنحنحت، التفتُ أرقب الغرف المتراصة كالقبور لا أحد يقف من سكانها، لما اقتربتُ ألقيتُ تحية الصباح، فالتفتت إلىَّ، تهلل وجهها بحمرة، كأنها فوجئت بى، سلمت بصوت متكسر وان، وهى تبتسم ابتسامة خجلة كأنها ما كانت

تقصد والنبى، وقعت نظرتى على فرجة صدرها بجاكت البيجاما الذى يضيق به، حطت عينى على الخيط الداكن الذى يفصل ثديين كظيمين سمراوين فيهما عذوبة الخمر فى دمائى، مالت قليلاً فسدت الطريق علىَّ، التقت عيوننا، عيناها تومضان لى ومضة واعدة، كدت أعبرها، قالت:

ـ يووه، يا عيب الشوم.

توقفت متسائلاً، قالت:

ـ أبداً، أقصد على الغنا.

قلت أعذرها:

ـ لا عليكِ.

قالت متحدية، وفى صوتها دلال:

ـ صوتى وحش؟

لم يعد هناك من مزيد، دغدغت غرائزى الحبيسة، وفى لحظة لم أعد مطارداً، تعبت من نفسى، صرت فى لمعة البرق أنا المُطارد لا المطارَد، مسحت بأطراف أناملى جبهتها، فأربكتها، تساءلت وهى تمسح جبينها:

ـ فيه حاجة؟

قلت كاذباً وهى تعلم ذلك:

ـ لا، نقطة من ماء الغسيل.

كبستنى بجسدها، قلت متلفتاً:

ـ يرانا أحد.

قالت فى لا مبالاة:

ـ كلهم سكارى ومساطيل ناموا فى وجه الفجر.

مددت إصبعاً سرحت به على الخيط الأسمر الداكن، قلت:

ـ خطر عليك، يصيبك البرد.

قالت هامسة:

ـ البرد يصيب العجفاء لو تركت قميصها مفتوح، أما أنا لو أقفلته أعرق وأخذ برد.

تزوجت منذ شهور قليلة، زوجها قميء، به حدبة خفيفة، أسمعه أحياناً يثغو كالعنزة الشاردة، ينهض فى باكورة الصباح، يمضى إلى شمبليون، يعمل حذاء فى ورشة يمتلكها خواجة أرمينى، لا يكفان عن النقار هو وسعدية زوجه، سمعته يوماً يقول لها:

ـ الخواجة مبسوط منى جداً.

ردت عليه:

ـ نيلة عليك أنت والخواجة بدرى.

رد سبابها، فانطلقا فى الشجار.

قلت أشير إلى بطنها، فهمت، قالت تدارى حنقها:

ـ لا، الرجل حيله مهدود، (واصلت ساخرة):

ـ فالح ينام بدرى ويقوم بدرى، ليستفيد من حيث لا يدرى.

ضحكت، تساءلتُ:

ـ لكن كيف لفتوة مثلك أن ترضى بمثله؟

تنهدت، قالت:

ـ أبى منه لله، مقلب وشربته.

خفضت عينها، ملت عليها قطفت بشفتى من خدها وردة، خالطت سمرتها حمرة قانية، انحنت، التقطت الطست الفارغ بيد، وبالأخرى كفى، همست بحاجة،

(تعال) قلت (والبسيسة؟)، ضحكت وهى تجذبنى، قالت (عندى منها الكثير، كل حاجة).

نصف نهار قضيناه، قالت وهى ترد باب الغرفة علينا:

ـ كأنى أعرفك من زمان الزمن، وكم مرة سألت نفسى من أنت، وأين رأيتك من قبل؟

صمت، نظرت إليها، فهمت، رأيتها تخلع بنطالها وترمى بسترة البيجاما على وسع ساعدها، عابثة ضاحكة فى طرب ودلال، تعلقت السترة بحلة موضوعة على الأرض فى ركن الغرفة، قالت وهى تمسح بكفيها فخذيها وتصعد بهما إلى بطنها وثدييها وتأخذ شهيقاً عميقاً:

ـ ها، ما رأيك؟

اقتربت منها وضعت كفى خلف رأسها، التصقت بها، دسست عدتى فيها، ضربت بجبهتى القاسية جبينها الوضىء ضربة خفيفة، فداخت، قلت:

ـ سبحانك ما أعظم شانك.

قالت بصوت دائخ:

ـ يا ابن الـ....

هوت شفتاى على شفتيها، أنت شاكية لى، قلت لنفسى (كم هى صادقة وبسيطة، امرأة حقيقية مملوءة بالوعد والورد، جسدها قيثارتها، وصوتها الأبح لحنها الغانج).

تمددت عارية، اعتليتها، بطنى على بطنها، كأن غروباً ألما بنا، فأوى طائرى إلى عشها.

نظرت إليها، كانت مغمضة العينين ترتشف ما فى اللحظات من رحيق، تأملتها قلت لنفسى (أى وحش يسكنها، بل أى وحش هى؟ من لحظات كانت تكيل لى بقبضتها الضربات، كأنها لا ترغب ولا تريد، أمسكت بكفى القاسيتين كفيها لأمنعها

من ضربى، كفا عامل بمصنع زجاج يمسك بسيخ خطف العجينة الملتهبة عند الفرن الرئيسى، تنسرب الحرارة اللاهبة من العجينة للسيخ إلى كفيه فتميتهما، ما أبشعهما من كفين، تئن من قسوة كفى، وتنفلت منهما، تعود لتضربنى، ما بال المسكين الآخر معها).

الآن صارت أرنبة بيضاء وديعة وهى تدس فصوص البرتقال فى فمى واحداً بعد آخر تكاد تفطسنى، نظرت إلى الزغب الناعم الأصفر فوق شفتها العليا، ابتسمت، فابتسمت نهضت، أمسكت كفى كى أبقى، نظرت إلى ساعتى، هزت رأسها، قالت شاكرة:

- لا أعرف ما أقول لك.

قلت:

- ولا أنا أعرف ما أقول لكِ.

فتحت باب الغرفة مواربةً، راقبت الحوش كل شيء هادئ ساكن، أشارت بكفها إلىّ، على باب الغرفة قبلتنى، ضربتنى بكفها المقبوضة فى كتفى، ثم أغلقت الباب على نفسها.

* * *

آويت إلى غرفتى، رميت بملابسى، تمددت على سريرى عارياً إلا مما يستر عورتى، عارياً من الخوف والأوهام، نفضت عنى الأيبدى والمصنع، الهوية الزائفة، مخافة الوقوع فى يد البوليس، اغتسلت ثلاثاً حتى تطهرت منى، كأننى بعثت من جديد، قلت سأقابل حجاج الليلة، كان يؤلمنى ألا أراه، كأن فقدانه يؤكد فقدانى، ووجوده يؤكد وجودى، حاجة روحى لروحه النضرة الدافقة، حاجة زهرة صبار لقطرة من المطر، حجاج حلم حلمنا به أنا وعبد الوهاب وحبشى، كلما التقينا تساءلنا

متى نقابله، هو الزعيم وليس بزعيم، حامل سلة الأحلام، سنابل الحصاد الموعود، صاحب العزية، مالك الحديقة، مانح الوعد، ثائر الجبين، بعيد الغور، من نصبناه ملكاً علينا نحن الحالمين الكافرين الرافعين أيدينا بالابتهال إلى الثورة.

* * *

أخذني الوسن الذى انسل إلى أجفانى، فنمت كما لم أنم من شهور، نوماً عميقاً، زارتنى الأحلام، أدخلتنى سماء صافية، رأيت ملائكة تصعد وتهبط، تهزج بنشيد المارسييز، كان يجلس على العرش يهز رأسه لهم فى استحسان، يسير قائلاً كما يقول حبشي وهو يشير إليه (هذا هو ابنى الوحيد الذى به سررت)، كانت المواكب تمضى ونحن نمضى معها غير مصدقين، قال بصوت عال (اهبطوا الأرض)، هبطنا، قال مهدوا سبيلى، احرثوها، قلبوها بسواعدكم، وازرعوها، جاءت سعدية وقفت بجانبى ابتسمت، ضربتنى فى كتفى، تناولت فأساً، ضربنا الأرض سوياً بها، أصوات تزمجر حولنا، كنا لاهين، صارت الأرض جميلة، بزغت من صخورها زهرات صفراء وحمراء مجنونة الحمرة، ونحن نتحمم بالعبير، جاءت طيور بيضاء فأقأت وهى ترنو إلينا، ثم طارت بعيداً، رفعنا رؤوسنا، راقبنا الطير وهى تعلو وتغيب حتى تلاشت، ثم، تلبدت السماء بغيوم سود ثقال أزاحت الضوء حتى غامت الدنيا من حولنا، تلبستها ظلمة حالكة، يد انتزعت سعدية منى، كان صوتها يتناهى من بعيد إلىّ، ترجعت أصداؤه من حولى، تلفت مددت ساعدى محاولاً أن أمسك بالصوت، وكلما أيقنت بأننى أمسكت به، لمعت فى الظلمة وجوه تنضح برغبات شريرة، عيونها حمراء تتساقط منها دماء تغطى أنيابها المسعورة، تزوم فى وجهى، أفر إلى وجوه أخرى أشنع وأقبح، أدور فى محيط ضيق، اختنقت فيه وزهقت روحى وذهبت أنفاسى، حتى نهضت صارخاً، نفضت الحلم اللعين عنى.

جلست على سريرى استجمع ما ذهب من نفسى استعدت الحلم، حاولت أن أفك رموزه، لكننى لم أتمكن، قلت لنفسى (أحلام الظهيرة رؤى، أين يا ترى سبحت

روحى؟) مططت شفتى السفلى، سخرت من نفسى، قمت، تحممت، بعث الماء إلىَّ هدوء وطمأنينة، تناولت من خزانة ملابسى عفريتة نظيفة لبستها، وضعت على رأسى كاسكت كحلى، قلت، سأذهب إلى قهوة سطوحى.

* * *

عند ناصية الشارع العمومى بدال يلبس عوينات غليظة، سألته الهاتف، هز رأسه أدرت القرص، رنات قليلة، بعدها جاء صوت أنثوى، سألنى من أنا أجبت باسمى قالت (ثوانى)، تدفق صوت حجاج عبر المسافات هادراً بتحية حارة، قلت:

ـ أمن المتاح أن نتقابل؟

صمت مفكراً، قال:

ـ ولم لا، أنت والآخران؟

ـ قلت، جائز، ربما أقابلهما.

ـ طيب، فى التاسعة مساء، ستجد بالقرب من بوابة قصر الطاهرة من الناحية الشرقية السيارة فى انتظارك. سلام.

مضيت إلى قهوة سطوحى، انتظرت أرقب من زاوية تجمع أطراف الطرقات، رأيت حبشى قادماً، خلفه بأمتار عبد الوهاب، لماذا انقبض قلبى، لاحت لعين خيالى خصلات شعر سعدية مبتلة بقطرات عرقى. تزيحها أناملها عن وجهها، ابتسمت لى ثم غاب طيفها، طار بعيداً عندما حيياني، وهما بعد يتلفتان، قلت بصوت واطئ:

ـ إجلسا بهدوء وثقة، لا تتلفتا كاللصوص هكذا.

ابتسما وهما يجلسان، يتعجبان لثقتى وهدوئى، تعجبت أنا أيضاً بداخلى، مرات جئت ولم أقابل أحداً منهما، ما بالهما يأتيان هذه المرة، تدفق الحديث بطيئاً فى أوله، ثم أسرع الوقع، كل منا حكى حكاياته، قلت أستوقفهما، وأنا أميل عليهما:

- سنقابل حجاج فى التاسعة.

تهلل وجهاهما فرحًا، نفس المشاعر التى كانت تشدنى إليه، كانت تعتمل بداخلهما، شرحت لهما خطة المقابلة.

فى الثامنة غادرنا القهوة إلى محطة قطارات كوبرى الليمون، نزلنا فى سراى القبة اتجهنا إلى قصر الطاهرة، درنا حوله، فى التاسعة، جاءت السيارة السوداء، لم يكن بها نفس السائق، بل كان شخصًا آخر لم نعرفه من قبل، لكنه كان يعرفنا جيداً، دار بنا عدة لفات قبل أن يأخذ طريقه إلى فيللا بجاردن سيتى، أنزلنا قائلاً بسرعة:

- هنا، إدخلوا بسرعة.

فى خطوات مهرولة، أصبحنا داخل الفيللا، فى بهوها الفسيح كان حجاج يقف، يبتسم، مد لنا يده مصافحاً بحرارة، ومع ذلك لم يغب عنا أن دفء الأيام التى مضت شيء مات وانتهى، ما يفعله هو الواجب، خبا وهج مشاعرنا ونحن ننتقل إلى غرفة بها مكتب من الأبنوس، جلس إليه حجاج بصيغة عملية، كأنما جئنا نناقش صفقة تجارية، قال بعد صمت:

- ناضلت أمام المكتب لأرد إليكم هويتكم الحزبية، لكن التصويت لم يكن فى صالحى بعد هروبكم بأسبوع استدعيت إلى القلم المخصوص، سألنى ضابط عنكم، تصنعت عدم معرفتى بالموضوع أصلاً.

كنا نعرف أن اتصالنا يهدد التنظيم.

عاد إلى الحديث، لكننى كنت غارقاً فى أحداث ذلك النهار، تنبهت على كلماته، قال:

- حوكمتم غيابيًا، الرفت طبعًا من الخدمة، وخمسة عشر عامًا من أجل قتل سرجنت ريو، وخمسة أخرى بتهمة الهروب من السجن وسرقة سلاح من الميرى إنهم يجدون فى أثركم، منذ أيام استدعوا بعض أفراد منا، استجوبوهم برذالة شديدة قبل أن يتركوهم.

صمتنا أكثر، سألنا عن أخبارنا، أوجزنا له أمورنا، دفع إلىّ ببعض نشرات الرينيو ابتسمت له ابتسامة ذات مغزى، هز رأسه، قال:

- من يدرى ماذا تخبئ الأيام؟

كان الليل يوشك على الانتصاف عندما نهضنا مد كفه، شد على أكفنا بحرارة، بادلناه مثلها مضينا صامتين نضرب بخطوات لا مبالية، كنت غارقًا فى أفكارى، أحداث ذلك النهار رتبها القدر، المرأة، سعدية، المصنع، لقاء الأصدقاء على المقهى، توقفت عند الحكم، دسست نشرات الرينيو فى صدرى كما كنت أفعل صغيراً بكراسات المدرسة لأبعث بالدفء إلى صدرى، تحسست مدية صغيرة كنت أدسها فى جيبى الخلفى، سيطرت على كلمات حجاج وهو يخبرنا بالحكم، كل واحد منا رأى نفسه مأخوذاً بمقابض من حديد حول رسغيه ليرمى فى زنزانة مصفحة لا يمكن أن ننقب جدرانها، أو ننشر قضبانها.

ضربنا على غير هدى، عند ناصية جواد حسنى ارتد باب الحانة بعنف ليلفظ جنديين من جنود الاحتلال مخمورين يغنيان (أين أنت يا ليزا)، اصطدمت بأحدهما، قال وهو يرفع رأسه إلىّ (أوه، سورى)، كان لى كلفت أمامنا، جحظت عيناه من الدهشة، تجمدت مكانى، مد يده أزاح الكاسكت عن رأسى، قبل أن يصيح عاجلته بطعنة غاص نصلها، جأر وهو يخر أسرعت بالثانية، التفت رفيقه، مد كفه ليسحب طبنجته، كان عبد الوهاب قد شل ساعده، بينما التقط حبشى زجاجة روم ملقاة على الأرض، كسرها وغاص بأطراف عنقها فى عنقه، صرخ صرخة مزقت سكون الشوارع، على أثرها خرج كل من بالحانة، كلاب مسعورة تعدو خلفنا سيقانها مخمورة بلا رباط، عزمها المجنون أنساها التعب، تشتت شملنا، وقعت فى قبضة مخبر كان رابضاً عند ناصية بأول العتبة عند صيدناوى، أوسعنى ضرباً وركلاً، وأسلمنى لقسم الموسكى.

انتهت اللعبة إذن، من ذا غالب القدر وغلبه ؟ ها أنا أوقع اعترافى، بينما ما يزال حبشى وعبد الوهاب هاربين، حاولت أن أنفى عنهما قتل الكوربورال لى كلفت، ذلك حقهما، هما لم يقتلاه، لكن إبراهيم هوارى غاص بطرف حذائه فى ضلوعى، قال:

- خليك فى حالك، سيعترفان مثلما اعترفت.

رأيته يرف فى محيط ظلمة الزنزانة طيفًا مخاتلاً، مرة يشبه حجاج، وأخرى جاء أبى، وضع يده فوق رأسى، ابتسم لى، ثم غاب، جاءت امرأة لا أدرى أسعدية أم أنها أمى، هزجت لى بأغنية من أغانى الطفولة (حق يا مدق يا سمك مقلى....) هدهدتنى، ماذا كانت تقول كلمات الأغنية، أهو شىء عن الغجر الذين يختطفون الولدان، أم عن حمامات تطير تلتقط الحبوب حبة حبة، والحبة عند التاجر، والتاجر رجل فاجر رايد مادة، والمادة عند الصيرفى، والصيرفى سكران سكران، قلبه يهف يرف يقول اتزوج بنت السلطان، والسلطان...

قلبى يرف بين ضلوعى رفات سريعة متتالية كأنه طائر ذبيح، وقع على الأرض، رماه صبى أغر بحصاة ملونة أصابت رأسه، الدم يتدفق من رأسى وفمى غزيراً، روحى تنسحب الآن، وأنا انسحب، خشبة المسرح خاوية خالية، لا غير ستائر بيضاء وملائكة بيضاء ترنو إلى جسد تلوثه الدماء، جسد حامد، وجثة هامدة فاقدة للروح.

* * *

(٣)

بـداية أخـرى

في الصباح، وُجد ميتًا، رآه إبراهيم هوارى مائلاً بجنبه على الأرض، يجمع ركبتيه إلى صدره، ناداه فلم يرد عليه، اقترب منه، أمعن النظر فيه، رأى فمه مفغوراً وعينيه جاحظتين يطل منهما رعب قصى، خطا نحوه أكثر فغاصت قدماه فى مستنقع من الدم الذى تقيأه قبل أن يلفظ أنفاسه، راود الأمل الحرسى، مد يده لمس كفيه ليهزه، انسربت برودة إلى أصابعه، برودة لاسعة تشى بالموت، تراجع إلى الخلف وفى مكر ريفى ساذج أغلق الباب، حتى لا يكون أول من شاهد الجثة ملقاة هكذا، ابتعد مهرولاً، أمسك به إحساس غريزى بالخطر، ارتعد جسده رعدات سريعة متتالية، تماسك وهو يطرد طيف الميت عن رأسه، تعثر مشاعره لم يجعله يسمع الصرخات ولا طرقات قبضة يد على باب أحد الغرف المتراصة التى يحتجز بها المقبوض عليهم، كان الصوت يعلو ليمزق سكون الممر (أموت يا عالم، المغص ينهش فى معدتى، إفتح الباب يا إبراهيم يا هوارى فى عرض النبى)، جاء الجاويش المناوب، وقف فى آخر الممر، سأله:

- فسحت المحجوزين كلهم يا إبراهيم؟

- شغال يا أفندم.

- من يصوت؟

- نمرة ١٧ .

- ماله؟

مضى بجانبه، عبر زنزانة بدر واصل طرقها منبهاً سائلاً:

- أخرجته؟

- ليس بعد يا أفندم.

- كيف يا أمير المغفلين؟ يجب أن يتروق قبل ما يستدعى للنيابة.

صمت إبراهيم هوارى، فارتاب الجاويش من صمته، سأله:

- مالك؟

لم يرد، صمت أكثر، تأمل الجـاويش وجهـه، رأى وجهه متوسلاً، فصمت، فتح باب الزنزانة، قال:

- نشوف مصيبة مصيبة.

فتح الباب، رأى المحتجز يتمرغ على الأرض من نهش المغص ببطنه، سأله:

- مالك تعيط، ماما زمانها فى السكة يا حبيبى.

تلوى الرجل متوسلاً:

- أرجوك، حنش يقطع فى بطنى.

كان إبراهيم هوارى واقفاً غائباً، لكزه الجاويش فى كتفه، قال له:

- اجر بلغ بضرورة سرعة الاتصال بالدكتور عبد الشافى، وتعال بسرعة.

قبل أن يغلق الباب على المحتجز، قال له:

- تماسك يا أخ.

عـاد إبراهيم مـهرولاً، كـان الجـاويش يقف ويفرك كـفيـه، عند بـاب زنزانة بدر واصل أمره:

- إفتح الباب يا عسكرى.

تردد إبراهيم هوارى، مد الجاويش يده وأخذ المفاتيح منه خطفاً، أدار المفتاح فى القفل، أزاح الباب، صدمته رائحة موت طازج، فغم أنفه بخار دم متخثر، كان يعرفه بخبرته الطويلة، أغمض عينيه وسد أنفه بكفه، قال وهو يتراجع:

- إنه ميت...؟

لم يكمل، كـان إبراهيم هوارى يفـتح فـمـه فى بلاهة، وهو ينظر إليـه بعـينين زائغتـين.

* * *

لم يكن قد علم شيئًا مما حدث، لكنه عندما دخل إلى المبنى أدرك من العيون التى استقبلته، ومن التحيات المرتبكة الباردة أن شيئاً حدث.

دخل إلى مكتبه، أخذ الملف واتجه إلى مكتب وكيل الوزارة حاملاً اعتراف بدر واصل، دق باب المكتب بلطف، حيّاه وجلس، كان يقرأ الوجوه بحدس صادق، ثمة شىء كبير خبأته عبارة الرجل:

- إجلس يا نور يا بنى.

تراجع الآن أى أثر من الانشراح الذى بات عليه لنجاحه فى أداء أول مهمة أوكلت إليه ، ظل الرجل صامتاً، قال نور يكسر طوق الصمت:

- الملف جـاهز يا أفندم، وفى انتظار أوامـرك بإرساله إلى النيـابة لاستكمـال التحقيق وتكييف الاتهام.

كان صوته يرن فى الغرفة، كأن لا أحد غيره هناك، انتظر ما سيقوله الرجل الغائص فى محيط من الصمت والتفكير العميق، رفع الرجل إليه وجهه، قال بلهجة يشوبها هدوء من نوع خاص جداً، وموحى، بل هو قاطع الدلالة:

- أصبح هذا بلا قيمة الآن، انقضت الدعوى بالنسبة إليه، الظاهر أننا سنفتح ملفاً آخر.

صفعته الكلمات صفعاً، قال يستمسك بخيوط أمل واه:

- هرب بدر واصل؟

رد الرجل بلهجة واضحة لينهى الأمر:

- بدر واصل مات.

أخذته الصدمة، هذى:

- مات؟ غير ممكن.

- اهدأ وقص عليّ ما حدثِ، لعلنا نجد مخرجاً.

كان الرجل الكبير قد اتصل بالأمس بالسفير المفوض مساء، أخبره أن المساءلة انتهت قال له : الولد اعترف، وغداً سنرسل الملف إلى النيابة، هكذا علم من أحمد صالح.

* * *

الراقصة على باب غرفتهما، لملمت عريها، قالت (يووه) ومالت عليه بثديين كبيرين يشبهان ضرعى بقرة، رمت إليه قبلة فى الهواء، قالت له (اهنأ يا عريس) صعدت الدماء إلى وجنتيه وأذنيه، فجلجلت بالضحك وهى تقول (العروسة ما شاء الله عليها وأنت خجلان)، قالت مشيرة لها (خلاص، مع السلامة).

قبل أن تغلق باب الغرفة بقدمها الصغيرة، قالت له (شيلنى، يا نور)، رفعها بساعديه القويين، انطلقت عاصفة من الزغاريد خلفهما.

* * *

ليل ثقيل يحيط بجدران قلبه يبعث ببرودته لتنفذ إلى روحه، العروس نامت، بعد أن قبلته بشفتين مخمورتين قبلة لا تحمل سوى دفء الخمر وحدها، لم يفضا معاً شيئاً سوى زجاجة الشمبانيا، جرعت نصفها كأساً بعد كأس فى لهفة المحروم، أما هو

فشرب كأسين فقط، جلس متدثراً برويه، تناهت إليه موسيقى (موت الملاك) لروسينى قادمة من الجرامفون الموضوع فى الطرقة، كانت قد أدارت الاسطوانة وهى عائدة من التواليت، قالت له هامسة وهى تطبع قبلة (تصبح على خير يا ملاكى).

كأنه كان ينتظر أن تنام ليخلو لنفسه، اندفعت إلى رأسه أفكار مسعورة، فرك سيجارته فى غضب، كان طيف إبراهيم هوارى يملأ عليه فضاء الغرفة متوسلاً ذليلاً أثناء التحقيق وهو يدرك أن الطوق يضيق حول رقبته، وأنهم ألصقوا التهمة به، ليأكل الكعكة المسمومة وحده، جهر بالحقيقة، لكن صوته ضاع فى فراغ هائل، لا أحد استمع أو اهتم، مورست عليه أنواع من الألاعيب ترهيباً وترغيباً، وقع اعترافه كما وقعه من قبله بدر واصل وبأساليب لا تختلف كثيراً، حوكم، قضى عليه بخمسة أعوام يقضيها مع الشغل.

أما هو، فقبل أن يدفع الثمن كاملاً، تقدم إلى خطبة مشيرة، خطبتهما استمرت شهوراً قلائل، أيقن خلالها أنها سلعوة من ظهر سلعوة، روحها نسجت من خيوط النزوات، تجلس فى بهو فيلاتها ممددة على شيزلونج تنسكب الشمس على جسدها المتراقص تحت دقات موسيقى الفوكس تروت، والخدم يسعون كالمنومين، أحدهم يخبرها بمجيئه، تأمره (دعه، يجيء)، يقول الخادم فى لهجة تحاول تنبيهها (يا ست هانم)، تشخط فيه (إمش، خليه يدخل)، لا تنهض لمجيئه، إنما تبتسم له، تهمس وهى تغمض عينيها لتتابع النغمات (إقعد).

يجلس أمام امرأة مسكونة بالصخب، تعشق الخمر والرقص والسهر، تتحدث الفرنسية بطلاقة ولباقة، لا يضارعهما فى ذلك إلا مهارتها فى استخدام العربية بصياغات المجاملة وأصول اللياقة.

شفتاها تمتصان دخان السجائر فى عشق، وتقابلان كأس الخمر فى خشوع وحب كأنها تؤمن بها فى هداية روح الإنسان.

يوماً دعاهما أبواه، كانت هى أيضاً مولعة بالخيل، تخيرا جوادين من خيرة ما فى الاسطبل، امتطاهما، كان هو مرتبكاً فى ركوبه كأنه لم يتدرب فى اسطبل أبداً، أما هى فما إن استوى ظهرها على ظهر الجواد حتى توحدت به، الحصان الحصيف عرف أن من يمتطيه فارس خبير بأمره، لها حساسية فائقة فى لمزات قدميها ومسكة مقوده ولجامه، صيحاتها مع حركته ذكرت نور بالسياس وهم يدربون الخيل على الجرى، أو وهى تغير أسراع الجواد فى دربة، وفجأة حلت فورمة شعرها فانسدل الشعر سائبًا على كتفيها، نظرت إليه فى براءة طفل، ثم تركته خلفها ينخس جنب جواده بمهمازيه، والجواد يتأبى عليه، انطلقت كأن الريح تعشقها، دارت فى المضمار كله وعادت إليه منتشية نشوانة وهو بعد يعالج أن يفهم لغة حصانه، جرت بحصانها خبباً نحو القصر فتبعها، حتى وصلا ترجلت، ألقت بالمقود إلى أحد السياس حاول أن يساعدها فى النزول، رمته بنظرة محتقرة، أخذ المقود وابتعد.

كانت تكبره بأعوام، يحيره تقلبها بين الأمزجة، رأت البيانو موضوعاً عند نافذة ينسكب ضوء الشمس من زجاجها الملون، جلست إليه، تبعها، راقبها، أصابعها شياطين صغيرة تطير تتقافز فوق مفاتيحه، فى براءة طفولية ابتعثت ليست موتسارت، غاصت بروحها إلى أعماق اللحن، جاء حمواها، جلسا صامتين مأخوذين ببراعتها، صفقا عندما انتهت من اللحن، لا يعرف كيف قطعت المسافة إلى قلبيهما فى لحظة واحدة اجتمعت كلمتهما على حبها.

روحها تسكن أعماق بعيدة سحيقة، لكنها تعود منها لتطفو، تصبح سطحية تافهة مختالة ومختالة أمامه، ساخرة منه، من هذا النور جودت بجانبها؟ ما هو سوى فلاح لم يغادر اسطبل أبيه إلا ليتلقى تعليمه.

يوماً تلمس بعبارات ملفوفة أن يعرف شيئاً عن ماضيها، قالت بصراحة أفجعته:

– مالك تلف وتدور حول ماضى، لتعلم أننى عشت حياتى بحرية كاملة لذا تعلمت الكثير من أخطائى، ولتعلم أيضًا أن الدواب فقط هى التى تحيى الماضى كل يوم تجتره مع عليقها، أما أنا فلا أنظر إلى الخلف.

قال بارتباك:

ـ أقصد...

قاطعته:

ـ أنا لم أسألك عن ماضيك، وأنت لا تسل.

صمت، أى ماض له، إنه كمن خلق فجأة، خرج من خلف أسوار قصر أبيه كمن خرج من الجنة تواً لجحيم تجارب لم يكن يتخيل أن يقابلها، صار فى شهور قليلة محملاً بذنب رجلين أحدهما مات وما يزال يبعث له طيفه ليزور أحلامه فى الليل، وفى النهار يجيئه ابن عم الآخر سويلم يفرك كفيه قائلاً وهو يضع فنجان القهوة أمامه (سعادتك، يا ليت تفتكر أولاد إبراهيم بحاجة)، يدس كفه فى جيبه وينقده، مع الوقت لم يعد فى حاجة لذلك النوع من تبكيت الضمير الذى يمارسه سويلم عليه، حين يطيل وقوفه برهة تزيد عن اللازم، يدفع بكفه إليه بعض أوراق البنكنوت.

* * *

شهور زواجهما الأولى زادتها معرفة به، بينما ظل هو يتخبط ويهرول خلفها، استسلم فيها لفكرة طغت عليه، كأنه بيع بيعاً نهائياً لا رجعة فيه، لم يملك حتى حق نقض العقد الذى أبرمه بأهلية كاملة نافية لأية جهالة، وهى أيضًا أدركت ليس بحدسها القاطع وحده بل بخبرتها، أن ما جيء به إليها إن هو إلا شخص مجرد، لا يحمل سوى أوهام البدايات، هو ليس أخرق، لكنه تربى على يدى تلك السيدة التركية التى تنتمى إلى مثاليات القرن الفائت، إذا كان الأمر كذلك فعليها أن تعيد ترتيب مثالياته، لتلقى بها إلى غور بعيد فلا تلمسها أصابعه، لتنضو عنه فروة الحملان هذه فتبرز الذئب فيه، كأنها تستكمل ما بدأه أحمد صالح معه، ليس الماء كالخمر فى شيء الماء الطيب بلا طعم ولا لون ولا رائحة، بينما الخمر كأسها على مائدة البوكر يدخل بك إلى لحظات الجموح والطموح، الماء كالبلاهة والخمر كالمكر، لتتعلم الآن حكمة الماء والخمر، الماء سلعة حرة لا يتقاتل من أجلها الرجال، بينما الخمر كالذهب فى إغرائها وتدللها،

الماء كالرجال يجرى سائباً، بينما الخمر مصونة محفوظة فى القنانى إذا ما فضضتها فتحت لك أبواب مدائنها السبع، الغضب الشهوة الطموح الجموح المضاربة المقامرة الجشع.

قالت له يوماً:

- لا تتأخر في عودتك اليوم، سيجيء ضيوف عندنا، معهم ذلك المقامر الأخرق الذى حادثتك عنه، تعال، إجلس معنا، ربما أصبت عدة أفدنة، أو قصراً من القصور التى ورثها، فهو يوقع صكوك البيع على المائدة كأنه يوقع برقيات شكر وتأييد.

فى الليل تقتسمه اللحظات نصفين، نصف ينتمى إلى تلك السيدة التركية الصارمة الفاضلة، والآخر لمشيرة حافظ، تعلم الآن كثيراً، ما جمعه فى شهور يتجاوز سنوات عمره، تعلم فى صبر وإصرار، وأصر أن يخرج من شرك تلك المرأة، هى التى حدت به إلى ذلك، كأنها قالت له شركى هو حبى، عليك أن تكسر كل يوم حلقة من حلقات تلك السلسلة التى أشددك بها إلىّ، أنا الهادية المهدية، عليك أن تجاهد لتبلغ ما بلغت من درجات، ليكن جهدك شاقاً، لتجمع ذاتك على ذاتك وتكتب آياتك، إن كنت قد جئت امرأة دفعت براءتها ثمناً لتجاربها، فلتدفع أنت أيضاً من براءتك التى لا تثير إلا قرفى نفس الثمن لتبرأ من براءتك، أبى الذى اعتذر من زمن عن دور الأب وهو يلهث خلف السلطة والجاه والمال، ولم يترك للقلب إلا التماس الخيبة فى من عرفت من الرجال غيره، عندما كنت صغيرة، كنت أفتح أدراج مكتبه وأبعثر محتوياتها، أدوسها بقدمى هاتين، حتى يجيء وينظر ما فعلت فيضربنى، ويعلم أن ابنة صغيرة تنتظر مقدمه كل مساء، تحبه كما لم تحب بنتاً أباها، لكنه ما كان ليفعل ذلك، كان يعلم جيداً نوع العقاب الذى سينزله بى، يوقظنى فى هدوء، أنهض أفرك عينى وانتظر، يأخذنى إلى غرفة المكتب، يجلسنى، ثم..، ثم ينادى على أحد الخدم، يأمره أن يجمع الأوراق والأشياء المبعثرة، وأن يضعها على المكتب، عند ذلك تنتهى

مهمته، يأمره بالانصراف، يقول لي في اطمئنان (يمكنك أن تذهبي إلى فراشك، وددت فقط أن أراك..)، أمضي وأنا أتميز غيظًا، لكن أبي دومًا على حق، رجل ولا كل الرجال، درسه الأول لي أن عواطف البشر تثير القرف، بما فيها من تفاهة وتملق، ودموعهم أتفه وأحقر من أن تنال اهتمامه، الآن تعال، لا تنظر إليّ هكذا، سأعلمك رقصة جديدة، جاءت بها مدام ريتا واصف من أسبوع واحد فقط عندما عادت من فرنسا، أنا أول من تعلمها، يلله، قم..، خطوة واحدة للأمام بقدمك اليمنى، إجعل الساق مشدودة، خطوة للخلف، صف قدميك معًا، الآن مل بخاصرتك، لف، هيا كرر الحركة بسرعة أكثر، راقبني، ...، آه نجحت وحدك، هائل يا نور.

* * *

(٤)

خيول جامحة

ثم...، ثم اندلعت الحرب الثانية فى نهايات ١٩٣٩ ، تداعت أحداثها، ففى ذات اليوم الذى اجتاحت فيه جيوش ألمانيا النازية بولندا ـ ١ سبتمبر ـ اجتمع الملك فاروق الأول والأخير مع سير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى القاهرة، ناقشا معاً موقف إيطاليا فيما لو أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا، انتهت المقابلة التى أعرب فيها الملك عن كامل استعداده للتعاون مع حكومة ملك الإنجليز، ومصداقاً لذلك، بادر على ماهر رئيس الوزراء آنذاك – بإعلان الأحكام العرفية فى مصر، تم تعيينه حاكماً عسكرياً فقام باتخاذ كافة الإجراءات التى نصت عليها معاهدة ١٩٣٦ فيما يختص بالرقابة العامة على البريد والمراسلات السلكية واللاسلكية، وأعلنت حالة الطوارئ، كما قام بإنشاء مصلحة رقابة على النشر، كانت رقابة ثنائية الطابع تشترك فيها كل من مصر وإنجلترا، وقسمت البلاد إلى أربع مناطق عسكرية، ووضعت الموانى والمطارات المصرية تحت تصرف إنجلترا كما تم قطع علاقات مصر مع ألمانيا حال إعلان الحرب عليها من قبل إنجلترا فى ٣ سبتمبر. عندها استدعى حافظ باشا صهره من غرفة نومه على عجل ليشارك فى هزيمة النازى، فما إن دخل مكتبه حتى شافهه بأن أوامر صادرة له من وزير الداخلية بتنسيق مع مراكز القيادات العسكرية البريطانية، بوجوب إلقاء القبض على الرعايا الألمان، ووضع ممتلكاتهم تحت الحراسة.

كان يعمل ليل نهار فى غرفة العمليات لمراجعة قوائم الحصر، ومتابعة تنفيذ الأوامر بصرامة، ذلك الإخلاص والسرعة اللذان تم بهما الانتهاء من العملية فى أيام معدودة هى ذاتها التى أدت إلى احتجاز البعثة الدبلوماسية المصرية فى برلين، تلقى ورئيسه توبيخاً على تسرعهما فى تنفيذ الأوامر بدون تنسيق، لكن الفوضى التى تأتى بها الحروب جعلت من الممكن ابتلاع التوبيخ بكوب من الماء البارد مع قليل من التأمل لنصائح أبيه بأن التجربة خير معلم، تضرب ثم تشرح الدرس، أمكنه اجتياز

الأمر مع ترقية وخطاب شكر ممهور بتوقيع السفير الإنجليزى نفسه تمهيداً للتنسيق مع السفارة الإنجليزية لمتابعة الدعاية الإيطالية المتزايدة حول حياد القصر، ومكافحة الطابور الخامس الألمانى، وعند الطرف الآخر كان حموه ينسق مع الملك لتسهيل مهمة اتصال بعض أفراد الجيش المصرى بالقوات الإيطالية التى اقتحمت الحدود المصرية فى ١٢ يونية ١٩٤٠، كان ينظر كالمذهول والمهام تلقى على عاتقه بلا تمهل، هناك أمر باعتقال الرعايا الإيطاليين وترحيلهم، العملية اسمها (التمباك)، تشتمل على احتجاز الوزير الإيطالى المفوض وأعضاء مفوضيته وعدم مغادرتهم مصر قبل أن تعاد البعثة المصرية فى روما، تلك المرة عمل على تنفيذ ما أوكل إليه بحنكة وروية حتى لا يتكرر ما حدث للبعثة المصرية فى برلين، مع ما فى ذلك من مشقة وعناء بالغين، فالجالية الإيطالية فى مصر حينها، لم تكن عدة أنفار بل هى ستون ألفًا من الأنفس التى تغلغلت فى نواحى الحياة بدءاً من القصر الملكى ذاته، انتهاء بورش الأحذية، مروراً بالمراقص والملاهى، ومنها من خضرم فى مصر وأنجب جيلاً من المتمصرين الذين أثروا الاحتفاظ بجنسيتهم الإيطالية لينعموا بالمزايا التى أقرت لهم عقب فشل الثورة العرابية، من حماية ومحاكم مختلطة - تلك التى ألغيت بموجب معاهدة ١٩٣٦.

إن للتاريخ دهاءه الخاص، ألم يكن الأمير أحمد فؤاد إيطالى المولد، ربى وتخرج فى المنفى، حتى أصبح ياوراً لملك إيطاليا، فلما ابتسم له الزمن بسمة أفضت به إلى ملك مصر، أفاض على الجالية الإيطالية بنعمه، كما أفاضت هى عليه بنعمها، أمدته بباعة اللحم الأبيض، وبالمؤرخين المتهافتين من أمثال ساماركو ليكتب له سيرة ملفقة جعلت منه أول ملك لمصر مستقلة، ذلك بعد أن انفض عنه (إميل لودفيج) الذى دعاه الملك وغمره بالحفاوة والعطاء وروى له كل أسراره وأمجاده، فأقام فى مصر حتى قرر أن الشخص الوحيد الذى يستحق كتابة سيرة ذاتية فى تلك البلاد، إنما هو النيل العجوز ولا غير، فر الرجل بما جمع من مادة، ليخرج للبشرية تلك السيرة العظيمة فى كتابه (النيل حياة نهر) تاركاً الملك أحمد فؤاد يلعق قفاه، عندها سارع منافقو الإيطاليين بالقصر وانتدبوا له ساماركو ذلك المؤرخ المحترف.

بعدها تفشى خطر الحاشية الإيطالية فى القصر، بحيث أصبحت طابوراً خامساً يلقي بظلاله على الجالية كلها، وقد كانت أغلبيتها فاشية المنزع والهوى، يقودها السفير الإيطالى الكونت مانزولينى وهى تحتفل بالأعياد الفاشية فى احتفالات صاخبة وباستعرضات (القمصان السوداء) التى تنعر فى فضاء القاهرة بالأناشيد الحماسية.

وما إن سحب عزرائيل روح أحمد فؤاد، وتولى غلامه فاروق حكم مصر تحت الوصاية حتى بدأت الاتصالات الإيطالية الرسمية به عبر قنوات مختلفة تبدأ بقواده بوللى وتنتهى بالكونت لتصل إلى تشيانو وزير خارجية إيطاليا وصهر موسولينى، ثم نشبت الحرب ودارت دورتين، اجتاحت فيهما جيوش الفوهرر أوربا الشرقية، ثم استدارت إلى فرنسا التى كانت ما تزال تلوك علكة الحرب الأولى فى فمها مستعذبة حلاوة النصر، فلم تدر إلا والفوهرر يمتطيها، بينما تحسس الأسد الإنجليزى ما تبقى بين لثتيه من أنياب، وزأر مدافعاً عن دبره باستماتة، وفى الدورة الثالثة لم تسقط لندن، وقرر الفوهرر زيارة شرقنا الأدنى ناصحاً شريكه الأريب موسولينى (أن آلهة الحرب لا تبتسم إلا مرة واحدة أيها الدوتشى)، عند ذلك جمع الدوتشى سبعة ملايين من الحراب التى نسيها التاريخ على أبواب روما، ودون أن يجلو عنها الصدأ وقرر أن يدخل الحرب، فى ١٠ يونية ١٩٤٠ دقت طبول الجيش الإيطالى عند بوابة مصر فى أقصى الشمال الغربى، وبينما كان الماريشال جرازيانى قائد القوات الإيطالية يستمتع بعزف طبول الحرب، كانت القوات البريطانية البرية والجوية تعبر إليه بعد دقيقة واحدة من إعلان دوتشيه الحرب فاحتلت سيدى عمر أثناء ليلة ١١/١٠، وبعدها بيومين احتل الآلاى ١١ حصن مادالينا بينما احتل الآلاى ٧ حصن كابوتزو، وفى ذات الوقت عقر الأسطول البريطانى ذيل الأسطول الإيطالى عند مضيق صقلية فأصاب منه بارجة وطرادين، ففر واضعاً ما تبقى من ذنبه بين فخذيه يتعقبه الإنجليز، بعدها استطابت قوارب الإيطاليين النوم حتى أُيقظت عشية نهاية الحرب، فتثاءبت وتمطت ثم واصلت الشخير.

بعد ثلاثة أشهر، عندما أتم الشهم جرازيانى حشد الجيش العاشر على الحدود المصرية من فرقتين من القمصان السوداء ومجموعة مدرعة، كان الإنجليز قد أدركوا أمرين، أولهما بؤس الحراب الإيطالية التى بالغوا فى تقدير قوتها، الأمر الثانى هو أن خطوط الإمداد والتموين من الطول والسماجة بحيث يمكنهم تركها عن طيب خاطر للجيش الإيطالى، فإذا أراد فليأت إلى مطروح، هكذا أصدر الجنرال ويفل قائد قوة الصحراء الغربية تعليماته بالاستعداد لمواجهة الهجوم الإيطالى عند مرسى مطروح بمجرد تورطها أمام دفاعاته.

* * *

ذلك الصباح، جلس يتناول إفطاره وحيداً ساهماً، يلوك الطعام فى فمه على مهل كانت مشيرة نائمة حين دقت الساعة السابعة فى بهو فيللا معمل السكر، كم مرة طلبت منه أن يبعد هذه الساعة الكبيرة البغيضة المعلقة على الحائط، رناتها القوية تذكرها بوقع الزمن، ذلك يصيبها بالسأم من الحياة نفسها، انتظام الأشياء ليس من طبيعتها كلما حاولت ترتيب اليوم وقعت نهباً للاكتئاب، الأيام أقنعته بأن يكف عن محاولاته المتكررة فى بعث الدفء فى أوصال الزمن المائت من حولهما. بالأمس أخبرته أنها حامل، فتهلل وجهه بالسعادة، قابلت سعادته بضجر وتأفف قالت متعجبة مستنكرة: أسأكون أمًا، مهزلة، حطت عينه على صورة زفافهما، تأمل وجهيهما، الوجه صفحة الروح، راقب قسمات وجهه المنتظمة كأنها رتبت عمداً، جبهته عريضة، شاربه منمق، كتفاه عريضان مستقيمان، كل شيء ينم عن النظام.

أما هى، عيناها فرحتان طبعاً، ومغسولتان بنشوة ممسوسة بضياء خفى، لكنهما تخفيان رغبة عارمة فى مغادرة الإطار، روحها تود لو تضرب فى مسافات بلا حدود ولا حواجز، قسمات وجهها تستمد جمالها من اضطراب المساحة بين أبعادها، كأنها صنعت فى خبط فنان أهوج لا يؤمن بالطبيعة ولا بالنسق.

فى لحظات اللقيا التى طافت بخياله تشتعل عاطفته، ليس لأنها أول امرأة عرف، بل لمقدرتها أن تبحر به إلى مناطق لم تحتويها حدائق خياله، لكن عند الانتهاء، يخفت الوهج شيئًا فشيئًا لا يبقى منه فى النفس سوى بقايا بعيدة مدغمة، لا تقطع بإجابة عن سؤاله الحائر فى دروب نفسه، أتحبها؟ أتحبنى؟

فى أوقات اليوم العادية، التى هى حياة البشر الحقيقية، لا يجدان ما يقوله أحدهما للآخر، سوى عبارات الموظفين، الآن كف كل منهما عن محاولة جذب الآخر إلى مناطق روحه، أدرك أنها لا تصرِّح بمشاعرها الحميمة نحو من تحب أبداً، لكنها تملك فى لحظات الغضب لغة تسخف من تكرههم، الآن كفت عن محاولة إدخاله فى زمرة ليلها، فلا هو ولا وقته يسمحان بالامتزاج بذلك العالم.

عاد يلتقط قطعة سكر، رمى بها إلى فنجان الشاى وقلبها بالملعقة، جلس يحتسيه، ثم نهض ليعد أوراق حقيبته، وهو يهم بالانصراف إلى عمله، رن جرس الهاتف، ترك الحقيبة على المنضدة، التقط السماعة، جاءه صوت أمه غاضباً لائماً، امتص غضبها بلهجته الهادئة المتأسفة، لما هدأت قالت له:

ـ اليوم عيد ميلاد أبيك الخمسين، إياك والاعتذار، سوف لا أقبل هذا أبداً، وخاصة أن هناك ضيوفاً كباراً من علية الناس، كما أن جدك سيأتى أيضاً، ستجىء مفهوم.

أجابها:

ـ بالطبع، كيف استطيع التأخر أو عدم المجىء.

* * *

فى المساء وهو يعبر بوابة القصر تذكر تلك الليلة، مر به طيف ليلى كمال الدين تمنى أن تكون ضمن المدعوين، مشت بجواره مشيرة متبرمة ضجرة بثياب شهور الحمل الأولى.

مرة أخرى ضجت ثريات القصر بالضياء بحث فى الوجوه الأنثوية لعله يجد من يشي وجوده عن مجيء ليلى، لكن الوجوه هذه المرة كانت تختلف، كل جماعة تلتف فى حلقة تشبه حلقات النقاش، وفجأة رأى فتاة تضع قبعة باريسية على رأسها تتجه نحوه، تسبق خطواتها خطوات سمية هانم التى جاءت تخب خلفها، تعلقت الفتاة برقبته، وقبل أن يفق، أمطرته بالقبلات، همس بعين دامعة (مريدة، مريدة، كيف جئتِ؟ كيف؟)، استدارت الفتاة إلى مشيرة، سألت وهى تهم بتقبيلها:

ـ زوجتك طبعاً؟ رأيتكما فى صور الزفاف.

قال لأمه معاتباً:

ـ لماذا لم تخبرينى فى الصباح؟

ـ كانت لتوها قد دخلت، وهى التى منعتنى من إخبارك حتى لا تعطلك عن عملك.

عاد يسأل مريدة:

ـ كيف تمكنتِ من المجيء؟

قالت له:

ـ تعال، لنجلس أولاً.

انتحوا ركناً بعيداً، جلسوا فيه، قالت مريدة:

ـ شف يا سيدى، عندما اجتاح الألمان باريس، أمسك بى اليأس حتى كدت أموت، حولوا المدينة إلى ثكنة عسكرية، لا تنقطع بها الدوريات المسلحة المستعدة لإطلاق النار عند أية بادرة من الشك، كنت لا أغادر المدينة الجامعية إلا للضرورة القصوى، وللحصول على الطعام والمعلبات التى ارتفعت أثمانها بسرعة خرافية، وبمضى الوقت هدأت الأحوال، وتعرفت إلى صديق من المقاومة، كنت قد أديت له خدمة اعتبرها ضرباً من البطولة، حملت أوراقاً تحوى تعليمات إلى قوات المقاومة فى

أقصى الجنوب عند مارسيليا، ولما عدتُ إلى باريس صرحت له برغبتى فى العودة إلى الوطن، صمت، فأصابنى اليأس مرة أخرى، لكنه بعد أيام جاء وأخبرنى أن أقوم حالاً معه، حاولت أن أحزم أمتعتى فنهانى، قال لى لا يمكنك سوى أخذ أشيائك الضرورية. وطيلة الطريق إلى الجنوب، كنا نلعب دور عاشقين متيمين مخمورين، حتى أسلمنى لصديق إسبانى عبر بى جبال البرانس فى رحلة شبه مستحيلة، بعدها هبطنا إلى شبه الجزيرة الايبرية، هناك نصحنى الصديق بأن أبقى فى لشبونة، لكننى لم استمع إلى نصيحته، وقررت استكمال الرحلة إلى مصر بحراً، صدقنى، أنا نفسى لا أصدق أننى هنا.

عندها سمعت صوتاً يقول لها:

ـ الحياة لا تدين إلا للشجعان.

استدار الجميع برؤوسهم، كان مراد أفندى واقفاً كطائر عجوز يرفل فى عباءة فضفاضة دب الزمن فى عظامه فخف جسده ونحل، ورقت عظامه، وشفت أنامله فصارت بيضاء كالشمع، كان يحمل بين يديه كتاباً، نهض الجميع لتحيته، ارتعشت شفتاه وهو يبوح بتحية المساء، حاولت سمية هانم أن تجلسه معهم، لكنه اعتذر، سألها عن الباشا فأشارت بإصبعها إلى ركن قصى يقف فيه، استأذنهم، مشى بخطوات محاذرة، هواء رخى داعب خصلات شعره البيضاء، توقف عند الباشا، نظر بعينين تشعان طيبة وسماحة وقوة داخلية، قال:

ـ نعمت بالصحة والسعادة يا باشا.

التفت الباشا إليه، غمغم بكلمات غير واضحة، ومن عينيه أطلت نظرة متحرجة حائرة، كان الرشيدى الكبير يقف بجانبه، ما يزال يقبض فى إصرار على شيئين، ثمانين عاماً اقتطعها من دبر الزمن، وألف فدان فى البحيرة يرعى شئونها بعقل وقلب مالك إقطاعى فيمن تركهم الزمن على أعتاب أول القرن.

واصل مراد أفندى وهو يمد يده بالكتاب إلى جودت باشا:

ـ تقبل يا باشا هديتى المتواضعة التى أنفقت فى إعدادها عاماً مما تبقى لى من أعوام قليلة.

مد جودت باشا يده، وأخذ الكتاب المنسوخ بخط بديع اللفات، فتحه، قرأ الإهداء بسرعة حتى لا يمس الانفعال قلبه، وقعت عينه على العنوان (رسالة الخيل)، قهقه الباشا جذلاً، قال:

ـ ما أعجب شأنك دوماً، تؤلف كتاباً عن الخيل وأنت لم تزر الاسطبل إلا مرات معدودة، كيف؟

أجاب الرجل بصوت هادئ النبرات:

ـ الخبرة العملية بلا شك عظيمة الشأن، لكن فى باطن الكتب تكمن خلاصة ما جمعه البشر منها، هذا ما فعلته، فأخذت من رسالة الخيل للأصمعى شيئًا، ومن عقد الأجياد للأمير الجزائرى بعضاً، ومن كتاب الخيل وفرسانها لنجيب خورى سر طبيب متصرفية جبل لبنان أشياء، والرجل ـ بالمناسبة ـ عالم فحل، أما ما يتعلق بالخيل وتاريخ تربيتها فى مصر، فاستعنت بكتاب الدكتور عبد المنعم عشوب، وهو جهد لا أنسب فيه لنفسى شيئًا سوى أن جمعته، ووقفت على تبويبه، وأخذت من أحدهم ما يكمل الآخر، لأصنع لك شيئاً فريداً أنت تحبه، فإن كان أعز مكان فى الدنى سرج سابح فلا شك أن خير جليس فى الزمان كتاب.

قال الباشا فى لهجة جاهد أن تكون شاكرة:

ـ طيب يا سيدى، هديتك مقبولة.

أحس برهافة مشاعره ثقل وجوده فاستأذن منصرفًا محييًا، وهو يمضى كان المكان يضج بأحاديث الضيوف، وكلها تدور حول الحرب الناشبة بأظفارها فى رقاب العالم كله عند دائرة كبيرة تجمع لفيف من شباب الأرستقراطية المصرية، يتحلقون حول الرئيس السابق، استمع إلى جدل عنيف بين شاب تندفع الكلمات من فمه فى حماس زائد مؤيدة الحلفاء، بينما كان الرئيس السابق يسخر منه، قال:

ـ أنت إذن من غرائب الطبيعة أيها الفتى، أهناك اليوم فى مصر من يؤيد الحلفاء، أتنى حين اتخذت قرارى بتجنيب مصر ويلات الحرب لم أكن وحدى، بل أيدنى البرلمان ومجلسيه من شيوخ ونواب، وهم أساطين السياسة فى مصر، وها أنت تأتى، وروميل يدق بوابة الإسكندرية على مبعدة ستين كيلو منها، وطائراته تقصف معسكرات ميدان الإسماعيلية والعباسية، تأتى أنت لتقول لنا أن الحلفاء سينتصرون، يا بنى أن ما فعلته ولم ألق عنه شكراً ولا عرفاناً سوى إجبارى على ترك الوزارة، ستمجده كتب التاريخ المصرى.

كان الفتى عاجز الحجة أمام بيان الرئيس، تلجلج وتأتأ، فأثار ضحك الملتفين حولهما اقترب مراد أفندى أكثر، أفسح له الشباب مكاناً، فأطل على الرئيس، قال:

ـ تجنيب مصر ويلات الحرب، عبارة فصيحة تلعب على وتر قوى فى النفوس، لكنها قولة حق يراد بها باطل.

صمت، فانذهل الرئيس وبدا على وجهه غضب قصى ألجم لسانه، فلم يرد، واصل مراد أفندى حديثه بصوت عميق نحاسى النبرات كأنه يستشرف آفاق الأحداث:

ـ نعم، إنه رأى قائم على أمل براق فى انتصار المحور، أمل براق كاذب كالسراب، وكما يأخذ السراب العطشى إلى واحات أشد جفافاً سيأخذ هتلر اللعين إلى هزيمة ماحقة.

تعالت الهمهمات من حوله مستنكرة، هتف بهم:

ـ هيه، مهلاً، مهلاً، لم انته من كلامى بعد، فما هتلر إلا ثور هائج حُل وثاقه واندفع يعربد بلا عقل فى مخازن الصينى، حتى فر ما بها من عاملين مذعورين، لكنهم ريثما يلتقطون أنفاسهم، حتى يعدوا له الرسن والشبك، وقد بدءوا فى ذلك، فإذا ما وقع سلخ حياً ووزع لحمه على الجميع، ومع ذلك سأسلم جدلاً بإمكانية انتصار روميل، فما معنى ذلك؟ معناه استبدال استعمار باستعمار آخر أشد منه وحشية وتعصباً.

كـان الجـمـيع يسـتـمع فى صـمت لغـرابة مـا يقـول، البـعض بدت عليـه عـلائم السخرية والاستخفاف أما الرئيس فكان وجهه كارهاً لاعناً، أشار مراد أفندى بكفه إلى صدره، قال:

ـ أنا تركى الأصل والمنبت، ولقد فعل الإنجليز ببلادى عند نهـاية الحرب الأولى وفى أعقابها ما لم تره عين أو سمعت به أذن.

قاطعه الرئيس السابق ساخراً:

ـ لذا أنت ممتن لهم.

قـال مـراد أفندى بنبـرة قـاطعـة: لا تؤول كـلامى تـأويلاً خـاطئـًا فـلا شك أن الاستعمار شىء بغيض مدمر لمقدرات الشعوب الواقعة تحت طائلته، لكن فى السياسة لا مجال للعاطفة، وأعداء اليوم هم أصدقاء الغـد، ولا شىء إلا حسابات المصالح، وما أظن حكومتكم قد أدركتها جيداً.

زأر الرئيس فى وجه الرجل:

ـ كيف أيها الشيخ؟ وهل قادت مواقفنا سوى المصلحة؟ مصلحة بلادنا قبل كل شىء آخر.

ـ هذا ما بدا لك، مصلحة بلادك فى التحالف مع الإنجليز، أنتم فوت على مصر إعلان الحرب على ألمانيا، لكنكم لم تفوتوا عليها التورط فى الحرب ورفضتم إلحاح الإنجليز وهم مـذعورون فى أول الأمر حين كانوا يستجدون الأيدى لتقل عثرتهم، تحت دعوى أن قوام الجيش المصرى خمسة آلاف نفس لا تسمن ولا تغنى عن جوع، لكنك لو قلبت الأمر على وجهه الآخر، لرأيت أن هذا الجيش لو خاض الحرب لازداد عدداً وتسلحاً ومراناً، بازدياد المهام المنوطة به، فإذا ما انتهت الحرب، كان هناك جيش يعول عليه، الأمر الذى سيدعم موقف مصر التفاوضى، ويعطى بلدكم الحق فى نصيب من كعكة المنتصرين، الأدهى والأمر هو أن الإنجليز قد أدركوا ذلك، فلم يعدوا

يطالبونكم بإعلان الحرب، ليستفيدوا من موقفكم الحيادى، لتقل الإمدادات والأسلحة من وإلى بلدكم.

- أنت لا ترى شيئاً، ألا تسمع قصف الطائرات الألمانية، إن جيوش روميل تدق الأبواب، وهذا ما أدركته بفطنتى منذ عامين.

- وأنا أقول لك بفطنتى المتواضعة، إن ميزان الحرب انقلب رأساً على عقب. لو كان للألمان أن ينتصروا، لوجب أن يكون الانتصار فى جبهة الغرب، حيث رأس الأسد الإنجليزى العجوز لا ذنبه، إن درس الحرب الأولى ما زال ماثلاً أمامى، وهى عندى لا تختلف كثيراً عن هذه الدائرة الآن، فميزان الحرب كله انقلب بدخول أمريكا الحرب، أمريكا بئر الذهب، وليحارب هتلر الآن ألف عام، فبالمال والخامات لن تبقى سواعد الحلفاء عارية، لا يغرنك أن روميل يقف على أعتاب الإسكندرية، لأنه يقف وحيداً إلا من دهائه فى كفة، وحماقة الفوهرر مصبوغة بهوس الدونتشى فى الكفة الأخرى.

أنهى كلامه، وانحنى مستأذناً تصحبه غمغمات لاعنة، هتف به الرئيس السابق ساخراً:

- أفدتنا يا شيخ، أفادك الله.

مضى مراد أفندى بخطو ثقيل مبتعداً، أدرك جودت باشا أن شيئاً حدث، اقترب من الرئيس مرحباً:

- أسعدتم النفوس بحضوركم.

كان وجه الرئيس يحتقن بحمرة غاضبة، وهو يزفر سأل:

- من هذا الرجل يا جودت باشا؟

أيقن جودت باشا أن مراد أفندى أثار حنق الرجل، قال ملطفاً:

- لا عليكم يا جناب الرئيس، إنه قريب لحرمنا المصون، نعوله فى شيخوخته إرضاء لها.

ـ إنه رجل بغيض منفر.

ـ أرجو ألا يكون قد أغضب معاليك.

ـ إنه منحاز تماماً إلى صف الإنجليز.

ـ هذا يكفى دلالة على حمقه وعته، هل فى مصر اليوم من يدافع عنهم؟

تناثر زبد الغضب من فميهما، لكن جودت بحنكته أدار وجهة الحديث بعيداً، قال:

ـ بالأمس ابتعت جواداً نادراً، فحل فريد، اشتريته من السيدة دورثى بلنت.

هرش الرئيس جنب رأسه متذكراً:

ـ دورثى بلنت؟

ـ نعم، زوج ذلك المستشرق الإنجليزى الذى صاحب عرابى باشا إبان الهوجة.

ـ آه، أما زالت على قيد الحياة؟

ـ انتهبتها الشيخوخة لكنها ما تزال تدب على الأرض.

ـ وما تفعل الآن؟

ـ أف، إنها تربى فى مزرعتها عند الطرف الغربى من عين شمس، أفضل سلالات الحصان العربى أصلاً ونسباً.

ـ اعتقد أننى منذ سنوات قرأت عن إهدائها للجمعية الملكية فصائل رفيعة النسب.

ـ هو ذلك معاليك، كم كنت أتمنى لو أن الوقت نهاراً، لأريت سعادتك ذلك الفحل.

لاحظ نور جودت أن مريدة كثيرة التلفت، وهى على حالة من القلق ما تنى تراقب المدخل الرئيسى المفضى إلى البهو، سألها:

ـ أتنتظرين أحداً؟

قبل أن تجيب رأت شخصين يقفان عند مدخل القصر، نهضت مستأذنة، أسرعت الخطو إليهما، بينما تبعها نور بعينيه متعجباً، فقد عرف فى أحدهما لويجى بيانكا مصمم رقصات ليلى جمال، رأى مريدة ترحب بقدومهما وتقبل بهما نحوه، وقف، تأملهما، كان الشخص الآخر الذى لم يعرفه بعد رقيق الملامح مثل فتاة حيية، له كتفان ضيقان، وفم دقيق، وجسد ضئيل نحيل، شعره أسود فاحم مبالغاً فى تصفيفه مشدوداً إلى الخلف. توقف عنده فانتبه، وقف محيياً مرحباً بهما، بينما أجرت مريدة عليهم التعارف:

ـ أعرفكما بأخى نور جودت.

انحنيا تحية وهما يمدان كفيهما بالمصافحة، قالت مريدة:

ـ وهذا لويجى بيانكا.

قاطعها نور:

ـ سبق أن رأيتك من قبل منذ سنوات هنا أيضاً، إنك مصمم رقصات بارع.

ـ أشكرك.

قالت مريدة كأنها تسأل:

ـ أما الأستاذ فهو إيلى كوهين.

هز إيلى كوهين رأسه مبتسماً، قال:

ـ بالضبط يا آنستى أنا إيلى كوهين صاحب مدرسة الرقص الباريسى الحديث.

تعجب نور أكثر، فما الذى يجمع بين أخته وبين مثل هذين الشخصين، قالت:

ـ دعونا نجلس، أسنظل واقفين؟

وهم يجلسون دار الحديث عن الحرب، قال إيلى:

ـ لا شيء يمكن أن نقطع به، فالحرب ليست معركة هنا وأخرى هناك، الحقيقة الألمان بارعون فى التكتيك، لكنهم يفتقدون إلى شيئين يتوفران بشدة فى الإنجليز، أنهم يفتقدون إلى الخبرة والصبر من جهة وإلى النظرة الإستراتيچية من جهة أخرى.

سأل نور جودت:

- فى صف من تقف يا بنى؟

أجاب إيلى مراوغاً:

- نحن الذين بلا مأرب سوى العيش فى سلام لا نعرف إجابة على هذا السؤال.

قال لويجى فى مرح وبلهجة مازحة:

- لو أننى مكانك لأشهرت إسلامى الآن قبل فوات الأوان، فلو اقتحم روميل دفاعات الإنجليز عند الإسكندرية، لسقطت الدلتا والقاهرة، عندها يا إيلى العزيز ستشون أحياء أنت وأبناء الجالية اليهودية.

قال إيلى وعلى وجهه سيماء الكدر:

- مزاحك ثقيل يا لويجى.

ضحك لويجى بصوت عال:

- أكاد أشم رائحة الشواء تتصاعد كما يتصاعد الدخان من وثائق السفارة البريطانية وحرائق معسكرات ميدان الإسماعيلية، الألمان قادمون ولا شك يا إيلى، وها أنا أرى القاهرة تفتح ذراعيها للغزاة الجدد كعادتها، ألم تسمع هتاف المتظاهرين (اضرب يا حاج محمد) (إلى الأمام يا روميل) ترددها شوارع القاهرة طيلة طريقنا إلى هنا.

نهض إيلى حانقاً، هتف به:

- لويجى، كفى هذراً سخيفاً.

أمسكت مريدة بكفه مهدئة، قالت:

- أوه، مسيو إيلى، كل شىء سيكون على ما يرام، لا داعى للانفعال، أرجوك.

جلس إيلى ساخطاً بينما فتحت مريدة حقيبة يدها التقطت مظروفاً، قالت:

- هذا هو خطاب من سارة أختك، كانت لى نعم الأخت والعون فى باريس.

غاضت ملامح الغضب عن وجه إيلى وهو يمد يده ويأخذ المظروف شاكراً سائلاً:

- وكيف حالها؟

- هى بصحة جيدة، لم يفقدها ما حدث روح المرح والسخرية التى تتمتع بها وفيما عدا اسمها لم يتغير منها شيء.

عاد يسألها:

- لمَ لم تحاول الهروب معك؟

- كان علىّ أن أفعل ذلك بمفردى، ربما لو أتيحت لها فرصة لفعلت.

قال إيلى:

- مرة أخرى أشكرك بحرارة.

تلفت يتأمل المكان، قال بلطف:

- هل لى أن أنال شرف مراقصتك قبل أن أرحل.

- ما يزال الحفل فى أوله لما ترغب فِى الرحيل؟

ابتسم إيلى، قال:

- لا أقصد بالرحيل الآن، بل غداً، حيث وفروا لنا قطاراً للرحيل إلى فلسطين.

طأطأت مريدة رأسها، ثم رفعته مبتسمة، قالت:

- بكل سرور.

وقف وانحنى مد كفه مبسوطة مقلوبة فوضعت عليها كفها، مضيا نحو دائرة الرقص، تركها إيلى، ذهب وهمس فى أذن قائد الفرقة الموسيقية، توقف اللحن فجأة، ثم أخذ يعزف موسيقى الفوكس تروت من أربعة نغمات مرحة، أخذ الراقصين يخطون خطوتين خطوتين مع كل نغمة. حتى انتهى الفاصل، وفى البروميناد،

وبإشارة مدربة من إيلى للمايسترو، استدار إلى فرقته، انسابت موسيقى الفالس الرويال بوستون فخيمة دافقة، وأفسح الراقصين المجال للأستاذ الذى كانوا يعرفونه، أما مريدة فقد أثبتت أيضاً أن سنوات إقامتها فى باريس لم تضع هباء، وبينما هما يرقصان، كان نور يحوم حول لويجى، سأله:

ـ أنت إيطالى؟

ـ بلا شك.

ـ لكن كيف تسنى لك عدم الرحيل؟

ـ أمى مصرية، كما أننى أحمل أيضاً الجنسية المصرية، ذلك ما جعلنى أفلت من قرارات الطرد والإبعاد.

أومأ نور إلى كوهين برأسه:

ـ يبدو أن صداقتكما وطيدة وإلا ما تحمل مداعبتك الثقيلة له.

تنهد لويجى، قال:

ـ هو أستاذى فى الرقص، وصديقى أيضاً، إن الحرب عمل قذر، ألا توافقنى؟

هز نور رأسه موافقًا. واستغرقهما الصمت، كانا يتأملان الراقصين البارعين.

سيعرف نور فيما بعد من ليلى كمال الدين أن لويجى كان واسطة بين إيلى كوهين مبعوث إبراهام شترن مؤسس أكثر المنظمات الصهيونية إرهاباً وبطشاً بعرب فلسطين، وبين النازيين الذين رفضوا فى تقزز مشروع شترن لإقامة معاهدة بين دول المحور وحركة التحرر اليهودية فى فلسطين، إذا ما تمت الموافقة عليها سيقوم الايرجون (الجيش السرى اليهودى) بتوسيع نطاق مجهوداته الحربية ضد بريطانيا العظمى مقابل اعتراف الأطراف الأخرى رسمياً بحق الشعب اليهودى فى إقامة دولة ذات سيادة فى فلسطين.

لكن ما لم يعرفه نور أن إيلى الذى سيرحل فى قطار الصباح مع ألف من أبناء الجالية اليهودية فى مصر، سيعود ليظهر فى منتصف الستينيات على خشبة المسرح السياسى، لابسًا ثوباً هزلياً لنائب رئيس وزراء جمهورية عربية بكل سرور، ثم يعدم بعد افتضاح أمره بالمصادفة البحتة.

* * *

انفض الحفل، وانصرف المدعوون، وبدا ارتياح على وجه جودت باشا وهو يودع آخر شخص فيهم، ليصعد إلى غرفة مكتبه حاملاً رسالة الخيل، يطفئ نور الغرفة، ويضىء نور الأباجورة، يفتح الكتاب أمامه، يهمس لنفسه وهو لا يستطيع أن يقاوم فضوله نحو الخيل يهمس (لنر ما كتب ذلك الشيخ التعس).

* * *

(٥)

من هى ليلى كمال الدين ؟

لماذا تلح على ليله، تلك المرأة حلم يصطخب بالحياة متى جاءت إلى عتمة غرفته أزاحت الظلمة جانباً وبددت برودة شراشف فراشه، التى تسرى إليه من قدمى مشيرة النائمة بجانبه، نهض وصب كوباً من الماء ازدرده، فساح خيط منه وسرح على عنقه، أسئلة كثيرة راودته، توقف عند سؤال واحد (لماذا يطلبون منه الحضور فى الصباح إلى السفارة الإنجليزية، ما هو الأمر العاجل الذى جعل حموه ينبهه أكثر من مرة بضرورة الذهاب فى الوقت المحدد؟)، سيعرف متى ذهب، أسلم جسده للفراش وطرد الأحلام التى طاردته حتى ارتخى جفناه ونام.

* * *

فى الصباح وهو يعد حافظة أوراقه ليتأكد من وجود خطاب السفارة به ويحتسى شايه على عجل، جاءه الخادم، قال:

- رجل بالباب يا سيدى يطلب مقابلتكم.

قال متعجباً:

- رجل، أى رجل؟

- يقول إن اسمه إبراهيم هوارى.

صك الاسم مسمعه صكاً، خرج من محبسه إذن، أومأ إلى الخادم برأسه، قال:

- خليه يدخل.

مرت دقائق قبل أن يأتى إبراهيم بصحبة الخادم، وقف يحاول أن يمزج تحيته ببسمة مائتة، جسده لم ينل منه السجن شيئاً، لكن نظرة عينيه أفشت ما نالته الروح من تحطم، ظل صامتًا، قال نور جودت مبتسماً ومرحبًا بحرارة حاول أن يكسر بها طوق الصمت المتحرج.

ـ أهلاً، حمداً لله على السلامة، ومبروك خروجك.

رد الرجل شاكراً، واصل نور:

ـ أفرج عنك مبكراً، بالتأكيد لحسن سلوكك.

هز الرجل رأسه نافياً، قال:

ـ شملني قرار إفراج عام لأسباب لا نعرفها، خرجت منذ ثلاثة أشهر.

صمت نور وفكر، وبالبديهة والحدس معاً خمنّ أن ذلك واحد من القرارات التى لم يفهم كنهها فى الآونة الأخيرة، إن شيئاً كبيراً يعد له إعداداً جيداً، شيء ضخم لابد حادث، لفهما الصمت فبقيا صامتين، قال للرجل:

ـ فى حاجة لفلوس؟

أحنى الرجل رأسه فى خجل وصمت، ثم قال:

ـ لا، أنا فى حاجة إلى عمل.

فى عجل أخرج نور ورقة من حافظة أوراقه، وخط رسالة إلى أبيه، طواها ووضعها فى مظروف، ناوله إلى الرجل.

* * *

عند السفارة الإنجليزية توقفت به السيارة، ترجل وعدل من هندامه، ثم مضى عابراً الباب بصحبة شخص كان فى انتظاره.

* * *

فى طريق عودته من السفارة، أدرك أن العالم أضيق مما يتصور، ففى جلسة العمل تفجرت مفاجأة على المائدة، عندما دخل الغرفة المعدة للاجتماع، كان هناك

رجل مخابرات إنجليزى، وآخر مندوباً مفوضاً من مركز القيادات، وفى ركن الغرفة يجلس ضابط إنجليزى برتبة ليفتانت، تبدو على وجهه إمارات الكد النفسى التى يعرفها نور جيداً فى من يتم استجوابهم بالطرق البوليسية والمخابراتية، ثم سمع نور اسم ليلى كمال يتردد، فانتبه، رآها تصب الخمر فى كؤوس من البلور لضابطين من الإنجليز، أحدهما يجلس الآن قبالته فى ركن الغرفة، هست (قل يا روح أمك، قل)، قال الضابط وهو يرفع كأسه عالياً والسكر يعصف به:

ـ هايل ليلى كمال، يسقط هتلر وموسولينى، سيسقطان حتماً، غداً سنرحل فى مأمورية لاصطحاب فرقة من الجيش العاشر البريطانى من سوريا، ومعنا ما سوف ننسف به روميل حتى تتطاير أشلاؤه فى صحرائكم الغربية.

صمت يجفف عرقه بمنديله من وهج حر القاهرة ومن حرارة جسد ليلى كمال التى التصقت به، فانصهر وذاب، ضربت صدره فى دلال وغنج بقبضتها، قالت:

ـ يا رجل قل كلام يعقل.

سأل حانقاً:

ـ أنت معنا أم مع المحور؟

قالت وهى تميل وتطبع لثمة على خده:

ـ أنا معك أنت.

هتف يقسم:

ـ أقسم لك أننا سننسفهم نسفاً.

(وكما أقسم هو، أقسمت ليلى كمال للويجى الذى لمعت عيناه وهو يرسل ما عرف باللاسلكى لمانزولينى الذى قهقه جذلاً وهتف (برافو) سنلقنهم درساً آخر، لكم سيسعد العزيز روميل بهذه الأخبار).

لكن الضابط أفاق فى الصباح من سكرته، واستعاد شريط أحداث الليلة، توقف عند مشهده وهو يبوح فى سذاجة غر أبلة بأسرار فى غاية الخطورة، كان يتأرجح على حبلين واهيين ولا محال من السقوط، فإن هو صمت فمن المحتمل أن يضيع على أمته كل هذا التجهيز الهائل لسحق الفيلق الإفريقى وقوات البانزر، بل من الجائز أن ينتهى الأمر بكارثة مهولة، وإن هو اعترف ليرضى ضميره الوطنى وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، حوكم محاكمة عسكرية لا يعرف إلى ما تنتهى به، لكنه حسم الأمر، فلم يكن هناك وقت ليضيع، اعترف بما حدث.

* * *

الآن يطلب منه رجل المخابرات الإنجليزية ملفًا كاملاً عنوانه (من هى ليلى كمال) أية سخرية، امرأة أحلامه، التى تمثلت دومًا لعينه رمزاً للأنوثة والجمال والحب، يجلس الأن إلى مكتبه يخط اسمها على ورقة، ثم يحيطه بدائرة تنتهى بعلامة استفهام.

* * *

من هى ليلى كمال الدين:

كانت بعد طفلة صغيرة لم تتجاوز السابعة من عمرها، يوم أن اقتحم شياطين حمر الوجوه بيتهم الواطئ المبنى بالطوب اللبن المرشوش بالجير الأبيض، سمعت وهى بين النوم واليقظة زمجرة محركات دراجاتهم البخارية، وصوت إيقاف سيارة كبيرة، نزل منها الجند وهم يتصايحون، أطاروا الباب من حلقه، فتهاوى تحت وقع دباشك بنادقهم، اقتحموا البيت وهم يشرعون سناكى بنادقهم، قفزت من فراشها مشعثة الشعر، جسدها الطفل النحيل ارتعد فى عصبية، رأتهم تحت ضوء اللمبة الجاز

نمرة خمسة يصوبون السناكى فى الهواء، خطا نحوها قائدهم ففرت مفزعة، واختبأت تحت السرير الوحيد، الذى ترقد فوقه أمها التى نهضت من نومها، وتراجعت إلى الحائط تجمع نصف عريها، انتهت إلى الطفلة أصواتهم وهم يتراجعون بلغة حسبتها لغة الجن، وكلما اقترب وقع أحذيتهم الثقيلة من السرير انسحبت أكثر إلى الحائط وهى ترتجف، كانوا يقذفون بقطع الأثاث ويرمون بالأوانى على الأرض، أمها لم تقل شيئاً، انقبض لسانها، ولما انتهى الجند من التفتيش سمعتها تسأل:

- خير يا شاويش، فيه حاجة تدور عليها؟

قال القائد لرجاله غير عابئ بها:

- لا شيء هنا، لنمض.

راقبتهم المرأة من خصاص النافذة وهم ينصرفون، حتى تأكدت من ابتعادهم، مدت يدها وجذبت الصغيرة وأخرجتها من تحت السرير، سمعتها تهمس (الحمد لله، ربنا عمى بصرهم عن برج الحمام)، هناك كان إبراهيم أبو العتب - زوجها - يخبئ مسروقاته من مهمات جيش الاحتلال.

ظلت طوال الليل ساهرة هى وأمها، حتى أشرقت الشمس، طرق بابهم جابر سليمان مخبر نقطة المعدية، ليعلمها أن زوجها - اللص الشهير الذى دوخ معسكراتهم - قُتل على أطراف السلك الشائك قتلة رومانتيكية تليق به، حيث كشفته الأضواء الكاشفة وهو يحمل بطانية مملوءة ببيادات الجيش، فصبت عليه الحراسة وابلاً من الطلقات وإنه ما يزال ملقى هناك محاطاً بالأحذية.

لبست جلبابها الأسود، وتلفعت بطرحة سوداء، مضت وابنتها بصحبة جابر سليمان حتى وصلوا إلى بوابة المعسكر، بقيت هناك نهاراً بأكمله تندب وتنوح وتعدد حتى جاء مندوب من الحكومة المصرية فى رفقته طقم كامل من النيابة، وطبيب شرعى أتموا معاينة الجثة، واستوفوا التحقيق، ثم صرحوا لأهله بأخذه للدفن، ولما كانت تماضر أمها مقطوعة من شجرة، فلم يكن أمامها سوى أن تسلم أمرها إلى

المخبر الذى راودها مرات من قبل عن نفسها، تلك المرة لم تزح كفه الثقيلة وهو يربت على كتفها مواسياً، حمل بعض الرجال الجثة فى صندوق خشبى كبير من صناديق الذخيرة، وأسلموه لهم، فمضوا ليغسلوا الجثة ويلفوها بالأكفان ويودعوها الثرى.

* * *

مضت شهور لم تنسها ليلة ونهار الرعب اللذين عاشتهما بمقتل أبيها، لكن ذلك الرعب أيقظ فيها شيئًا يتفوق على طفولتها لتواجه مع أمها حياة بدت بعد أيام من موت أبيها علامة استفهام كبيرة تحيطها دائرة من الضياع والمجهول ونظرات الناس الساخرة التى كانت تحس ـ بصدق طفولتها ـ طعناتها تنغرس فى قلبها وتغوص بعيداً، اختارت تماضر مهنة السقاطة، وفى كل صباح كانت تصاحب أمها التى تحمل طست السقط على رأسها، بينما تمسك الصغيرة فى يدها سطلاً فارغًا حتى تصلا إلى المعدية، هناك تضع أمها الطست على الأرض، وتقف هى وصغيرتها تنتظران مجيء نسوة عمال الكامب ليشترين بضاعتها، وبينما أمها تتبادل عبارات المساومة مع النسوة كانت تجلس ساهمة صامتة تحملق بعينيها الواسعتين فى أغوار بعيدة، تترقرق فى أعماقها صورة إبراهيم أبو العتب وهو ينفث الدخان من فمه، يربت على كتفها فى تحنان، يداعبها ويدس فى فمها قطعة من الحلوى، تظل هكذا حتى تفيق على صوت جابر سليمان يلقى بعبارات الغزل فى أذنى أمها، يقهقه حين تزيح المرأة كفه، تقول:

ـ فى الحلال يا جابر يا سليمان.

تراه الصغيرة ينصرف مبتعداً وهو يمسد شاربه، تتابع جسده الفاره حتى يغيب فى انحناءة الطريق، تعود لتغوص فى أسئلة جديدة (ماذا يريد الرجل من أمها؟، وما هو الحلال الذى تتكلم أمها عنه كلما جاء؟)، تفيق عند منتصف النهار على صلصلة سوار أمها الوحيد وهى تطبل لها على الطست الفارغ، فتدرك أن الوقت حان للعودة إلى البيت.

* * *

كانت أمها (تماضر السيد)، امرأة دافقة الشباب، لها ضرعان كبيران ينمان عن الصحة والعافية، وعينان ذباحتان سلبا المخبر لبه، تمتلك غريزة صادقة تغنيها عن شقاوات العقل. لذا لم تقف طويلاً عند موت إبراهيم أبو العتب، كانت تدرك أنها امرأة وحيدة، أدركت ذلك منذ اللحظة التى وقفت فيها عند بوابة المعسكر، تأملت جسد المخبر الذى حاول أن ينالها مرات من قبل، وأضمرت فى نفسها رغبتها فى الاقتران به، كان عليها أن تخوض حربها الخاصة معه، حربها بين مفهومين بسيطين للحرام والحلال، كلما جاء ليراودها، لم تحرمه من انحناءة تلتقط فيها شيئًا من بضاعتها فتكشف له عن مجرى عبيد ثدييها، أو تستدير وتخبطه بعجيزتها، ومتى هاج الثور فيه، تبعده زاجرة ناهية، وهى تزيح كفه مرة بلطف وأخرى فى غير لطف، يقول لها:

ـ أطيعينى تكسبين.

ترد:

ـ أطعنى أنتَ تكسب أكثر.

هكذا حتى تزوجها، انتظرت شهوراً أخرى قبل أن تخبره بالكنز المخبوء فى برج الحمام، بالة كبيرة من السترات الصوفية، وصندوق من بيادات الضباط، وآخر يحتوى على ذخيرة من طلقات رصاص البنادق، ولم يضع جابر وقتًا وبلا تحسب ولا كتمان باع تلك الأشياء، فاحت رائحة ما حدث حتى وصلت إلى أعماق الكامب، مرة أخرى كبس الجند دارهم، اصطحبوا معهم جابر، وتولوا بأنفسهم التحقيق معه قبل أن يسلموه إلى السلطات المصرية معترفًا بجرمه تحت وطأة ما فى التحقيق من صفع وركل، قدم إلى محاكمة عسكرية، قضت بسجنه ستة أشهر ورفته نهائياً من الخدمة.

فى السجن ابتلى بتعاطى المخدرات، ولما خرج أصبح شخصاً آخر غير الذى عرفتاه، صار أسداً كسولاً لا يستيقظ إلا ليأكل ويلعق لحسة من المنزول، يتناول من أجلها كوباً من الشاى الغامق، يظل يحتلب فى تؤدة لحسة المنزول المر حتى تذوب

وتصعد بالكيف إلى رأسه، ينهض، يخور فى البيت، ترتعد البنت الصغيرة، تفر لتختبئ فى برج الحمام.

بمرور الوقت أدمن التبطل كما أدمن من قبل المنزول، ومع ذلك لم تضج تماضر من ذلك الوضع، تقبلته كجزء من قدر أيامها، ولم لا؟ فالرزق من تجارتها موفور، وهى تعشق ذلك الكائن الضخم المخبوء أسفل سرواله الداخلى، هكذا أنجبت له ولداً وبنتاً، ليتسلى بمداعبتهما وهو جالس أمام البيت يتلقى ضربات الإلهام من الشمس الساقطة على جلبابه الأبيض السكروته ولاسته الساتان، يمسك خيزرانة فى يده يهش بها على الأطياف المشاغبة التى يبعث بها المنزول إذا ساء نوعه، أو يديرها فى اطمئنان وهدوء متى أصاب نوعاً جيداً يرسل إليه روائح طيبة من عطر الجنة، أو فراشات زاهية ترف من حوله، يراهما يحملان بضاعتهما، وقبل أن يمضيا يصدر أوامره بلهجة عسكرية حازمة متوعدة بضرورة الاحتفاظ ببقايا شرفه.

* * *

البنت كبرت، قفزت بها السنوات قفزة كبيرة، أصبحت تمتلك الآن اثنتى عشرة سنة بأكملها هى كل رصيدها فى الدنيا، وكما تبشر الفاكهة، أسفر جسدها، عن ليونة فريدة يختزنها لانطلاقة بعيدة لم يحن بعد أوانها، أصبح الطست الآن من نصيبها، وهما تودعان الأسد الرابض عند الباب كل صباح، حتى تصلا إلى المظلة التى تقفان تحتها اتقاء للسع الشمس، وبينما تجلس الأم، تظل هى واقفة حتى تنتهى بضاعتها، تصلصل لأمها بسوارها الوحيد المعدنى على الطست، فتنهضان منصرفتين قافلتين إلى البيت، عندها تواجه طستاً آخر مملوءاً بملابس الصغيرين المتسخة، هكذا تظل تدور كالنحلة حتى يداهمها الليل، تغالب السقوط من الإعياء حتى تصل إلى فراشها.

ذلك المساء البعيد، وقع شىء لم يعهدوه من قبل، دوى انفجار هائل، أعقبته انفجارات أقل قوة، استيقظت على أثره لترى ألسنة اللهب ترتفع من المعسكر إلى

عنان السماء، احتضنت الصغيرين المرتعبين، لم يطل الوقت حتى كانت صفارات الإنذار تمزق سكون الليل، وأصوات محركات عربات الإطفاء تنهب الأرض فى اتجاه المعسكر، حتى جابر المخبر السابق عجز عن تفسير ما حدث.

فى اليوم الذى تلى، مشطت المنطقة كلها بيتاً بيتاً، لقوا نصيبهم من زجر الجند وركلاتهم وهم يفتشون الأرض والبيت وبرج الحمام، وترددت لأول مرة كلمة لم تسمعها من قبل (فدائيون)، قال جابر سليمان:

- الله يخرب بيت أهل الفدائيين، يومهم أسود، وكله على دماغنا.

لم يكن لجابر ضلع وطنى، بل تحركت فيه غريزة المخبر السابق، وشى ببعض جيرانه ممن يبادلونه الكراهية، رأت البنت الجند يسحبون الرجال وهم يركلونهم بأحذيتهم الثقيلة، حقاً كان بعضهم يخبئ فدائيين فى جنينة الموالح، توقف قائد قوة التمشيط أمام بيت جابر سليمان ليحيى نذالته بعلبة سجائر (بحارى بليرز)، قال جابر له وهو يلتقط العلبة ممتناً، آملاً فى تعاون أكثر:

- تفضل يا سرجنت.

صاح فى أهل البيت (شاى بسرعة يا بنت)

وقف يتحادث مع الجاويش الذى سأله مستزيداً عن سكان الناحية، ولما جاءت الفتاة بالشاى انعقد لسان السرجنت وجحظت عيناه، رأى فتاة فى الثالثة عشر، ليست كأية فتاة. فتاة تقطر بأنوثة طازجة واعدة، هناك بشائر رمان طرحت فى حديقتها، مس خراط البنات شفتيها وأضفى على امتلائهما توردا يبلله رضاب ندى، حدق الجاويش فى عينيها الساجيتين، فمسه شعاعهما، غمغم، قال وهو ينحنى عليها يكاد يلثمها:

- خسارة الجمال الساحر يترمى فى الطين.

مد كفه، ليمس ذؤابة شعر تهدلت على جبينها، أمسك جابر يده وردها فى لطف، قال:

ـ لا، لا، كله إلا الشرف يا سرجنت.

أفاق الرجل من دوخة النشوة التى ارتفعت فى دمائه، قال مرتبكاً:

ـ نعم، نعم، كله إلا الشرف طبعاً.

احتسى كوب الشاى، نادى على رجاله، مضوا منصرفين.

* * *

أما هى فقد ودعتهم بنظرة تبوح بكراهية عمياء فجرها بداخلها حسها الصادق، هذه الشياطين الحمراء هى التى قتلت أباها فى ذلك اليوم البعيد، وهى التى أفزعت أحلامها بأقدامها التى هرولت كالثيران داخل بيتهم، وهى التى اقتلعت أشجار الموالح من حولها منذ أيام قليلة، لتصنع مسافة خلاء بين المعسكر والأرض التى تحوطه. كانت تتساءل وهى لا تفهم (لماذا جاءوا من بلادهم ليقيموا غرباء بيننا؟، ولماذا لا يعودون إلى بلادهم ليرعوا نساءهم وأطفالهم؟).

ومع ذلك مس السرجنت وتراً خفياً فى روحها وجسدها، تلك الليلة حلمت به، أمسك كفها، وعبر بها المسافة الخلاء من أشجار الموالح ومسافة أخرى بين الجسد الذى لم يعد طفلاً وبين الاشتهاء، سبحت معه فى فراش كبير، تأوهت والوحش يضرب بمعوله أرضها الجديدة، أنت وهو يحرثها، ولما انتهى نهضت من فراشها، لعنت نفسها ولعنته.

* * *

لم تمض سوى أيام قلائل حتى نهض جسدها كله نهضة خارقة، أسفرت عن أنوثة تتجاوز ما تسمح به الطبيعة لبنت من طينّ الأرض وحشيشها، رسّخت شقفة المرآة التى التقطتها من الرمال وعيها بذلك، ترددت فى أذنيها كلمات الغزل التى باح بها السرجنت بلهجته العرجاء، عاودت النظر إلى المرآة، فرأت واحدة غير تلك التى تركتها أمام مرآة البيت. تملت جيدها الريان السارح، والألق الذى يشع من عينيها، يحدثها برغبات الليل وشطحاته، علمت فمها العذب آهة تند عنه كأنها عفواً، تئن بضجيج داخلى، ولم يكن كتفاها فى حاجة لأن تعلمهما كيف يميسان، ضج صدرها بثديين رجراجين لهما استدارة الرمان، تماسك قلبها الذى بارحه الخوف القديم من العالم فجأة، سرها خصر برح به الضيق، فانفسح إلى أسفل نازلاً فى استدارة على كفلين إلى ردفين كأنهما تقعيرة بنانى الحمام التى تطل من البرج، يحملهما فخذان مدملجان ملفوفان نسيا نفسيهما حتى الكراعين، ولم يكن يسوءها إلا كفاها وقدماها، كلها تقطع بأصلها الفلاح.

وهى عائدة تسبق أمها لإعداد الطعام، سمعت هديل الحمام وهو يتبادل القبل فهاجت فى صدرها الأشواق، كان جابر قد أوى إلى البيت ليستظل من وقدة نهار صائف، لمحها تنحنى لتغسل أعواد الملوخية وتنشرها قبل أن تقطفها، تناول جرعة من كوب الشاى البارد، ليرد إلى روحه صوابها، عربدت فى رأسه أفكار شيطانية ناداها، جاءت إليه، رأت فى نظرة عينيه ما يعتمل فى نفسه، أمسك يدها، انتظرت، بالكاد أمسك بخناق ذلك الشيطان الذى عصف برأسه، قال لها بلهجة آمرة:

- اذهبى، اشترى ورقة معسل.

سحبت يدها بعنف، ولأول مرة أسقطت عنها رداء الخوف منه، رشقته بنظرة أفعمتها احتقاراً قبل أن تمضى.

فى فسحة الوقت استرد ما تفرق منه، طرد الهاجس اللعين، أسلم نفسه للنوم.

* * *

فى الليل نزى بامرأته، همس لها بعد أن انتهى:

ـ ليلى بقيت عروساً.

المرأة صمتت وفكرت، قالت موافقة:

ـ لما يجيء عدلها، البنت خسارة نهدرها.

فى الأيام التى تلت حماقته، أغلظ فى معاملتها، صبرت عليه حيناً، لكنها بدأت تتعرف على تمردها، بادرته بالاحتقار، فأخشن فى معاملتها أكثر، أهملت شأنه ولم تعد تلبى نداءه، فضربها، أفلتت عقال لسانها فيه، قذفته بالسباب بلا تحرج، لعن أباها، فأسفلت بأجداده الأرض، جرى يلتقط عصا يؤدبها بها، ففرت من البيت، لحقت أمها بها وأعادتها وهى تطيب خاطرها، هكذا تمكنت بينهما الكراهية.

هى لم تكف عن تحقير شأنه، وهو أضمر لها فى نفسه، لكن المنزول هيأ له أن الفتاة قد تنفلت أكثر إذا داوم على مباغضتها، وقد تخبر تماضر، لو فعلت لبقرت الأخيرة بطنه بسكين سمط الأكارع، تودد إليها اتقاء لشرها، فأرضاها ذلك، لكنه أسرف فى الزلفى، فأعادها إلى قرفها منه، وأدرك هو عظم غبائه فانزوى بعيداً عنها إلى حين.

ذاع أمر جمالها فى الناحية، فتزايدت صداقات جابر سليمان فجأة، لكنه بحس المخبر السابق أدرك ما وراء تلك الصداقات، فأطلق لسانه فى من جاءوا ليجالسوه حتى فروا مذعورين من تبجحه عليهم ورذالته فى مخاطبتهم، ولم يبق إلا منطاوى خفير المقابر كان عمره يربو عن الخمسين عاماً، منذ شهور ماتت عنه زوجه أم أولاده الذين سرحوا للعمل بالكامبات المتناثرة على طول خط القنال بين السويس وبورسعيد، كان إذا ما حل المغيب يأتى فى جلبابه الأبيض وعمامته الكبيرة، يقعى كالذئب أمام قصعة النار، يدس كنكة الشاى الكبيرة بين جمراتها حتى يغلى، يلتقط الكنكة بكف يده المدبوغة ويصب الشاى فى الأكواب، ثم يناوله فصاً بنياً غامقاً وهو يقول:

ـ المنزول يحرق دمك، لكن الأفيون أبو الكيوف يشد عصبك ويخليك زى الحصان.

بمضى الوقت توثقت عرى صداقتهما، وآمن أحدهما للآخر، فتشاكيا،قال له جابر:

ـ البنت لم يعد الضرب يقطع فيها، تترك لسانها على الغارب فيه بنت الكلب.

مرت أمامهما وهى عائدة من برج الحمام، فارتبكا وهى لم تقرأهما سلامًا، تأملها منطاوى، جاشت فى صدره أشواق ذكورية، تنهد قبل أن يقول لجابر:

ـ إعطها لى وأنا أربيها لك.

نظر إليه جابر نظرة فاحصة ليستبين بها موضع محدثه من الجد أو الهزل، رآه سادراً فى جده، سأله مستنكراً:

ـ أجاداً فيما تقول؟

أجاب الرجل فى نطاعة:

ـ أنا لا أهذر، وماله لو تزوجت من أخرى.

أجابه جابر:

ـ لك الحق فى الزواج طبعاً، ولكن البنت أصغر من أصغر عيالك.

قال منطاوى وهو يميل بصدغه إليه:

ـ أنت غشيم، كل ما البنت كانت صغيرة كل ما جددت دم الرجل وشبابه.

قال جابر فى تحد:

ـ لكن البنت مهرها غال عليك يا منطاوى.

أجاب منطاوى مستفزاً:

ـ وأنا قد المهر وقدود يا أبو سلمان، وطلباتك على العين والرأس، وأنا فى انتظار ردك.

ـ القول قول أمها، أشاورها وأرد عليك.

قال وهو ينهض:

ـ أنت الكل فى الكل يا عم الناس.

وقبل أن يمضى رمى فى حجره بفص أفيون، قال:

ـ خذ سل أوقاتك.

* * *

فى الليل الغميق وزن رأسه بالكيف وانتظر حتى تأكد من نوم العيال، آوى إلى جسد تماضر يستدفىء به، كانت توشك أن تغط فى النوم، فلحقها بوكزة خفيفة، انتبهت لها، قالت بصوت متكسر:

ـ ما تصلى على النبى أحسن.

أجابها بلهجة تأتنسها:

ـ اللهم صلى على النبى.

سرحت كفه واستراحت على خصرها، صمتت.

* * *

لما انتهيا، نهضت ووضعت سطل الماء على النار ليتحمم، اندست بعدها بجانبه على الفراش، قال لها مراوداً:

- البنت كبرت وأصبحت عروساً.

مصمصت بشفتيها، قالت:

- مالك يا جابر؟ قلت لى ذلك من قبل.

قال مرتبكاً:

- أقصد أن هناك من جاء ليخطبها منى.

تساءلت:

- ومن يا ترى.

صرح لها باسم الخاطب، ضحكت فى سوقية، قالت له:

- قل له بروح أمه يروح يلعب بعيداً عنا، وأنت قم استحم، الماء سخن.

وما إن نهض حتى انطلقت تشخر فى سكون الليل وفضاء الغرفة.

* * *

مرت شهور طوال، وأذن الشتاء واشتد قرسه، فلم يعدا يجلسان أمام البيت، وجدها منطاوى فرصة لينسل إلى داخل جدران البيت، أحست به الفتاة يمسح جسدها بعينيه الجائعتين وهى تنحنى لتدفع مكبس الوابور لتوقده وتعد لهما الشاى، يتأملها وهى تضع الكوب أمامه، شكرها، فلم ترد، مضت مسرعة، نظرته المقززة التى تطل من عينين مقروحتين تذكرها بالمقابر وتجعل جسدها كله يرتعد فى عصبية، وعلى الرغم من أن أمها لم تخبرها بشىء، أدركت بحدسها الصادق أن الرجل يدور حولها من وراء وراء.

أما جابر فقد عاد يشتد فى معاملتها، ويضيق عليها أكثر وأكثر، ولم يخرجها من ضيقها إلا أن تماضر قد ركنت إلى الدعة، تخرج إلى رزقها يوماً وتغيب عنه أياماً

تاركة للفتاة أن تنهض بعبء العائلة وإعالتها، تقبلت ذلك فى رضا لأنه أزادها ثقة وحرية.

يومًا وقف عندها فتى ممشوق القد يلبس أفرول كاكىّ مما يرتديه عمال المعسكرات، له بشرة لوحتها الشمس حتى تقشرت، أيقنتها أنه حديث العهد بالعمل فى المنطقة. تشاغلت عنه، فلم تعهد أن يأتى الرجال لشراء مثل بضاعتها، اقترب مبتسماً محيياً. رفعت عينيها إليه وردت تحيته، سأل عن الأسعار، ردت ساخرة:

ـ أسعار الشراء أم الفرجة؟

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

ـ الشراء بإذن الله.

ردت فى تبجح:

ـ أنا أبيع للحريم فقط.

همس كأنه يفشى سراً:

ـ لكننى أعزب.

تأملته أكثر، فيه ملاحة وفتوة، وله لهجة هادئة واثقة، ونظرة تبوح بما يجيش فى قلبه، تصنعت التشاغل عنه، سمعته يلقى بعبارات غزل أطربتها، لكنها أجابته فى جد (متشكرة، سيبنى فى حالى الله يخليك، ورح لحالك)، قال قبل أن ينصرف:

ـ سآتى غداً.

لم ترد جواباً، أولاها ظهره ومضى خطوتين، ثم استدار برأسه فابتسمت له.

* * *

بعد أيام جاءه منطاوى يلهث ويبرطم بعبارات كثيرة لم يفهم منها شيئًا، أجلسه وهتف به:

ـ مالك؟

قال من بين أسنانه:

ـ فضيحة.

ـ كيف؟

ـ الست يا سيدى عاشقة.

هب جابر من جلسته، قدحت عيناه غضبًا وهو يردد (الست، ست من؟) تدارك منطاوى ما يمكن أن يسببه من لبس، قال:

ـ أقصد ليلى، الإشاعة تملأ الناحية وأنت نائم على أذنيك.

صاح فيه:

ـ إشاعة، أية إشاعة يا ابن المركوب، قل، إنطق.

أجابه فى سخرية:

ـ غزالتكم يا عم سرحه مع فؤاد النجار، كل ليلة يتقابلان فى جنينة برتقال أبى غازى، الرجل حلف لى يمين ليضربهما بالنار إن أتيا الليلة.

صمت جابر مفكرًا، كيف فاته وهو المخبر السابق، بأن كل ليلة تحتج الفتاة بحجة لتخرج ليلاً، هز رأسه، صفرت الكلمات وهى تخرج من فمه:

ـ أنا أدفنها حية بنت الكلب.

ربت منطاوى على كتفه مهدئاً:

ـ اهدأ بالله عليك، أنا شارى.

جلسا ليتهامسا ويتدبرا الأمر.

* * *

بعد العشاء تصنع أن صداعاً ينهش رأسه، رمقته وهى تعد الشاى الثقيل له. قال وهى تضع الكوب أمامه:

- فى جيب جلبابى ورقة ملفوفة، هاتيها.

أحضرتها له، فض اللفافة، ورمى فصاً إلى فمه، تمدد على الفراش وأسبل جفنيه وملأ فضاء الغرفة شخيراً.

قالت لأمها وهى تحكم لف وشاحها على رأسها:

- سأذهب لأم محمود الدلالة لأسألها عن المناديل التى أوصيتها عليها.

قالت الأم فى لامبالاة:

- لا تتأخرى يا ليلى.

- مسافة السكة يا أمى.

* * *

تشابكت كفاهما وهما يغوصان فى الحديقة، ولما أمنا العيون، جلسا يتهامسان ويتضاحكان، ولما مال بعنقه ليهوى بشفتيه على شفتيها سمع أقدامًا تهرول، وقبل أن يعتدل نال ضربة قاسية من دبشك خرطوش أبى غازى قرقعت لها عظمة كتفه. وقبل أن تهم بالفرار، أحاطها جابر بساعديه وهو يزأر (وقعتى يا قحبة)، كانت نشوة جذلة تمسك به وهو يلم شعرها بقبضته ويجرها خلفه قائلاً:

- حسابنا فى البيت.

* * *

فى البيت تناول خيزرانة كان يخفيها تحت السرير، وحين هم يرفعها، أمسكت بسكين السماطة، وأقسمت لتفتحن بطنه إن هو رفع يده عليها، تدخلت تماضر بينهما قالت مدافعة عن نفسها (كان سيفاتحكم برغبته فى الخطوبة)، شخر لها:

ـ للبيوت أبواب، أما اللصوص فإنهم يدخلون من الشبابيك.

ـ أنت أدرى الناس بمن يأتون من النوافذ.

ـ إياكِ وقلة الأدب.

ـ لا حكم لك علىّ.

رجته تماضر وهى تطيب خاطره بكلمات متوسلة:

ـ لأجل خاطرى أنا اهدأ.

تصنع الصبر عند الابتلاء، وهو يضرب كفاً بكف ويجعر (عليه العوض ومنه العوض).

* * *

فى عصر اليوم التالى جاء منطاوى إلى البيت، كان جابر فى قيلولته، جلس منطاوى إلى تماضر يسامرها، دار ولف، فصاحت:

ـ قل مرامك يا منطاوى وإخلص.

ضرب كفه فى سيالة جلبابه، أخرج صرة كبيرة، ألقى بها فى حجرها، قال:

ـ مهر البنية يا تماضر، تحويشة العمر، هه، خذى.

أحست تماضر بثقل الصرة فى حجرها، صمتت تتدبر حالها، قالت وهى تفتح الصرة:

ـ لكن...

انفرطت أسنان من الذهب جمعها خفير المقابر من أفواه الموتى طيلة سنين عمله باللحادة. نهض جابر من فراشه، قال:

- ليس هناك من، لكن، علىَّ اليمين يا تماضر لو نطقتى بكلمة تكونين طالقًا، هات كفك يا منطاوى نقرأ الفاتحة.

تقابل الكفان، وتمتمت الشفاه، وتماضر تقلب بأصابعها ما انفرط فى حجرها.

* * *

قالت لها أمها وهى تكفكف لها دموعها بكفها:

- يا عبيطة ظل رجل ولا ظل جدار، اسمعى نصيحتى، إنه عجوز تتدللين عليه كما تحبين.

* * *

لم يضيعوا وقتاً، ألهوها بشبكة من الذهب وبثياب جديدة، ودخل بها بعد أسبوع، وعلى حافة السرير خانته رجولته، جلس يدخن، قال:

- أنا مربوط يا ليلى.

قالت ساخرة منه:

- طمأنتنى يا رجل، يا مئة فرحة.

غرق فى الصمت، فهزجت متشفية مغيظة:

- كان العطشجى فين لما البابور وقع انكسر.

دوت ضحكتها بالغرفة، رفع رأسه إليها، قال:

- ربك يفرجها.

ـ إنشاء الله، تصبح على خير يا سيد العرسان.

تدثرت بملاءة ولم تنم.

* * *

انتظرت ثلاثة أيام أن يأتيه الفرج، لكن عجزه تأكد، سبته في سرها وسبت جابر وأضمرت شيئاً في نفسها، لما أطل الصباح عليهما، تأكدت من نومه، جمعت ثيابها وصرتها، مضت دون أن تعنى بأن تغلق باب الغرفة عليه.

* * *

عند قارعة الطريق، رأت سيارة فيات سوداء واقفة، بجانبها يقف شاب مفرط الطول فيه رشاقة، شعره بنى جعد، قميصه يضيق بمنكبيه، له فكان عريضان، وعينان لهما نظرة حادة كعينى صقر، عاينها بهما، تحرجت من شعرها الهائش الذى لم تعنى بتمشيطه وهى فى عجلة من أمرها، لم تكن تدرى أن ذلك ما أثار فضوله، فقد كان شعرها السائب المشعث هو ما يضفى على مشهدها جموحًا من نوع خاص، ما إن عبرته غير مبالية، حتى ناداها بعربية عرجاء أكدت حدسها بأصله الأجنبى:

ـ أنتِ يا شاطرة.

التفتت إليه، قالت متواقحة:

ـ نعم يا شاطر.

استفزته الإجابة، لكنه آثر تأمل جمالها العفوى، وصباها الألق، وغجريتها الطليقة، لاحقته وهى تهم بالانصراف عنه:

ـ ما تنطق، سبحان الله.

قال:

ـ اسألك عن ورشة إصلاح إطارات.

قهقهت من طريقة كلامه فى فجور أجادت افتعاله، اقترب منها متأملاً، قال:

ـ أنتِ هائلة، خسارة والله.

قالت فى ضيق وشراسة:

ـ ما خسارة إلا الخسارة، شوف لك لعبة غيرها، إن كنت رايد ورشة كاوتش عندك كامب الإنجليز، عندهم كل حاجة، وكلكم ملة واحدة، فوتك بعافية يا مقدس.

ردد الكلمة كأنه يتذوقها:

ـ مقدس، تمشى قوى.

همت بالمضى، أمسك بها قبل أن تفر منه من أعلى ساعدها، فأطاحت بذراعه، قالت:

ـ وبعدها فى اليوم الأغبر، يا عم رح لحالك.

قال وهو يتعمد النظر فى عينيها:

ـ أنا أشكرك، وأشكر اليوم الأغبر الذى جمعنا وجعلنا نتقابل.

صمتت تتأمله للحظة، فيه وسامة وقوة دغدغتا مشاعرها، ولمستا وتراً دفيناً من غريزتها. أدرك ذلك بدربته وغريزة الصيد عنده، خفض صوته كأنه يهمس لها بسر:

ـ أريدك فى خدمة.

تلفتت حولها، سألت:

ـ خدمة؟

ـ شغل، يعنى فلوس.

استيقظت فيها غريزة الطرائد، انتفضت، قالت:

- عندك أبى وأمى، عن إذنك.

وهى تهم بالمضى، سألها:

- أين البيت؟

لم تجب، أوسعت خطاها مبتعدة، راقبها حتى دخلت البيت، مشى يدحرج إطار السيارة أمامه إلى الكامب.

* * *

كان لويجى بيانكا إيطاليًا مصرى المولد، يعمل مدربًا للرقص، بل هو صاحب مدرسة فى شارع سليمان باشا تشغل شقتين فى إحدى بناياته، يستقبل فيها بنات البيوتات العريقة من المصريات المتفرنجات اللواتى يلكن بالفرنسية، ويرغبن فى تعلم كل جديد من الرقصات الأوروبية مثل الفوكس تروت والشارلستون... وغيرها، إضف إلى ذلك أنه كان يقوم بتصميم رقصات للمحترفات، رقصات تمزج بين هز الوسط أو الرقص البلدى من جهة وبين رقصات غجر شرق أوروبا أو إسبانيا.

كان فاشياً قلباً وقالباً منذ أن هتف تشرشل (لو أننى كنت إيطاليًا لصرت فاشيًا) دونما وعى بأنه يهيء للنازى حليفًا فى أوروبا، انتمى بيانكا فى أول عهده إلى القمصان السوداء، لكنه ما لبث أن نضا القميص الأسود عنه بأمر من الكونت مانزلينى نفسه، ذلك تمهيداً لدور أكبر فى الطابور الخامس الإيطالى الذى انتشر أفراده بين أبناء الجالية الإيطالية فى مصر، أجاد بيانكا اصطناع دوره، كان يلعن الفاشست علناً ليأمن عيون الأمن المصرى أو رجال المخابرات البريطانية فى مصر، ولم تكن براعته فقط هى التى ضمنت له انعدام الشك فيه، ولكن احترافه تعليم الرقص أصبغ عليه قدراً من عدم الأهمية. وبينما نذر الحرب الثانية تتجمع فى سماء أوروبا،

كانت الأوامر تتالى إليه بجمع المعلومات عن حجم القوات الإنجليزية المرابطة على طول خط القناة، فقام بعدة رحلات على طريق القناة بدعوى زيارة أخته المقيمة فى الحى الإفرنجى ببورسعيد.

كان يدحرج الإطار أمامه فى طريقه إلى الكامب، والفتاة التى رآها تلح على خياله أكثر ما أعجبه فيها قدها المائس، ومشيتها الراقصة، همس لنفسه (أنها تحفة، تحفة، لانتهى أولاً من أمر هذه الإطارات اللعينة التى انفثأت واحدة بعد أخرى، أية مصادفة هذه، وكيف لم تخطر لى من قبل على بال، سأعاين الكامب من الداخل).

لكنهم كانوا من الحرص والدهاء بحيث استبقوه عند بوابة الكامب بمجرد معرفة أصله، وتحروا منه بياناته، فأعطاها لهم بكل سرور.

* * *

كان يجلس فى الشمس كعادته ساهمًا بعيون نصف نائمة، رآها قادمة نحوه فانتبه قال هامساً (بنت الحرام، أكيد عملت مصيبة)، غمغمت بما يشبه التحية له وهى تدلف البيت، قام وراءها، أمسك بها من كتفها قبل أن تضع الصرة على الأرض، أدارها نحوه، قدحت عيونهما شرراً، قال مزمجراً:

- خير؟

تنهدت فى غيظ، قالت وهى تبعد يده عن كتفها:

- كل خير، راجعة بيت أمى.

شخر لها ونخر:

- بيت أمك يا... أمك؟

- نعم بيت أمى، العريس طلع فشنك يا ريس.

قال مدارياً خجله:

ـ ظل رجل ولا ظل جدار.

ـ لا، إنسَ.

ـ يعنى؟

ـ بالعربى لا يمكن أعيش معه.

أحمرت عيناه واحتقنت بالدماء، قال مهدداً:

ـ تعيشين معه غصب عن أهلك.

قالت تسخر منه:

ـ رح أنت وعش معه، يمكن يعجبك.

لطمها، فسبته، جرى وهو يصيح (نهارك أسود)، انحنى ليسحب خيزرانته من تحت السرير، لم تضع وقتاً، تناولت جرة من الفخار مملوءة بالمش وهوت بها على رأسه، تدحرج على الأرض والدماء تتفجر من شج غائر بيافوخه، تراجعت وهى تلطم خدها (يا لهوى ليكون مات)، رأته ينهض بقدمين دائختين، جعر:

ـ يا بنت الحرام، سأقتلك.

استدار يفتش عن شيء يضربها به، مدت يدها والتقطت صرتها، انطلقت تعدو، عدا خلفها وهو يتعثر فى دمائه.

* * *

سمعت رنات موتور سيارة خلفها، وصوت بوقها يزعق مرات متتالية لينبهها استدارت رأته: همست (الخواجة، الحمد لله)، قال وهو يفتح الباب لها:

ـ اركبى.

رمت جسدها بجانبه، تنهدت بارتياح، أطلت فأبصرت جابر يعدو خلفهما ويقذف السيارة بحجر أخطأها، لوحت له ساخرة، هتفت: أشوف وجهك بخير يا خالتى.

قهقه للويجى وهو يردد: خالتك!

هزت رأسها وهى تبتسم.

مضت السيارة بهما، فاطمأنت، دندنت بكلمات أغنية، انتبه لها، سألها وهو يمد يده يقلب ثيابها التى احتوتها الصرة:

- اسمعينا معك.

ارتفع صوتها العذب بالغناء:

- واله يا لجرى.. ريجى... يا ريس الغليون يا لجريجى يا عينى، أمان أمان أمان.

غنى معها وهو يقذف بقطع ثيابها من نافذة السيارة قطعة قطعة، صاحت فيه وهى تضربه بقبضة كفها فى كتفه:

- يا ابن الكلب يا مجنون، إوقف السيارة نزلنى.

قهقه، قال:

- لا تخافى سأشترى لكِ غيرها، هذه الثياب لم تعد تليق بكِ.

عاود التقاط قطعة من ملابسها الداخلية، هزها فى الهواء قبل أن يلقى بها، نظر إليها، انفجرا معاً فى الضحك.

* * *

دخلا القاهرة فى ظهيرة قائظة، مرا ببواب البناية النوبى، كان نائمًا، أخرج لويجى سيجارة ووضعها فى المسافة بين أذن الرجل وعمامته، جلجلت ليلى بالضحك

وهما يركبان المصعد خافت كثيراً والتصقت به، فضمها مقبلاً، هزتها نشوة التقبيل لكنها تصنعت الغضب، أزاحته بكفها.

* * *

انتحت به مديرة المنزل ركناً، وهمست:

ـ ما كل هذا الجمال وهذه الرشاقة؟ هل ستعمل خادمة؟

ـ ماريا كفى عن البلاهة.

ـ من أين أتيت بها؟

ـ هدية من السماء.

ـ لكنها فى حالة زرية.

ـ حسن، أرنى همتك، إدخلى بها الحمام ونظفيها.

ابتسم وهو يقدم لها ماريا، قال:

ـ ستهتم ماريا بكِ، بينما سأغيب ساعة وربما ساعتين.

تشبثت به عيناها، ربت على خدها بكفه، قال:

ـ اطمئنى، ماريا ستعتنى بكِ، إنها فى رقة الملائكة وفى وداعة الشياطين.

خرج، بينما تولت ماريا ملاطفة البنت بلغة عربية متكسرة، وحتى تأنس للمكان أدارت لها أسطوانة على الجرامفون، فجاءها صوت عبد الوهاب عذباً مطامناً.

* * *

فى الليل لم يضع وقته هباء، سقاها حتى أسكرها، ثم وضعها على أول درجات سلم المجد، حررها من تلك الغلالة الرقيقة التى تغشى الروح والجسد عن الانطلاق.

* * *

وفى الصباح وهما جالسان لتناول الإفطار، قلب صحيفة اليوم، قال مبتسماً:

- اليوم رفعت الوصاية عن قاصرين وتوجا ملكين، أنتِ وجلالته.

لم تفهم جيداً ما يعنى، غالب أن يبسط لها الأمر، تصنعت الفهم، فأدرك أن شوط الإعداد سيطول بها.

* * *

سحبت الشمس أذيالها من النيل العجوز، وسقطت فى مهواها خلف القاهرة الأوروبية وسكب الغروب بقاياه عليها، فتثاءب الحارس الرابض أمام فيللا السفير الإيطالى (الكونت مانزولينى) الخبير بشئون مصر، الذى يعرف أهمية القاهرة أكثر من أى شخص آخر كمركز للتجسس، كان سائقه قد انتهى من تجهيز السيارة للخروج، وقف بجانب السيارة فى انتظار السفير، رآه يجىء فى سترة فراك، فأيقن أن الليل سيطول به، انحنى فى أدب سابغ له قبل أن يفتح باب السيارة.

فى الصباح تلقى مانزلينى مهاتفة من ماريا دولورينى تخبره فيها بأمر تلك الفتاة التى جلبها الصبى لويجى (كما كان يحلو لها أن تدعوه)، بالطبع كانت ماريا عيناً للكونت على لويجى، يرقب بها كل سكناته وحركاته، عندما انتهت من مكالمتها معه وضع السماعة فى غضب وهو يفح من بين أسنانه (هذا الماجن الغرير، يعبث بآمالنا العظيمة دون احتساب للعواقب، ما الذى أدراه من تكون تلك الفتاة؟ أو من الذى ألقى بها فى طريقه ليلتقطها فى سذاجة؟ سأعرف كيف اتخلص منها، نعم لا مجال للعب الأطفال هذا).

عندما أصبح أمام باب الشقة ثبت عويناته الذهبية الإطار، دق الجرس، فتحت ماريا له الباب، انحنت انحناءة كبيرة، وتراجعت للخلف وهى تبتسم، ناولها عصاه

الأبنوس وقبعته، كان يألف المكان فلم ينتظر أن تقوده ماريا التى هرولت بجسدها البض الممتلىء خلفه، توقف فى منتصف صالة الشقة، تساءل (أين هى؟)، أشارت الخادم بإصبعها إلى صالة الرقص، التى يفصلها عن بقية الشقة قاطع من الزجاج الملون فتح الباب دون استئذان، كان لويجى منهمكاً فى تعليم ليلى التانجو، فلم ينتبه إلى وجود الكونت، كانت الموسيقى الراقصة تسرى من اسطوانة وضعت على جرامفون أوديون تقدم لويجى خطوة وأمسك بيديى الفتاة فى رفق، قال لها:

ـ المديالونا هى الخطوة المربعة من البوستون.

حملقت فيه الفتاة، وبدا عليها البؤس، فأثارت ضحكه، قال لها:

ـ لا عليكِ يا حبيبتى، سأعلمك الحركة نفسها، انظرى فى الخطوة الأولى يجب أن تؤخرى قدمك اليسرى هكذا، ثم تعودين بقدمك اليمنى إلى الخط نفسه بحيث تجمعين الساقين معاً بسرعة، ثم تكررين الحركة. ربت على خدها، واصل:

ـ دعينى أريكِ كم هى سهلة، انظرى، هكذا.

وهو يخطو بسرعة ورشاقة واضعاً كفًا على كتف، والأخرى تطوق الخصر، وهو يستدير ليلف وجد نفسه أمام الكونت، يقف، ينظر له نظرة فاشية صارمة، فانعقد لسانه، ابتسم بالكاد ابتسامة منطفئة، أعقبتها حيرة، وقف ساكناً ولم ينطق بكلمة، سمع الكونت يقول ساخراً:

ـ برافو لويجى، ما كل هذا الحذق والمهارة.

تلعثم لويجى وهو يقول:

ـ إنها.. إنها تلميذة جديدة يا سيدى.

خطا الكونت نحو الفتاة، وهو يصفر (تلميذة جديدة، هه، مغفل صغير)، أمسك بحمالة فستانها فى تقزز، قال:

ـ وأين وجدتها يا صغيرى؟

أيقن من عبارته أن هذا الأخطبوط يعلم كل شيء، وأن الكذب قد يثير حفيظته أكثر، تمتم:

ـ ستعلم فخامتكم كل شيء بالتفصيل.

أشار إلى ليلى قائلاً:

ـ يمكنك الاستمتاع بفسحة قصيرة الآن.

كان وجهها ينضح غضباً، كادت أن تنشب أظافرها فى رقبة الكونت وهى تزيح يده عن حمالة فستانها، فرماها بنظرة محتقرة.

قال لويجى:

ـ تفضل فخامتكم فى الصالون.

أدار مقبض باب جانبى أفضى بهما إلى الصالون، وأفسح الطريق أمام الكونت وهو يهتف بماريا، جاءت مهرولة، قال فى هدوء لها:

ـ أعدى كأساً من الكونياك لسعادة الكونت.

وقفت ماريا أمام البار تصب الكأس مولية لويجى ظهرها، لكنها كانت تشعر بنظرته النارية تخترقها، قال الكونت:

ـ اسمع، ليس لدى وقت للقصص، فأنا مدعو لحفل هام فى القصر، دعنا نبدأ من النهاية، نفذ ما أقوله دون إبطاء، إطرد هذه الكلبة فوراً وإلا..

قال لويجى متوسلاً:

ـ سيدى الكونت، أرجو أن تفسحوا لى صدركم.

أزاح الكونت نظارته فى غضب، وانطلق يعوى:

ـ اسمعنى أنت جيداً، لولا أن عمك قد أدى خدمات جليلة فى تنظيم فرق القمصان السوداء أثناء حملة الحبشة، ما كنت قابلتك أصلاً، ألا تعلم ما نعمل من أجله

إنما هو استعادة مجد روما المفقود، أنا لا أريد أن تضيع وقتك فى مثل هذه الروايات الرومانسية المكررة السخيفة، (نهض مستنداً على مقبض المقعد، دار فى جوانب المكان، وبعد صمت لم يطل به واصل) فى مثل هذه البلاد صنعت ألف بيجماليون حتى الآن ببنات هن من حثالة الطبقات، ولم يعد أحد يرغب فى المزيد، (خفض صوته كأنه يخشى أن يسمعه أحد) صدقنى يا لويجى الصغير صدقنى، إن النساء وخاصة من انحط أصلها منهن، لا يستحققن منك هذا الجهد الخارق الذى تبذله، فالمرأة يا صغيرى مخلوق غادر يعرف كيف يبتز السذج من أمثالك، ومتى صعد نجمها، تركتك عند أقرب منحنى، لتقف بمشاعر محبطة تعض أصابع الندم، لويجى أنت فتى مملوء بالشباب والحيوية والإخلاص، وهذا ما يجعلنى لا أرضى لك نهاية مأساوية مثل تلك، أقول لك أطرد هذه الفتاة فوراً.

صمت والتقط كأسه وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة وهو يهم بالنهوض، بدا البؤس على وجه لويجى وهو يقول متوسلاً:

ـ سيدى، كل ما أرجوه هو أن تفسحوا لى صدركم قليلاً، وبعدها سأفعل ما ترونه صواباً.

وعلى مضض عاد الكونت للجلوس، قال لويجى:

ـ أرجو أن تكونوا متأكدين بأننى قد وجدت تلك الفتاة فى ظروف يستحيل ترتيبها، فهى من غير المقبول أن تكون دسيسة من أحد، ولست من السذاجة بحيث أبحث عن بيجماليون جديدة، كل ما هنالك أننى قد وجدت فى هذه الفتاة خامة جيدة وعجينة سيسهل علينا تشكيلها فى سبيل قضيتنا.

صمت ليختبر وقع كلامه على الكونت الذى لمعت عيناه عند ذكر قضيتهم، واصل لويجى:

ـ ومتى انتهيت من إعدادها، دفعنا بها إلى أرقى المستويات الاجتماعية وإلى أماكن يصعب علينا الوصول إليها.

قاطعه الكونت:

- مثل.

خفض لويجى طرفه ليخفى فرحته، أيقن أنه لمس وتراً فى نفس الكونت، أجاب:

- مثل غرفة نوم وزير أو سفير وربما ما هو أكثر، وبعض الأبواب لا تفتح إلا أمام جسد المرأة، اسمحوا لى أن أبدى تعجبى، إذ كيف لخبير مثلكم بالنساء يغيب عنه ما فى هذه الفتاة من سحر خاص؟

ارتبك الكونت، ولم يجب، صمت يتأمل الأمر عبر خياله الصافى وطبيعته العملية، فانتهى إلى براعة الفكرة، همهم وهو يرقب السقف، قال:

- قصص حب ملتهبة ممنوع.

قال:

- بالتأكيد يا سيدى.

- نادها، سأعيد النظر فيها،...، انتظر، لا تخبرها من أنا، قل لها أننى خالك.

خرج ثم عاد وبصحبته الفتاة التى بدت متبرمة، تكاد تقفز من عينيها تلك النظرة التى كانت توليها لزوج أمها، لكنها عندما أصبحت فى مواجهة الكونت انحنت فى أدب، وفردت طرف ثوبها كما علمها لويجى على عجل، ابتسم لها الكونت وهو يعيد تثبيت نظارته، قال فى لهجة رسمية:

- أسعدت مساء يا آنسة، تفضلى بالجلوس.

تأملها، فلم يستطع أن ينكر أن جمالاً غير عادى يلف الفتاة بسحر خاص، لكنه قطع بأنها بعد لم تنضج، وأن بها سوقية عالية ومترسخة، سألها متلطفاً:

- ما اسمك؟

- اسمى ليلى إبراهيم أبو العتب.

ـ لا، ليس هذا اسمك.

نظرت إليه متعجبة، واصل:

ـ أنت منذ اليوم ليلى كمال الدين.

صاحت الفتاة فى غضب:

ـ كيف...

لحق لويجى رعونتها، وضع كفه على فمها، وقف الكونت ومشى بخطوات وئيدة، تأمل لوحة زيتية معلقة على الحائط تمثل باليرينا تدور فى فستان أبيض وسط ضباب شفيف فاتح الزرقة، التفت إليهما، قال:

ـ ليلى كمال الدين، نعم، أننى أعرفها جيداً، هى ابنة الشيخ كمال الدين الذى خاض صراعاً أسطورياً ضد الفرنسيين فى جبل الدروز، حتى ليلة اغتياله، ولما اشتد الفرنسيون فى مطاردة أبناء الأسرة هربت ليلى وأمها وجاءت مصر طفلة، وتربت فى مدارس الجالية الإيطالية على يد الراهبات الإيطاليات.

ابتسم للويجى الذى كان ينظر إليه فى إعجاب، قال الكونت وهو ينظر إلى ساعته:

ـ هذه قصة لا بأس بها يا لويجى الصغير، لكن عليك أن تدقق فى تفاصيلها أكثر.

ـ بالطبع، مع التسليم أننى لا أبلغ ما تتمتعون به فخامتكم من خيال وذكاء فى شىء.

أسعده الإطراء، قال:

ـ سأمهلك ستة أشهر لا أكثر، يجب أن تدرك أننا مقبلون على مهام عظام، أريد منك أن تصل بها إلى درجة عالية من النجومية، (واصل بالإيطالية) انتبه لويجى، أنا أسلم معك بجمالها الشرقى الطاغى، لكن الفتاة بها قدر عالى من سوقية تقفز من

عينيها قفزاً، وتتبدى فى حركاتها وطريقة تلفظها، لتصنع إذن بيجماليونك الخاص، بطريقة جديدة ورائعة، ولا يغيب عنك وهذا ما أخشاه، يجب أن لا تخالف قانون الرواية الدائم إياك أن تقع فريسة ما صنعت يداك، وكلما راودك قلبك، تذكر مجد روما ودوتشيها العظيم.

قال لويجى ممتناً:

- لا تخشوا شيئاً فخامتكم، تعلمون أننى ممتلئ حباً وإيماناً.

* * *

تلت ذلك شهور من العمل الشاق الدؤوب، لم يقطعها إلا ما لحظته ماريا أيضًا وهو هيام الفتى بتلك الغجرية، فأفصحت للكونت بذلك، فلما ألمح له، أجابه:

- أهناك سبيل إلى قلب المرأة غير الحب، أننى أُدرك المسافة بين الفنان وهو يصنع تحفته، وبين العاشق متى يهيم.

أجابه الكونت ساخراً:

- إن نجحت سوف أمنحك ميدالية خاصة، أما إذا فشلت فسوف تنال شلوتين فى الأست تماماً، واحد جزاء فشلك والآخر لوقاحتك وثقتك الزائدة.

كان الرقص وسيلته لامتلاكها، فقد أدرك من الوهلة الأولى ما يعتمر به جسدها وما يعتمل فى روحها من رغبة فى الانطلاق، كان يقول لماريا الصامتة الواجمة، أتعلمين يا ماريا أنه ليس هناك أروع من الرقص طريقًا إلى قلب المرأة، أرهق نفسه فى متابعة لهجتها، وأضفى على لسانها بعض العبارات الفرنسية التى تقتضيها أصول اللياقة وخلصها من تشويحات يديها، وخفض من صوت ضحكتها، وانتهت معه إلى تعلم كل الرقصات الحديثة من تانجو وفالس هينريتاسيون، والون ستب، وياسودويل، والفوكس تروت، والاسكوتيش اسبانيول، والفوكس بلوز، أما لمسته الحقيقية فهى تلك

الرقصة التى ابتدعها وأسماها سالومى، أخذ حركاتها من رقص غجر شمال إيطاليا ومزجها بهز الوسط الشرقى، لتصنع تابلوه فريداً تذرى به بكل راقصات مصر حينها، إنها تلك الرقصة التى أتحفت بها الملك ليلة الاحتفال بحصول جودت باشا على الباشوية.

بعدها تولى عين من أعيان الجالية الإيطالية تمويل فيلمها الأول، الذى أخذت بعض مناظره فى اسطبلات جودت الرشيدى، أخذ نجمها فى الصعود، وزينت صورها أغلفة المجلات الفنية بجوار نجمات هوليوود الغرب والشرق، مع قصص عن أصلها الكريم وتاريخ عائلتها الوطنى وتعليمها الراقى.

ثم وقعت الفضيحة، جاء زوج أمها إلى القاهرة فى هيئة مزرية بعد أن لحس الأفيون عقله، وقابل هارون مصراتى المحامى اليهودى المشهور، حاملاً فى كيسه شهادة ميلادها وصورة مائية للعائلة فى أحد الأعياد، قدمهما مع القصة بحذافيرها للمحامى الذى قبل أن يرفع دعوى نفقة على الفنانة المشهورة، التى تركت أمها وأخوتها الصغار يتضورون جوعًا، ورمى مصراتى فى حذق بخبر مقتضب لجريدة من جرائد الفضائح، وجاء الكونت مرة أخرى إلى شقة لويجى فى حالة من الالتياث وهو يضرب كفه المبسوطة بالجريدة ضربات سريعة قبل أن يرمى بها فى وجهه ليقرأ الخبر الذى أحيط بدائرة حمراء، أصيب بحالة من الوجوم، بينما كان الكونت يفح فى فضاء الغرفة، رفع لويجى عينيه إليه متوسلاً، كأنه يسأله عن حل، همس بصوت وان:

ـ ما العمل الآن؟

رد الكونت ساخراً:

ـ تبحث لنا عن فتاة أخرى.

صمت لويجى مأخوذاً بسخرية الكونت، لكن تحدياً نشأ بداخله، رفع رأسه، قال:

- لنفكر بهدوء.

- فكر وحدك فليس لدىّ وقت لإضاعته فى مثل هذه السفاسف.

- أرجو أن تسمعنى فخامتك، فلا يمكن إنكار نجاحى ونجاحها، إنها تقوم بمهمتها بإخلاص.

مرة أخرى آثر الكونت الاستماع، قال لويجى:

- المال يشترى كل شىء، مصراتى وغيره وزوج أم الفتاة، والنسخ التى لم توزع.

- عظيم والنسخ التى وزعت؟

- بسيطة، حملة من الدعاية المكثفة لليلى، وبعدها سيضيع ذلك الخبر فى طوفان من أخبارها.

بأسرع ما يكون التفاوض، قبلا كل شروط مصراتى، صرة كبيرة من المال له وضعف مبلغ النفقة المطلوبة وتكذيب للخبر فى نفس الجريدة، وفى عدد من الجرائد الأخرى. ولم يبق إلا تلك الأعداد التى تناثرت وبقايا الفضيحة.

* * *

باندلاع الحرب تزايد نشاط الطابور الخامس الإيطالى، كما تزايدت الحاجة إلى الترفيه عن جنود حلفاء الاحتلال الذين توافدوا مروراً على القاهرة من نيوزلنديين وأفريكان وهنود، والتقط الكونت الخيط، فمول شراء أكبر ملهى ليلى بعماد الدين باسم ليلى كمال الدين، وأُمدت بجيش خاص من الحلفاء قوامه فتيات من فقراء الأرمن واليونانيين والمصريين لتناهض بهن حلفاء الإنجليز، وعلى مدى شهرين جدد فيهما المكان تجديداً شاملاً، وجهز بأحدث ما يجهز به كباريه فى أوروبا لتنافس هيلين نصيرى فى خلخلة ركب جنود الاحتلال وأعوانهم، وصاحب الافتتاح حملة دعاية واسعة، لضمان جذب القنائص، وبينما تركت لفتياتها الجنود وصغار الضباط

استبقت لنفسها الأكتاف المرصعة بالتاج الملكى الإنجليزى، لتداوى بنفسها جراحها التى أصابها بها الفوهرر وجنده.

وبعد الهزيمة الساحقة التى لقيتها فرنسا وإنجلترا فى دنكرك أمام قوات الفوهرر المتغندر، وسقوط باريس فى أيدى النازى، استمع الدوتشى إلى نداء تلميذه الألمانى النجيب وهو يدعوه إلى الفطيرة الكبيرة، لم يطل به التفكير، قرر أن يشهر بعض حرابه الصدئة الموجودة فى ليبيا، وأعلن الحرب على إنجلترا وحلفائها فى منتصف ليلة ١٠ يونيه ١٩٤٠، بعدها بدقيقة واحدة اندفع الإنجليز عند أقصى الشمال الغربى من الحدود المصرية أرضاً وجواً وبحراً ليوفروا على جرازيانى البائس مغبة تحريك توابيته الميتة.

وواكبت الحكومة المصرية على مضض قرار إعلان الحرب التزاماً بمعاهدة ٣٦، فقطعت العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا، وطُرِد الكونت من مصر، واضطلع نور جودت بمهام جديدة تنفيذاً لأوامر وزير الداخلية، اندفع فى ملاحقة أذيال الطابور الخامس الإيطالى فى مصر، لكنه لم يستطع شيئًا حيال لويجى بيانكا بعد أن أبرز جنسيته المصرية فى وجه رجال السلطة المصرية، وتصاعد إيقاع الحرب، قررت إنجلترا سحب جرازيانى إلى مرسى مطروح حيث تم تلقينه درسًا قاسيًا، انتهى بتحطيم عدة عشرات آلاف من الحراب الإيطالية، بعد أن تكشف للإنجليز مدى بؤس تلك الحراب، واندفعت إنجلترا إلى طبرق لتحتلها، فولول الدوتشى لفوهرره على ضياع ليبيا درة التاج الإيطالى، ولأن الفوهرر لم يستطع أن يدرك الحكمة القائلة بأن عدواً عاقلاً خير من صديق أحمق عندما ورطه فى غزو اليونان من قبل، فقرر إرسال أحد أبرز قادته - أروين روميل - ليحتل المغرب فتونس وصولاً إلى ليبيا، هناك نسج ذلك القائد الحربى العظيم ولا شك أسطورته ومرغ أنف الأسد الإنجليزى فى التراب، احتل طبرق، واندفع ليغزو مصر بأوامر سياسية غبية من الفوهرر نفسه، دون أن يملك روميل من العتاد والرجال ما يكفى لإنجاز تلك المهمة المستحيلة.

مع استمرار القتال بات من الواضح أن الطابور الخامس الإيطالى/ الألمانى فى مصر لم تنكسر شوكته، بل هو يزداد عدة وخبرة كلما مر يوم آخر من الهزائم التى منى بها الإنجليز، فمن أساليب القتال وتوقع روميل المبنى على معلومات دقيقة كانت ترسل إليه من بيانكا الذى استطاع أن يلتقط الرسائل اللاسلكية المرسلة عن طريق السفارة الأمريكية بالقاهرة، وحل شفرتها، أدرك الإنجليز إلى أى مدى هم مخترقون.

لكن الحال ظل كما هو حتى أغسطس ١٩٤١، ثم تغيرت الشفرة فجأة، وفى مطلع ١٩٤٢ وضع روميل الزحف على مصر على قائمة أهداف أجندته، فتقدم جيش البانزر الإفريقى فى أولى خطواته نحو ضفاف النيل، عندها فرك مانزولينى كفيه وأطلق لخياله العنان، رأى نفسه عائداً إلى مصر على ظهر دبابة من دبابات التايجر الألمانية.

أما روميل المحنك فقد كان من الحصافة بحيث أدرك أن دخول قُطر مترامى الأطراف مثل مصر لا يتم دون أن تتوافر له مصادر معلومات على عدة مستويات، بل يجب أن تكون مصادر موثوق بها، ومستوياتها تتدرج من أكبر رأس فى تلك البلاد أى الملك الذى جنّد مفوضيات مصر فى الدول المحايدة للاتصال بممثلى ألمانيا بها، وانقلب الاتصال إلى محادثات بدأها صهر الملك (يوسف ذو الفقار باشا الذى عين سفيراً فى طهران ليتولى أمر تلك المحادثات، والتقى بالهر إينل وزير ألمانيا المفوض، ليبلغه تعاطف الملك مع ألمانيا واحترامه الشديد طبعًا للفوهرر، وتمنياته بتحقيق النصر) أما المستويات الأخرى، فكانت تندرج حسب الأهمية لينهض بها تحت ظل الحماية الملكية سيل من جواسيس وعملاء الألمان الذين تسربوا إلى داخل البلاد، للعمل على الاتصال بقطاعات من المتعاطفين فى الجيش المصرى على رأسها الفريق عزيز المصرى وضابط إشارة مغامر مولود من أب مصرى وأم سودانية.

فى تلك الأيام، أشار عليها لويجى بضرورة تباعدهما مؤقتًا حتى لا تثير حركتهما معاً الشبهات، واستحسنت هى ذلك القرار لأسباب كثيرة، أهمها الملل من

تلك العلاقة التى فقدت أسبابها الحقيقية من الناحية الإنسانية، ولم يعد يبررها سوى خوف احدهما من الآخر.

تلقت يوماً رسالته ملفوفة فى ورق مفضض ومدسوسة فى سلطانية زبادى عشائها، كانت الرسالة تحتوى على ضرورة توفير عوامة فاخرة على النيل، كان يقصد تلك العوامة التى تركها لها السنيور باتشينى عين من أعيان الجالية الإيطالية هدية بعد فيلمها الأول، أُعدت العوامة لاستقبال ضابطى مخابرات ألمانيين، قطعا ألف وخمسمائة ميلاً عبر الصحراء الغربية فى عملية شبه مستحيلة وصولاً لأسيوط وهبوطاً منها إلى القاهرة، فيما عرف باسم عملية كوندور، قام أولهما بتمثيل دور الشاب المصرى الثرى (حسين جعفر) أما الآخر فلعب دور شاب ايرلندى ماجن حمل اسم بيتر موزكاستر، وتحت جنح الظلام دلفا يسبقهما لويجى إلى العوامة، فإذ بهم أمام قطعة من ألف ليلة، وعلى الفور قاما الشابان بتركيب هوائى جهاز اللاسلكى فوق العوامة، وعن طريق ليلى كمال توافرت لهما قناة اتصال برجال حركة المقاومة المصرية عبر ضابط إشارة مصرى.

وعندما أوقعت ليلى بالضابط الإنجليزى الذى أفشى لها تحركات الجيش العاشر من سوريا إلى مصر مصحوباً بشاحنات تحمل مائة ألف لغم لزراعتها بالضبعة والعلمين لم تضع ليلى وقتاً، أخبرت لويجى بذلك، وقام بدوره بإخبار الجاسوسين، ثم أخبرته بما علمت من ضابط نيوزيلندى بأمر انتقال الفرقة النيوزيلندية الثانية تحت قيادة الجنرال فريبرج لدعم جبهة الحلفاء بمرسى مطروح فى مواجهة زحف روميل لمنعه من الوصول إلى العلمين.

هكذا كانت الخيوط تتجمع بسرعة، بفضل ذلك الخبر الصغير الخاص بقضية النفقة وبالاعترافات التى أدلى بها الضابط الإنجليزى، ومن خلال متابعة علاقتها مع لويجى أيقن أن تلك المرأة تلعب دورها الخطير ببراعة.

تأمل وجهها الذى أطل من غلاف مجلة فنية موضوعة أمامه، خالها تبتسم له وحده. صافحته نظرة عينيها، تذكر تلك الليلة التى رقصت فيها بقصرهم فى عين شمس، وطاف بخياله الحلم الذى رآها فيه، وقبل أن يغلق الملف الذى جمع فيه ما توافر له من خيوط عنها، تمهيداً لتسليم نسخة زنكوغرافية منه إلى السفارة الإنجليزية، فكر فى ذلك المصير المؤلم الذى سيلقاه كل ذلك الجمال، وضع القلم الذى بيده على المكتب، فتش فى نفسه، ومن ثقب صغير أطل أمل ما، اتخذ مبرراً وطنياً سرعان ما تدفق منه سيل كراهية حبيس للاحتلال الإنجليزى، عندها أطل وجه أمه الرائق الحازم، باحتشامها وجديتها ومثاليتها، ثم جاءت ليلى كمال الدين رمزاً للأنوثة الدافقة العارمة، ابتسمت له، ثم تلاشت، نهض من جلسته حاملاً لواء وطنياً، وقرر أن يزور ليلى كمال الدين فى ملهاها بشارع عماد الدين.

* * *

ذلك المساء خرج وأحمد صالح متزيين ببزات صيفية متخففة تصلح للسهر، فى السيارة قال أحمد كأنه يحاول استشفاف ما وراء الأمر (كازينو ليلى كمال، لماذا؟) لم يجبه نور. واصل بلهجة ساخرة مستفزة:

- كنت أظنك قد أصبحت أليفًا داجناً بعد زواجك، فما الذى يدفعك الليلة إلى ركوب مراكب المجون والخلاعة يا فتى؟

نظر إليه نور معاتباً، قال:

- أتسخر منى؟

قال وهو يهز رأسه:

- تغيرت بالفعل يا نور.

- نعم، بل تغيرت كثيراً، والفضل يرجع إليك.

ـ لا شكر على واجب.

ـ أنا لم أشكرك، ربما كنت أقصد العكس.

عندما دخلا الملهى، توقفا عند باب صالة واسعة تعج بوجوه من بلدان كثيرة، وبجنود تفوح من أجسادهم رائحة عرق ثقيل وأنفاس تعبق الجو بدخان سجائر من كل الأنواع، تمازجها عطور وخمور من مختلف البلدان، ألم بنور غثيان مفاجئ كاد أن يغلبه، لكنه تماسك وعبر الصدمة الأولى.

اقترب منهما شاب مفتول العضل، يشد قميصه على وسطه ليبرز قوة بنيانه، حياهما بتحية المساء، كان يعتمد على حدسه وخبرته فى تقدير مستويات الزبائن، رآهما زبونين لا بأس بهما، وقطع بانعدام خبرتهما بمثل هذه الأماكن من وقفتهما الحائرة، أفسح لهما طريقاً إلى ترابيزة فى أحد الأركان، ناوله نور بقشيشاً سخياً أدهشه، فلمعت عيناه، تلعثم فى كلامه وهو يقول:

ـ ستقضيان سهرة طيبة، أتركا ذلك لى.

مضى بخطوات مسرعة، غاب دقائق، ثم عاد يقود فتاتين إلى منتصف المسافة قبل أن يعود إلى موقفه بجوار الباب.

اقتربت الفتاتان تتقصعان فى مشية سوقية، وجهاهما مغطيان بطبقات من مساحيق التجميل، وشفاههما مصبوغة بلون أحمر قان، كأنهما أكلتا ذراع واحد من الجند لتوهما، تمايسا فى خلاعة، وما إن جلستا حتى تبادلتا الحديث والضحك مع أحمد صالح بينما بقى نور صامتاً، ترتسم على وجهه علائم القرف والتقزز.

مالت إحداهما على صالح كاشفة عن جل ثدييها، مصمصت وهى تقول:

ـ ماله زعلان من حاجة؟ أم إننا لا نعجب؟

جلجلت بالضحك فتبعتها زميلتها فى آلية، أثارت حنق نور جودت، تلفت يبحث عن النطع الذى بعث بمثل هاتين المخلوقتين إليهما، أبصره يقف قرب الباب، أومأ إليه فجاء مسرعاً، سأله نور:

- متى تبدأ ليلى كمال رقصتها؟

نظر الشاب إلى ساعته، قال:

- على وشك أن تبدأ، عشر دقائق أخرى على الأكثر.

- اسمع، متى انتهت من رقصتها، إخبرها برغبتى أن تأتى لتجلس معنا.

فغر الفتى فمه دهشة، قال:

- لكن المدام صاحبة الصالة، وهى لا تجالس إلا من ترغب فى مجالسته.

غمز رمياً إلى الفتاتين:

- هناك أصناف أخرى من الزجاجات، لو رغبت، لكن كله بثمنه.

غلبت على نور طبيعته العسكرية الجافة، شخط فى الشاب:

- قلت لك إخبرها برغبتى.

تراجع الشاب إلى الخلف، رمى نور بنظرة سريعة وشت بذلته أمام اللهجة الآمرة التى نُطقت بها العبارة، قال:

- سأخبرها برغبتك متى انتهت من الرقص.

أومأ إلى الفتاتين فتبعتاه مستأذنتين.

بعد دقائق أُخفضت إضاءة الصالة، فازداد الجميع هياجاً وضجيجاً، وسرت موسيقى خفيفة، ضاعت وسط صخب البشر وضحكاتهم الممزوجة بالخمر والشهوات الطليقة، مضت دقائق أخرى، أخفضت فيها الإضاءة مرة أخرى، وتكسرت بقايا الضياء على الأجساد والمناضد، وانقطع اللحن الخفيف الذى صاحب الأسمار والأحاديث، وتحرك ستار المسرح لتجتمع ثناياه، ودوزنت الفرقة الموسيقية آلاتها، قبل أن تبعث بأول جملة إلى فضاء الصالة، كأنها تحية أو تمهيد لظهور ليلى كمال الدين الذى أعقبه تصفيق وصفير وهتاف. انحنت تحيى الجمهور مرات، ثم بقيت

ساكنة حتى انحسرت عاصفة التصفيق، اندفع اللحن الراقص المحكم الإعداد يصاحب لفات جسدها السريعة الرشيقة اللينة وهى تدور كالفراشة على المسرح.

خيم الصمت على الصالة، حتى السكارى الهائجين وجموا وحملقوا فى ذلك الجمال الراقص وهو يمن عليهم ببعض أسراره، فخذان من الألماس يرسلان بريقاً تئن من ومضه شهوات الجند الذاهبين إلى الموت ربما فى الصباح، وثديان يشرئبان فتشرئب الأعناق، ويتلاطمان مع الحركة فيحيران العيون السكرى، وبطن مشدودة تتصفها سرة كالدوامة. خطواتها رشيقة متمكنة تمزج الإسبانيول بالشرقى، تلمح سريعًا ولا تفصح، فتتأوه الثيران الهائجة المائجة التى برح بها الشوق الغريزى، فتنهال الشفاه الظمأى على البنات الجالسات تقبيلاً وعضاً.

دارت بسرعة حول نفسها، فأدارت الرءوس معها قبل أن تنتهى رقصتها لتنفجر عاصفة من التصفيق والهتاف، قام بعض الجند ورموا بيريهاتهم لتدور فى الهواء كالأطباق وتسقط عند قدمى ليلى كمال، التى حيت الصالة بالإنحناء وبقبلات يديها التى طيرتها فى الهواء لجمهورها ومحبيها وهى تتراجع لتنسحب وتترك المسرح خالياً إلا من الحسرات.

* * *

بعد أن أبدلت ملابسها، ذهبت إلى غرفة المكتب، دق الشاب القوى البنيان باب الغرفة فى أدب، دعته للدخول، توقف الشاب عندها، نظرت إليه تستخبره عن الأمر، أخبرها بطلب نور جودت، لمعت عيناها دهشة وغضباً، وأبرزت حطة كانت تتعمدها فى إدارة العمل، صفرت فى وجهه:

ـ نعم يا روح أمك، منذ متى وأنا أجالس الزبائن هكذا، هه، انطق.

ارتعد الشاب أمام ثورتها، قال فى حذق:

ـ أنا فقط أخبرك لتفادى المشاكل بالصالة، والأمر متروك لك بالطبع.

نهضت مستفزة، ومشت أمامه تكظم فورة غضب لم تخمد، وفى نيتها تعليم ذلك المتبجح درساً لن ينساه، حتى لو وصل الأمر إلى تعليقه من قدميه وسط الصالة. قبيل الترابيزة بخطوات أشار الشاب إليهما، كان هناك فتاتان أخريان تقفان عند رأسيهما تتبادلان الحديث مع صالح، طرقعت لهما ليلى كمال بأصابعها، فمضتا مبتعدتين، قالت للشاب:

ـ إذهب أنت، إسمع، نادى أبا حديد وكارم خليل، كونوا على مقربة ربما احتجت إليكم.

خطوة أخرى خطتها نحوه، رفع رأسه إليها، اندهشت، تراجع غضبها فجأة، سحبت مقعداً وجلست، تفرست فى وجهه، قالت كأنها تهمس (نور بك جودت، أهلا).

ابتسم، وتراجعت عنجهيته التى اصطنعها ليواجه بها عالم تلك المرأة، قال بنفس بساطتها:

ـ تعرفين اسمى إذن؟

ـ بالطبع، ألم أرقص احتفالاً بتخرجك؟

ـ تنعمين بذاكرة قوية.

ـ هى من أسباب تعاستى.

تعجبت نظرته، سألت:

ـ أليست السعادة ذاكرة ضعيفة؟

رد فى اقتضاب:

ـ ربما كانت كذلك.

قاطعهما أحمد صالح:

ـ أنتما معرفة قديمة، فما بقائى أنا، سأنصرف.

قالت وهى توليه وجهها معتذرة:

ـ آه، بونسوار يا شيرى، أعذرنى، لما أخبرنى أحمد شريف، اغتظت وأعمانى الغضب، فأنا لا أجالس الزبائن، وهو لم يقل لى إن ضيفين عزيزين يريدان مقابلتى.

ـ لا عليك.

قال وهو ينظر إلى نور نظرة ذات مغزى.

ـ ماشى يا هُمام، نلتقى غداً.

نهض، قالت ليلى كمال:

ـ لا يجوز أن تنصرف دون تشريف أو ضيافة.

ـ بل تشرفت بلقائك.

طرقعت بأصابعها فجاء أحمد شريف مسرعاً، قالت:

ـ وصل البك حتى باب سيارته.

* * *

مرة أخرى تبادلا النظرات، فالابتسام، قالت تشير إلى خاتم الزواج فى يده:

ـ تزوجت إذن، من يا ترى صاحبة الحظ السعيد؟

صرح باسم زوجه وصهره، هزت رأسها، قالت:

ـ ونعم النسب والحسب، صهرك صديقنا أيضاً.

كان اسمه نذيراً بالشؤم، أوجست بهواجس خطيرة، لكنها أخفت ما اعتمل بداخلها فى براعة، ليبحث فى قسمات وجهها كما يشاء عن أى معلم يدل على خوف

أو توجس، أذهلته براءتها التى لم ير مثيلها حتى فى وجوه بريئة قابلته من قبل، قالت تدير دفة الحديث لمنطقة تريدها، وهى تتضاحك:

- لكن أنت ما زلت صغيراً، لم التعجل؟

- قضت ظروف الحياة بذلك، (واصل متسائلاً متخابثاً) هل الزواج سيئ؟

- لا يمكننى الحكم على شيء لم أجربه، لكن ما أعرفه من أقوال أصدقاء كثيرين إنه يمثل نهاية للرجل، وبداية للمرأة.

- لديك رصيد كبير من الأقوال المأثورة.

- أحفظ ما اعتقد إنه صواب.

قالت ثم قفزت قفزة واسعة بطريقة مفاجئة:

- لكن لم أسعدتنى بزيارتك الليلة؟

كان يتوقع السؤال، أجابها بثقة، وهو يتحاشى النظر إلى عينيها:

- أسباب كثيرة، بعضها لا يصلح أن نتحدث فيه هنا.

- وبعضها الآخر؟

قال مراوغاً مبتسماً:

- لا يصلح أيضاً للحديث فيه هنا.

ابتسمت لرشاقة عبارته، قالت تغالب حيرتها فى الحديث:

- لم تشرب كأسك، الويسكى لا يعجبك؟

استدارت بجذعها، دون أن تنتظر إجابته، أشارت بأصابعها، جاء نادل، قالت:

- إرفع زجاجة الويسكى، واحضر زجاجة شمبانيا.

قال نور:

- لا داعى، فأنا لا أشرب كثيراً.

- كأس واحد من أجل خاطرى.

- من أجل خاطرك سأشرب.

عاد النادل بزجاجة الشمبانيا، يصحبه آخر حاملاً صينية عليها مزة مخصوصة، وعندما فرقعت زجاجة الشمبانيا، استدارت الرءوس إليهما، قالت مبتسمة معلقة:

- لم يعد هذا يحدث كثيراً منذ اندلاع الحرب، الآن لم تعد الشمبانيا تصل إلى مصر، إننا نقدمها فقط للضيوف الأعزاء.

- هذا مدعاة لسرورى.

بعد أن قرعا كأسيهما، وأفرغاهما، قالت:

- لتقل لى سبباً واحداً لمجيئك لزيارتى.

لم يدر لم تعجل، قفزت من فمه العبارة دون روية:

- إعجابى بك، ورغبتى فى مساعدتك.

صمتت، واهتز الكأس الفارغ فى يدها، فكرت، ثم قالت:

- لتشرفنى غداً بزيارتك بفيلتى بمصر الجديدة، لتتناول العشاء معى، غداً أجازة الكازينو.

قال يمهد لقبوله:

- وهو أيضاً يوم أجازتى الأسبوعية.

نهضت معتذرة بكثرة المشاغل، وهى تؤكد على أنها ستنتظر مجيئه.

* * *

كانت جالسة إلى زينتها، ابتسمت لانعكاس وجهها فى المرآة، بللت شفتيها بطرف لسانها لتوزع الروج وتضفى عليه لمعاناً، وضعت آخر لمساتها الخبيرة، مشت بمرود المكحلة، مدت شرطة العين لتؤكد حورها وتصل به إلى عمق ساحر ماكر يلمح بشهوة خبيثة تخفيها رقة بريئة عذبة.

لما انتهت من أصباغها، اختبرت عقداً من الألماس، لفته حول جيدها فتبادلا البريق، نظرت إلى مرآتها وهى تثبت قرطاً إلى أذنيها، سألتها (ما رأيك؟) ابتسمت لها المرآة، وهمست (ارحمى يا كافرة، الرجل يموت فى يديك)، أشاحت عن مرآتها، لم تكن نامت الليلة الفائتة، أخذتها هواجس كثيرة، رجحت علاقة نور جودت بالأمن العام، وفكرت فى ابتئاس، تلك الحياة التى تحياها لم تزودها إلا بسلاح واحد، هو جمالها الطاغى الذى كانت تدرك سحره، ومن جمالها تفجرت فيها ينابيع قوة وسطوة لا تنتهى، لكنها كانت الوحيدة التى تعلم أن تلك السطوة ما هى إلا صدفة رقيقة يمكن أن تدهسها أرجل كبيرة عمياء، وأنها مجرد ذرة فى بحر رمال عظيم يمكن أيضًا أن تذروها ريح العالم العاصف من حولها، عبارته التى استعادتها مرات أيقنتها أن يلوح بخنجر له حدين، أحدهما القوة والآخر العاطفة المشبوبة التى حاول بسذاجته إخفائها عمن لا يخفى عليه أسرار العواطف منذ أن أصبحت ليلى كمال. جاء ليلعب معها دوراً، هى الآن تدرك أن القوة والضعف فيه متساويان، لتزن حياتها بميزان الذهب، لو وضعت درهماً خطأ لأودت بنفسها، لتظهر له من أسلحة المرأة، ما يقهره، لم لا والفتى يعجبها، وهى ما زالت تذكر نظرة ذلك المراهق الذى تركته ليلة الحفل هائماً.

دقت خادم الباب، ووقفت به، قالت:

- سيدتى، إنه ينتظر.

همست لها:

- دعيه ينتظر.

- مضت ربع ساعة.

- وماله، قليلاً من الانتظار سيفيد عواطفه.

- إنه يروح ويجيئ كبندول الساعة.

قالت:

ـ طيب، سآتي.

* * *

وقف يتأمل اللوحة التي تنتمي إلى تصوير عصر النهضة، رأى فتاة تجلس إلى إرجوحة تتدلى من حبلين شدا إلى غصن كبير لشجرة لها جذع ملتف غليظ، تمتد أغصانها الكثيرة الوارفة فتصنع ظليلة، ترمي بظلها على الفتاة التي مدت في الهواء قدمين تشبهان يمامتين من يمام الجبل، روحها مرحة صاخبة، تتطاير من عينيها شعاعات فرحة، تشتبك مع ابتسامة عذبة، خالها تهمس له (أنت، أنت وحدك)، وهي تتراجع متأرجحة إلى عمق آخر باللوحة، من خلفها حدجه فتى ربعة بنظرة غاضبة، طأطأ رأسه فأبصر فخذيه اللتين تشبهان فخذيي كلب من كلاب الصيد بفصوصها المعضلة التي تبرز من بنطال قصير مشدود يرتفع إلى رجولة منكورة فاحشة، يداه مرسلتان في الهواء بكفين مفتوحتين تنتظران عودتها.

تلقى نفحة من نسيم عطر خفي ظنها من أوهامه التي تكسرت على همسة حانية تلثم حروف الكلمة قبل أن ترسلها:

ـ أتعجبك؟

تماسك قبل أن يلتفت إليها، لكنه ما إن التقت عيناه بعينيها، انفرط تماسكه الهش وتناثر على مدارجها، عصفت به نظراتها القتالة، وأدار عطرها رأسه، كاد يهوى عند سفح جسدها الملفوف بالبراءة، أمسك بالخيط الرفيع الذي يقطع المسافة بينهما، نظر إلى عينيها، فأقسمت له العينان (لا ذنب لي، الذنب ذنب الله وحده). صدقها على التو، وجمع شجاعة قلبه، زلاقة لسانه، وإيمانه العميق بضعفه، مد يده إليها، التقت بكفها، همس:

ـ أهلاً.

ـ أهلاً بك.

قالت وهى تبتسم له، وتأخذ كفه فى يدها ثم تجذبه كما تجذب الجنيات العيال إلى خدرها المملوء بالوعد والسعادة، قالت له:

ـ تعال.

فمشى منوماً مسحوراً، أجلسته، الآن فقط أدرك إجابة لسؤاله الساخر المستخف (كيف للمرأة أن تستدرج هؤلاء الضباط الإنجليز، وهم مضرب الأمثال على قوة الأعصاب وبرودها؟ أهى ابنة الشيطان نفسه؟).

جلست بجانبه، المسافة بينهما من خيال، حاول أن يسحب جسده، ولو ملليمتراً من دائرة جاذبيتها، لكنه لم يستطع ولم يرغب، إنها له وحده، ولا أحد غيره، وللحظة كاد أن يكمل الإجابة، هذا هو سرها العبقرى، كل من وقع تحت تأثيرها....، لا، لا، لم يشأ أن يكمل تلك الإجابة السخيفة، وهذا الاستنتاج المزعوم، أفضل له ألف مرة أن يموت من أن يتساوى مع غيره من الرجال عند نفس مستوى السذاجة، ليكن أكثرهم سذاجة، ما دامت ستشمله بتلك النظرة الطيبة المحبة، وستلفه بأنغام خفية، وستفيض عليه بنورها الأخاذ، سمعها وإن لم يكن متيقناً تماماً تهمس:

ـ أنت إذن نور جودت، الرجل الذى يتردد اسمه كثيراً هذه الأيام؟

بدا طيباً مثل الأرانب البيضاء الوديعة وهو يقول:

ـ أنا هو.

التصقت بجسده وامتزجت نهائياً بروحه، قالت متسائلة مستنكرة:

ـ أنت هو؟!

قاوم أن يذوب، صمد ولم يتزحزح، ضحكت. فضحك، لتتركه الآن حتى لا يموت بين يديها، نهضت وهى تقول:

ـ سأسمعك شيئاً جديداً فريداً، آه، إسمح لى أن أخفض الإضاءة قليلاً، فالضوء القوى يؤذى عينى.

هز رأسه، اكتشف فى هذه اللحظة قانوناً من قوانين الميكانيكا الإلهية، فى كل مليون حالة من البشر يُخلق رجل وتُخلق امرأة عند حد الاكتمال، إذا سلمنا بصحة ذلك، فإنها واحدة من هؤلاء الآلاف المتناثرين من بنى الإنسان فى قارات العالم الست.

ضغطت بإصبعها على سويتش، فغرق المكان كله فى نصف إضاءة، كان لذلك أثر طيب عليه، هدأت نفسه، راقب تكسر الظلال على الستائر، وثنيات ثوبها الشفاف البدائى، يستطيع الآن أن يختلس النظر إلى وجهها الساهم بعد أن عادت إلى الجلوس بجانبه، دارت الأسطوانة دورتين، بعثت بصوت كوشيش البحر، ثم جاءت دقات متتالية لطبول منذرة، تجمعت، ثم تناثرت فى محيط الصمت الذى لفهما، بعدها انساب اللحن انسياباً، أرسل نداءات عجيبة صعدت لهما من أغوار بعيدة وعميقة، تحمل عذابات أرواح محبوسة تضج بالنزوات والشهوات، أطلت بوجهها، رفت وهامت حولهما، ثم غابت فى انحناءات اللحن، وهما، هما نفساهما لم يعدا معًا، تفرقا، كل واحد منهما سافر فى محيطه.

هناك رأى خيولاً جامحة صاهلة تعدو فى سهوب واسعة، على ظهرها أسلافه العظام يضربون بفؤوسهم حوائط قلاع القسطنطينية، يهللون (الله واكبر) والقلاع تتهاوى تحت ضرباتهم الثقيلة.

ثم رأى نفسه محاطاً بأسوار مناع، يدق بواباتها النحاسية بكفيه، تتفرق دقاته أصداء، تُفتح لحظة ومرة واحدة بوابات جنونه، تخرج من روحه وحوش كاسرة تعدو خلفه، يتوقف بأنفاس لاهثة، يمد يده يمتشق سيفه، يغوص بنصله فى صدورها فتنفجر قلوبها، تخرج منها وجوه كثيرة، تطل تفغر أفواهها، تبدى له أنيابها الحادة السنون، تمد أعناقها نحوه، تحاول أن تنهش لحمه، يعدو، يسقط، ينهض ليعدو ويسقط وينهض.

أما هى، فقد أحنت رأسها فوق كتفه، سافرت وارتحلت بعيداً فى طرقات من خيال. رأت مواكب من عرائس يرفلن فى ثياب من ضياء يذوب فيهن، وهن يذبن فيه، فلا تدرك المسافة بينه وبينهن، تراه يرقص بها، ويرقص لها، يغنى لهن، ويغنين معه ويهزجن بالمدائح والأناشيد، وهى فى وسطهن محمولة على محفة يرفعها عبدان جسداهما مقدودان من حجر وبرونز، يضجان بعضلات فى قوة الفولاذ، أذرعهما مفتولة كجذوع أشجار عتيقة ملتفة، عاريان كما ولدتهما أماهما إلا من ورقتى توت لا تستر عورتيهما تماماً، فأطلت من جنب حشفتان تشبهان رأسى وحش بدائى، كانت هى أيضاً عارية، مدت كفها وفكت جديلتها، فانفرط شعرها نهراً من حلكة دامسة، أخذت منه واحتفنت وفرقته على ثديين مكورين كالرمان.

لكنها أفاقت وهو لم يفق، نهضت عنه، راحت تدور مع اللحن كالفراشة فى محيط الغرفة، رقصت له وحده وتمايست بكتفيها، رمت بشعرها أمامه، تثنت، وغنت بصوت متأود كلمات معذبة لليلى العفيفة

ليت للبراق عيناً فترى   ما أقاسى من بلاء وعنا

قيدونى غللونى وافعلوا   كل ما شئتم جميعاً من بلا.

صعدت به درجة درجة سلماً فرشته بالورد والند وهو يصعد مسحوراً مبهوراً يخطو من سماء إلى سماء.

ثم لفت الإسطوانة آخر اللفات، وتصاعد اللحن إلى ذروة غير مسبوقة همست الروح معها قبل أن تهوى فى قسوة مرة واحدة، لتوقف اللحن، ارتمت بجانبه، أنفاسها مبهورة وعيناها ترسلان نشوة جذلة ممسوسة بالفرح، زحفت ككلبة ذليلة نحوه، تمسحت به، امتلأ عزة وقوة وهو فى حضيض من الضعف المهين، تركها ترمى برأسها على كتفه، اشرأبت بعنقها، مست بشفتيها شفتيه، فانساب رحيق حلو إلى فمه، راحا يتلاثمان لثمات رقيقة سريعة، حتى ذابت وذاب معها فى قبلة طويلة شبقة بربرية ملتاثة كأن كل منهما يفتش فيها عن روح الاخر ليسرق لهيبها المقدس.

لم يفقا إلا على رنين جرس الهاتف يدق فى إلحاح، نهضت، لملمت أطرافها، سمعها تقول:

ـ من؟

ـ ....

ـ لويجى، أهلاً.

ـ .....

ـ هذه الليلة؟ لا، لا أستطيع المجيئ.

ـ ....

ـ نعم معى ضيف.

ـ ...

لا سأتحدث إليك فى الصباح، أوريفوار شيرى.

وضعت السماعة، وعادت إلى الجلوس، لكنها ابتعدت عنه قليلاً، كان يرتب أشياء كثيرة تبعثرت فيه، هدأ فجأة وأفاق، سألها:

ـ أحقاً ما يشاع عن إنك تنتمين إلى اسرة تركية عريقة، جاءت إلى مصر بعد انهيار الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب الأولى؟

نظرت إليه طويلاً قبل أن تجيبه:

ـ لا تسخر منى، أنت تعرف من أنا جيداً.

سقطت إجابتها ثقيلة عليه وقاطعة، صمت، أعادت إضاءة المكان إلى ما كانت عليه، كأنه يحيى حلماً غريباً، أعشاه الضوء، بدا كالطفل عندما طرفت عيناه مراراً، ضحكت وهى تقول له:

ـ لنكن صرحاء.

أفضت بهما المصارحة إلى لقاءين تاليين، أسفرا عن تأكد عاطفة مشبوبة وحقيقية، تراقصت ألسنة لهبها فى قلبيهما. عاطفة أصبح قوامها إخلاص تام. كان إخلاصه إخلاصاً للنموذج الأنثوى الذى حلم به ليزيح ثقل مشيرة عن روحه، وأفرط فى إخلاصه ليصل به إلى ما فى عمق الإيمان من عماء.

أما هى فقد كان إخلاصها إخلاصاً للرجل الذى تقطع به مسافة من الزمن، وفى نفسها ما يسوغ حبها وينقيه من كل شائبة، حلم فتى واعد ينتمى إلى عائلة إقطاعية عريقة، الحلم الشرقى القديم والدائم بالأمير الذى أحب بنت الصياد الفقير العدمان. والأكثر إنها أحست بصدق عاطفته، وهو أمر لم تعرفه من قبل، أمر يحمل دهشة المرة الأولى وطزاجتها، فى المسافة بين اللقائين كانت تتربص بالهاتف عله ينطق ويجيؤها بصوته، فلما التقيا مرة أخرى كان كل منهما يفيض بلا موراية بدفق عواطفه، وكما أخلصت من قبل لأهداف لويجى، أفضت بها قوة الإخلاص هذه المرة إلى الاعتراف الكامل بين يديه بهدوء وثقة وبلا خوف من المصير، اعترفت له بإخفاء عميلى النازى فى العوامة النيلية، وعليه فقط أن يغوص شبرين فى الوحل من أجل إنقاذ محبوبته، سمعته يهمس مرات باسم «لويجى» وهو يهز رأسه.

لم يكن هناك وقت ليُضيع، تم ترتيب الأمر، فقبض على العميلين الألمانيين وضابط الإشارة المصرى وهو يحاول أن يصلح لهما جهاز اللاسلكى، كُبس لويجى فى شقته بسليمان باشا، فتهاوى بين رجال الأمن معترفاً، لكنه لم يدرك من أين جاءته الطعنة، فلم ينطق أثناء التحقيق باسم ليلى كمال الدين حتى لا تنفرط حبات عقد عملاء المحور، لكنه بعد انتهاء محاكمته التى قضت بحبسه حبساً مؤبداً، فى زنزانته الانفرادية، لم يحتج إلى كثير من البداهة وهو يرقب صورة ليلى كمال الدين فى إحدى المجلات الفنية المعنية بالفضائح، وهى تتبادل نخباً مع نور جودت، أدرك الحقيقة، لكن صرخاته باسم ليلى كمال الدين، اندفعت من كوة الزنزانة الضيقة وتبددت فى الهواء، بينما ظلت الجدران من حوله تردد له اسمها.

في الظلمــة رأى طيف الكونت وســمع كلمــاته بوضــوح (صــدقنى يا لويجى الصغير، المرأة متى انحط أصلها، ليست سوى مخلوق غادر، يعرف كيف يبتز السذج من أمثالك، ومتى صعد نجمها، تركتك عند أول منحنى، لتقف بمشاعر محبطة، تعض أصابع الندم، أنا لا أرضى لك مثل هذه النهاية المأساوية).

* * *

جلجلت بالضحك وهى تحصى آثار أسنانها فى كتفيه وتمنعه من ارتداء النصف الآخر لقميصه الذى أمسكت بكمه، وهى تلح عليه لتعرف أين سيغيب ثلاثة أيام عنها، وهو يدور متخابثاً مراوغاً، قال (مأمورية)، قالت:

- أتخشى أن تخبرنى؟ لم يعد هناك خطر منى، منذ عرفتك نسيت كل شىء ما عدا اسمى.

- لكنى أفضل أن لا أتكلم عن عملى، أرجوك لا تلحى على.

قالت فى دلال وغنج:

- ما يريحك يريحنى.

* * *

فى منتصف نوفمبر ١٩٤٢، كان مونتجمرى قد انتهى من تهشيم الأسنان الأمامية لثعلب النازى، ولم يفقد جيش البانزر فقط مقبض باب الإسكندرية الذى صرح روميل منذ ستة أسابيع بأنه ممسك به، لكنه فقد الضبط والربط وهو يقود انسحاباً مأساوياً عبر صحراء لا تعرف الرحمة، ومن خلفهم مونتجمرى بمائتى دبابة ترسل صفير قذائفها فوق رءوسهم، فتشتت فلولهم.

هكذا وردت إشارة إلى الأمن العام بأن الشرطة المصرية بواحة سيوة قد قبضت على اثنين من الألمان، تلقى أمر المأمورية فى صمت وهدوء كعادته، قيل له

(لم يعد الآن من خطر، لقد انحسر المد النازى، والتقارير تفيد بأن فلول جيش روميل وصلت إلى الحدود الليبية، وأن عليه استلام الأسيرين ثم تسليمهما إلى مراكز القيادات، حيث تركت مثل هذه المهام الصغيرة للمصريين. زود بخطاب موصى عليه من السفارة البريطانية مكنته من المرور وسط أشلاء مدرعات الجيشين وحطام البشر، وكل تلك الأشياء الملقاة فى الصحراء على جنوبها كأنها أسماك ميتة رمتها أمواج بحر الرمال العظيم على شواطئ أفريقية لتلفحها شمس كافرة.

من نقطة الشرطة المنعزلة، هناك فى غرفة من الصاج المضلع احتُجز الرجلان، أحدهما هو الرائد العجوز بروكهارت من كتيبة حرس المؤخرة، كان يقف صامتًا بعينين دامعتين من جراء حساسية أصابته بها رمال الصحراء، أما الآخر فهو الطبيب بوكنجر يقف شاحبًا مذهولاً بقامته الفارهة النحيلة، نظرته زائغة، ولحيته كثة مسترسلة فى غير انتظام وجسده كله يرتعد ارتعادات عصبية.

قدم نور جودت نفسه إلى قائد النقطة، فقام عن مقعده وأدى له التحية وترك له مكتبه، ذهب بنفسه واقتاد الرجلين فى غلظة وهو يدفعهما بقبضة يده، قال نور:

ـ لا، لا، لا داعى للعنف.

نظر إليه الملازم متعجباً، قال له:

ـ إنهما إلمان، الألمان غير الإيطاليين، إنهم شياطين، إحذرهما مائة مرة

– يا سيدى اليوزباشى.

ـ إنهما أسيران الآن.

وقع فى دفتر أحوال النقطة على مذكرة استلامهما، شد أساورهما الحديدية إلى رسغيى الرجلين اللذين كانا معه فى المأمورية، وركبوا السيارة الجيب التى مضت بهما صوب القاهرة.

* * *

في أول الأمر لم تكن كفه تفارق مقبض الطبنجة الميرى، لكنه أنس لهما، بديا له وديعين، لا يعرف لماذا تعاطف مع الطبيب، ربما لأن وجهه ينضح ببراءة طفل صغير فقد أمه. ابتسم له ومد علبة سجائره، أخذ بوكنجر سيجارة، امتص دخانها في التذاذ، كان ارتجافه العصبى قد هدأ، قال له بإنجليزية متقنة (أشكرك)، فأدرك أنه يريد أن يتحدث كسراً لملل الطريق.

سأله نور جودت:

- أأنت بخير؟

- نعم ولكنى منهك، لقد مرت على أربعة أيام بلا ماء ولا زاد قبل أن تلتقطنى دورية الشرطة المصرية، لقد كنت أسير في حقل ألغام دون أن أدرى وهم يلوحون لى من بعيد، حتى وصلت إليهم، رأيت ما في عيونهم من رعب، وتعجبت له، أفهمونى بأننى كنت أسير بين الألغام وكلما تذكرت ذلك أمسكتنى تلك الرجفة العصبية، حاولت أن أفهمهم أن هناك خطأ، أننى حقاً ألمانى لكننى من قوات الصليب الأحمر.

- هل معك ما يثبت ذلك؟

- لا للأسف، لقد كنا ثلاثة، تركنا خيمتنا تحت وطأة القصف الذى خفنا أن يطولنا.

- والاثنان الآخران، أين هما؟

- أحدنا مات عطشاً، كان مريضاً وضعيفاً فلم يتحمل، والآخر اختلف معى، ثم أصابته لوثة، ظل بعدها يجرى في الصحراء ولم استطع متابعته.

- سأفعل ما في جهدى للتحقق من صدق روايتك متى وصلنا القاهرة.

- أشكرك.

انقطع خيط الحديث، كانا منهكين حقاً، رآهما يهتزان تحت ثقل نعاس وخيم، حركتهما أوحت للجنديين المشدودين إلى سورايهما الحديدين بالنوم، وهو نفسه

استغفله النوم، فلم يدر إلا طبنجته تغوص بفوهتها فى جنب أحد الجنديين ورجل الصليب الأحمر، يأمره:

ـ المفتاح.

أدرك من نظرته أنه لا يعبث، أخرج المفاتيح، وفض السوارين الحديد، قال الألمانى للسائق بعد أن تحرر من قيده:

ـ قف.

نظر السائق إلى نور، فهز له رأسه، توقفت السيارة، أمرهم جميعًا بالنزول، فنزلوا، أشار بيده أن يخلعواستراتهم وبنطلوناتهم.

وهم وقوف بملابسهم الداخلية، قال الألمانى:

ـ لا أعرف كيف أشكرك أيها الكابتن، لكننى سأعمل جاهداً على أن تحصل على وسام الصليب المعقوف لما أديته لنا من خدمة. والآن استدر وامض فى الاتجاه المعاكس.

على مبعدة كيلوين توقف مملوأ غيظاً وحنقًا، رأى السيارة تمضى مسرعة إلى قلب الصحراء، وقبل أن تغيب عن عيونهم، دوى انفجار هائل، رأوها تتطاير فى الهواء مزقاً بعد أن دخلت فى حقل ألغام إنجليزى.

* * *

أقبل صباح اليوم التالى عليهم. جائعًا يرتجف من البرد، وهو يمضى بهم بين آثار وحطام المعارك الطاحنة التى دارت بين وحشين من وحوش ما قبل التاريخ، فتناثرت المركبات فى رمال الصحراء، بحثوا فى حطامها المحترق عن شىء يؤكل فلم يجدوا، كان اليأس قد بدأ يخاطب أرواحهم، فامتقعت وجههم وغامت عيونهم، وبين النقط السوداء والصفراء التى تبدو لعين البائس، رأى مركبة قادمة، هرولوا نحوها وهم يلوحون. قص وهو فى غاية الخزى للضابط الإنجليزى ما حدث، ظل

الضابط صامتاً هادئاً بينما تكتم الجند الإنجليز الضحك وهم يتغامزون، قدم له أحد الجنود سترة، ما إن لبسها حتى فوجئ بثلاث من أغطية علب المياه الغازية مثبتة على الجيب الأيسر، تدرج وجهه بحمرة الخجل والحنق معاً، بينما قال الجندى:

ـ إنه وسام سبيروسباتس من الدرجة الثالثة.

فانفجر الجند فى الضحك.

* * *

ما إن أعيد إلى القاهرة مجللاً بخزى داخلى عميق، حتى وصل تقرير من رئاسة مراكز القيادات إلى الأمن العام ليوضع على مكتب حميه الذى قرأ التقرير بصوت مرتفع، وللمرة الثانية كان عليه أن يتدخل لمنع محاكمته محاكمة عسكرية، مستفيداً من شهادة الجنديين بنسف العربة الجيب بالأسيرين، وبلوحة أرقامها المعدنية المحترقة التى قذفها الانفجار مئات الأمتار فالتقطها أحد الجنديين، ثم من نشوة الإنجليز العارمة بأول انتصار ضخم لهم على النازية مما هيأ لحالة من التسامح وبخاصة لما أداه لهم نور من خدمات فى قضية كوندور، فأغلق ملف القضية فى سرية شديدة، كهنت السيارة وتم اعتبارها ضمن خسائر الحرب، وقام الإنجليز فى نفحة كرم بتعويض الجانب المصرى عنها.

فى نفس اليوم سخرت منه مشيرة، وهو جالس صامت ينظر إليها، وهى تذكره بأيادى أبيها البيضاء عليهما، ظل يكظم غيظه، ثم نهض عنها، وفى نفسه أن يرد الدين بطريقة خاصة جداً.

* * *

فى تلك الليلة شرب كما لم يشرب من قبل، عجبت ليلى كمال الدين وهى تصب له الكأس، حاولت أن تعرف ما حدث، لكنه أمسك لسانه جيداً، رفع رأسه، نظر بعينين محموتين إليها، قال:

ـ لنتزوج يا ليلى.

نظرت له تحاول أن تصل إلى ما فى أعماقه من صدق، قالت:

ـ أنت سكران.

ـ بالعكس، أنا فى أشد حالات ذهنى صفاء وإفاقة.

ـ مثلى، لا تطمع فى هذا.

ـ مثلك يجب أن توضع فى مكانها الصحيح، ولم لا، أنا أحبك قطعاً ويقيناً وأنت تقولين إنك تحبيننى.

ـ أنا لا أقول، بل أعيش حبى لك، إنه أكثر من عاطفة تمور بها روحى، هو معنى حياتى، بحبى لك قتلت كل ماض كان ينغص على أيامى، أنت لى أخًا وصديقًا وصفيًا وخليلاً وعشيقاً، لكنى نجمة تطاردها كاميرات مصورى الصحف، وتلاحق أخبارها المجلات، سيبدو الأمر كالفضيحة بالنسبة لك، وهذا ما أخشاه.

ـ ليس هناك ما أخشاه.

ـ هذه حمية الخمر، أنا أعرفها جيداً، أقل لك، دع هذا الأمر للغد، فكر فيه بروية، وأنا لا أمنع نفسى عنك، لكن لتقل لى هذا بعقلك لا بعاطفتك.

بعد أيام، وهو فى كامل إفاقته، تزوجها سراً، قطع أول أسبوع من الشهد المسروق صراخ مولود ثان وضعته مشيرة، لم ينقطع صراخه، فقد ولد عليلاً من جراء إسراف أمه فى تعاطى الخمر أثناء حملها، فبدد شهر عسل أبيه باقتدار.

(٦)

عود على بدء

قادم جديد

كان سيد كبير السواس مرتحلاً فى ساعة هناء، يمزج الكسل بالنعاس، بعد أن واقع رئيسة – زوجه الأخير – قبلها كانت له زوجتان رحلا عن الدنيا واحدة بعد واحدة.

قالت له:

ـ الماء ساخن يا أبو أحمد، قم لتستحم.

نهض متثاقلاً، صب الماء الفاتر على جسده، ودلك أعضاءه بليفة من قلب النخل، لما انتهى عاد ليسلم جسده إلى السرير، جمع أطراف الغطاء على جسده، داعبته طيوف كثيرة، حتى ثقل جفناه، فغط فى نوم عميق.

داهم ضوء النهار المنسل من خصاص النافذة عينيه، استيقظ، هز رأسه، وفرك عينيه. اشتم رائحة احتراق أوراق الشجر الذابلة والغصون الصغيرة الجافة، نهض عن فراشه، مشى ووقف على باب الحجرة، سمع هسيس النار، رأى رئيسة تحمى الفرن وتقرص أرغفة الخبز الشمسى، وتعمل سكينها فى أطراف الأرغفة التى اختمرت، حتى لا تتكور وتسيح من شدة الاختمار.

فى وقفته تلك رأى قرص الشمس يرتفع فى الأفق الشرقى، يرسل الأشعة والدفء إلى حياة الإسطبل، راقب السواس يخرجون من الميس بعد أن انتهوا من إفطارهم، الآن يسحب بعضهم أفراسه من البوكسات، ليمضوا بها إلى المضمار الخلفى كى تتريض، بينما بعض الصبية يعمل فى تنظيف الحظائر وتهويتها.

عاد ينظر إلى رئيسة، رآها تنحنى لتجمع الوقيد، ثدياها المتدليان يكادان أن يقفزا من تحت سفرة جلبابها الواسع، هتف بها ساخراً:

ـ يا حلوة لمى الغلة.

انتفضت مرتبكة، لكنها انتبهت لصوته، قالت:

ـ استحِ يا رجل.

قهقه، فابتسمت له بسمة توجز أفعال الليل وأسرار، ارتد إلى الغرفة، عاد يمسك منشفة خشنة، اتجه إلى الطلمبة، مشت إليه رئيسة، أخذت تدفع يد الطلمبة أمامًا وخلفاً، فاندفع الماء نازلاً فوق رأسه.

التهم قطعتى فايش بعد غمسهما فى الشاى، قاوم الاستسلام للكسل، همس:

ـ أقوم أشوف حالى أحسن.

حياها وهو يمضى عنها.

* * *

انتبهت رئيسة إلى صوت البطة وهى تقأقئ، رأت ذكر البط يحاول أن ينفذ إليها من السدة الموضوعة أمام مرقدها كى ينالها، أمسكت بشمروخ النخل، هرولت وهى تسب الذكر، هوشت عليه حتى طردته بعيداً، فمضى ينفخ ويفح، ردت البطة المذعورة إلى أفراخها، قالت تطيب خاطرها:

ـ زعلانة يا أختى، بس يكبر ولدك وأنا أجند له ولد المحروق.

دارت ببصرها فى أرجاء المكان، تأملت عزها المقيم، أصابتهاغبطة، فغنت:

ـ يا حلوة لمى الغلة، ما أقدرش ألم الغلة.

كان سياج من السلك الشائك يفصل عالمها عن عالم القصر والإسطبل وغرف نوم الساسة. من شهور قلائل جاء بها سيد من بلدتها بالصعيد، حين سافر ليعالج عرق النسا والروماتزم الذى دب فى مفاصله، هناك وضعوا له ميسماً محمياً، كووا به

عـدة مواضـع من عـرقوب القـدم إلى أعلى الردف، اعـتـصـره الألم وهو يعض على إصبعه بأسنانه حتى لا يصرخ، بقى أسبوعين يتقلب على فراشه ويئن من الألم حتى أبل من الكى، عندها حفروا له حفرة بطول قامتـه فى رمال ساخنة، أنزلوه فيـها، وردموا عليه حتى عنقه، بعدها خرج من مدفنه يتقافز كالشيطان.

وهو يمشى مع قريب له، وقعت عيناه على فتاة سمراء مليحـة، جرت مثل فرخ دجاج حين رأته ينظر لها متأملاً، قال هامساً:

ـ أبّاه، أنا كلمتك.

نعم بالطعام، فتكوع على دكة مفروشة عليها لبادة من الصوف، جاءتهما صينية الشاى الغامق الثقيل من كوة الحائط، احتسياه فى حسوات طويلة ممطوطة لها صوت مسموع، ثم عبا من أنفاس الجوزة عبًا، تطلع حوله كأن صباه رد إليه، انتبه حين ربت قريبه على كتفه، قال له فى حكمة:

ـ تعرف، أقل لك على حاجة تطلع الروماتزم بصحيح.

نظر إليه متسائلاً، لكن الرجل لم يفصح إلا بقهقهة وهو يلكزه لكزاً خفيفاً، قال:

ـ يا عجوز.

هكذا، تزوجها ليتخلص من الروماتزم وضجيج الجسد وبرد الوحدة ووحشة الليل الملمة برجل عجوز يحمل عظامًا قاسية لم يستطع الزمن بعد منها منالاً، حملها معه إلى قصر جودت الرشيدى.

بمضى الوقت عرفت أنه رغم الأعوام الثلاثين التى تفصل بينهما رجلاً واعراً، عاملها أول الأمر كطفلة، ولما ثارت عليه، أدبها حتى أصبحت طيعة كالخيل المسيس المروض، لكنها لم تستكن، لجأت إلى ضعفها، فملكته وراضته بدورها، فأصبح أكثر ليناً معها تركها تستمتع ببعض سطوة ودلال عليه، أحضر لها ما طلبت (منديل من مناديل بنات البندر، وحق حسن يوسف).

في الشهرين الفائتين نعم بها ونعمت به كعريسين، بالأمس وهو يجلس إلى العشاء، تنهد، قال:

- أيام الهنا راحت.

التفتت إليه، سألت:

- خير؟

أجابها:

- الباشا راجع خلاص بعد يومين.

كان الباشا قد سافر إلى إسطنبول ليزور أقاربه، عادت رئيسة تسأل:

- كيف عرفت؟

- اليوم جاء حصان ما رأيت في حياتي مثله.

كان قطار البضائع قد حمل إلى محطة عين شمس حصانًا أسود إلا من غرة بيضاء تضيئ جبينه، وكان على سيد أن ينتظر مجيئه مع سائسين أخرين، ظلوا ينتظرون بجوار السيارة البوكس لساعات.

* * *

تذكرت رئيسة ذلك، تراجعت غبطتها وكفت عن الغناء، الباشا قادم بعد غد. انتهت حياة الراحة والدعة، وستظل تنتظر حتى تعشى الدنيا ليعود سيد ويأنس ليلها.

على ظهر السفينة التي أقلته إلى الإسكندرية، وقف جودت باشا ممسكاً أفريزها بقبضتيه، تذكر كم تعب من أجل الحصول على ذلك الجواد الذي شحنه في قطار البضائع، لم يكن في حسبانه وهو يتمشى في تلك المنطقة من أنقرة التي تكثر فيها اسطبلات الخيل – أن يرى مثل تلك التحفة التي سلبت لبه، توقف مشدوهاً في مكانه حين رأى شهاب،

فسد حاله وانتفخت أوداجه ونفخ فى الهواء. تقدم نحوه، وهو يشير إلى الفتى الذى يصحب الجواد بكفه ليوقفه، رآه يوقع بحوافر قوية على الأرض المرصوفة بأحجار مربعة من البازلت الأسود، أرسل زفرات حارة فى الهواء، فذاب قلبه، كان عائداً من مسيرته اليومية بلا سرج والزبد الأبيض يكسو فمه، دار حوله يتفحصه وتلمسه، يدقق فى أجزائه البديعة التكوين، مخلوق صنعته يد القدير بدقة متناهية، لا تشوبه نقيصة واحدة، ربت بكف حانية على جنب رقبته، تساءل (أتمثالاً من رخام أسود يفور بالدفء والحياة ما أرى؟) مشى بكفه على صدره العريض، راقب القوائم الرشيقة، صعد بعينيه إلى رقبته السارحة، حمحمت له روح مرحة، فهوى آخر جدار فى قلعته، لمعت فى عينيه شهوة الامتلاك. سأل قريبه عن صاحب ذلك الجواد، فلما أسر له بالإسم ابتأس وابتعد عنه الأمل، لكن إصراراً نما بداخله، سآخذ هذا الجواد بأى ثمن. وفى سبيل ذلك تحمل سخرية صاحبه ورذالته ومماطلته، وأمسك عن نفسه غضبتها، وحاول أن يخفى لهفته ما استطاع، وظل يغرى الرجل بالمال، حتى حاز الجواد.

طيلة أيام سفره على ظهر السفينة عائداً إلى مصر ما انقطع عن التفكير فى جواده، ولم تفارقه آماله الكبيرة التى عقدها وحلها وأرسلها، وهو يحلم بتهجين سلالة فاخرة من ذلك الذكر.

* * *

- حمداً لله على العودة والسلامة يا سعادة الباشا.

صاح السيد هادراً بصوت أفعمه بقوة الولاء والشوق، ابتسم الباشا فى رضا وهز رأسه له. أدار عينيه فى أنحاء المكان وهو ما يزال جالساً فى العربة الحنطور، تناول طربوشه الأحمر القانى وعصاه الأبنوس التى أمسك بمقبضها جيداً.

هرولت فتاة سمراء إلى سمية هانم، قالت:

- يا هانم، سيدى الباشا رجع بالسلامة.

لم تعر سمية هانم قولة الخادم انتباهاً، كانت واقفة فى آخر الغرفة عند النافذة تدندن لذلك الصباح الوادع الذى يملأ الغرفة بضوء الشمس، مشت بكفها وأمسكت جديلة شعرها المتدلية على كتفها، كانت ترقب من بعيد زوجة السيد وهى جالسة إلى أفراخها، تسلل إليها فرح خفى فابتسمت لذلك الوجود الرائق الذى يحيط بها مرة أخرى، قالت الخادم بصوت عال:

ـ يا هانم سعادة الباشا رجع لتوه.

التفتت إليها، شخطت فيها بغضب:

ـ طيب، عرفت خلاص.

تفزعت الخادمة واستدارت متراجعة.

مضت إلى زينتها، وقفت أمام مرآتها، لكنها لم تجد فى نفسها رغبة فى مراجعة أعمالها، فقط ضمخت جيدها وإبطيها بعطر زهر الليمون وهى تترنم بأغنية قديمة.

* * *

هبط الباشا من العربة الحنطور، وقف بقامته المديدة، ووجهه الأبيض الذى تهدلت وجنتاه قليلاً، شمخ بأنفه إلى واجهة البناء، تفحصه، بحث عن أى جزء قد يكون سقط من الملاط، لم يجد شيئًا، هز رأسه مطمئنًا نفسه، دق الأرض بعصاه، تقدم مجتازاً الممر، هناك كان الخدم يتراصون على الجانبين فى ثياب نظيفة يتلوهم ساسة الخيل وصبيانهم، تفوح منهم رائحة عرقهم ممتزجة برائحة الخيل، امتلأ صدر الباشا بالهواء المشبع برائحة الخصوبة، مر بين صفى الخدم، وسيد يسعى خلفه، توقف عند وجه جديد لم يألفه، استدار، سأل:

ـ من هذا الولد الجديد يا سيد؟

فرك سيد كفيه، قال:

ـ ولد غلبان يا سعادة الباشا، يريد يأكل عيش.

رد الباشا فى غضب:

ـ يا حمار، أسألك من هو؟ لا ماذا يريد أن يأكل.

ـ اسمه على يا باشا، هو ابن راضى عامل الدريسة.

ردد الباشا الاسم، مط شفتيه، نظر إلى الشاب الذى طأطأ رأسه فى ذلة واستكانة. دار الباشا حوله وتفحصه، قال وهو يدق كتف سيد بعصاه:

ـ ممنوع أن يضع هذا الكيس الثقيل جثته على ظهر حصان، مفهوم.

ـ مفهوم يا سعادة الباشا.

مشى الباشا خطوات أخرى قبل أن يقف عند إبراهيم هوارى، قال سائلاً سيد:

ـ وهذا المخلوق؟

رد سيد بسرعة:

ـ لا إبراهيم هوارى رجل عال العال يا باشا.

هز الباشا رأسه، ثم سأل كأنه تذكر فجأة:

ـ وماذا عن شهاب، أهو بخير؟

ردد سيد متسائلاً:

ـ شهاب، شهاب من؟

ـ الجواد الذى أرسلته يا بغل.

ـ آه، إنه بخير يا باشا، بخير، كل خير والله.

ـ طيب هات الكارتا، رح.

أحضر أحد الصبيان الكارتا، فاعتلى الباشا مقعدها وحده، صاح وهو يمسك باللجام فى السيسين اللذين يجرانها، فانطلقا به وسيد يهرول خلفهم.

* * *

غاب الباشا بعض ساعة، ملأ عينيه من الجواد الجديد، أوصى سيد آمراً (إياك سايس يحط جثته عليه، أنا فقط الذى سامتطيه، مفهوم)، هز سيد رأسه، قال:

- مفهوم معاليك نخليه جنيبة لسعادتك، ومن باكر نخلّى إبراهيم هوارى تحت رجليه.

- إياك يركبه.

- لا، إبراهيم جعلته للنظافة والعمل.

- تمام.

ركب قافلاً إلى القصر، فى نفس الوقت كانت سمية هانم تدور فى غرفتها يتملكها شعور بالمهانة جعل الدماء تصعد غاضبة إلى وجهها، غمغمت (أدب سيز).

كان الخدم ما يزالوا وقوفاً فى أماكنهم، بينما انصرف السواس إلى أعمالهم، تحامل مراد أفندى على سنوات عمره ووقف عند أعلى درجات السلم المفضى إلى القصر يبتسم فى حنو لمرأى الباشا يصعد مقبلاً نحوه، توقف عنده، قال:

- ها، كيف حال الفيلسوف؟

– لا بأس كيف حال معاليك، لعلك استمتعت بما قضيت من وقت فى بلادنا؟

عبر الباشا فى صلف سؤاله، أسرع يعبر الردهة، ارتقى درجات السلم الداخلى صاعداً إلى سمية هانم، ليستريح أخيراً من عناء السفر.

أقدار ملتفة :

ينتهى الضلع الثالث من المربع المنقوص ضلعاً لحظائر الخيل بخمس بوكسات، خصصت لنوم السواس، وعدلت طبقاً للفرق الهين بين السائس والحصان، فسمرت أجزاء الأبواب العلوية إلى الأجزاء السفلية منها، بحيث يصبح كل واحد منها باباً له حركة واحدة، وفى الجدران فتحت نوافذ واسعة زجاجية شرقية، تسقط منها أشعة

الشمس فى حال شروقها، لتربط حركة استيقاظ السواس باستيقاظ الخيل ونهوضها من مرابضها، فيبدأ بذلك نهار العمل.

ينهض السواس، يذهب واحد يهبط السلم الحديدى لبئر الموتور، بينما يصب آخر كوزاً من الماء فى فوهة ماسورة الرفع، وقبل أن يرفع مقبض التشغيل يدير العجلة مرة ثم مرة حتى تنتظم حركتها، يدور الموتور، ويبدأ فى إصدار رناته المتواترة، فيندفع الماء إلى الحوض الذى يغتسل فيه السواس المتدافعون حوله بالأيدى والمناكب، وهم يتلقون الماء فى أكفهم العريضة، يقذفونه فى وجوه بعضهم بعضاً، يتصايحون، يتبادلون السباب والضحك.

فى الخلف يقف الصبية والفتيان المنوطون بأعمال النظافة فى حظائر الخيل متى أخرجها السواس، عندها يغسلون الحظائر بالماء ويتركون الأبواب مفتوحة للشمس والهواء، يذهب بعضهم إلى مخازن الإسطبل لجلب الأعلاف، بينما يرفع الآخرون القش البائت، ويفرشون مكانه قشاً جديداً نظيفاً.

مع الصبية وقف إبراهيم هوارى صامتًا يتنفس خصوبة الأرض من حوله، ويرقب الهداهد وطيور أبى فصادة وهى تضرب بمناقيرها الأرض لتلتقط الديدان.

انتهى الساسة من اغتسالهم، قال أحد الصبية:

ـ قدم يا خال إبراهيم.

اغتسل وجفف رأسه وسرح شعره بأنامله، مضى خلف السواس إلى (الميس)، هناك كان رمضان الطباخ ينزل الأوانى الكبيرة المملوءة بالعدس المطبوخ من فوق المواقد.

تدافع السواس ممسكين أطباقهم، يتصايحون، ينادون الرجل باسمه مراراً، استثاره ضجيجهم، صاح من خلف المسطح الرخام الذى يفصل بينه وبينهم:

ـ النظام يا همج، وإلا بلغت الريس سيد.

في الركن وقف إبراهيم هوارى ذابلاً كطائر مبتل بالمطر، راقب في صمت المشهد . ارتدت به الذاكرة إلى مشاهد مماثلة، لكنها تفتقد إلى صخب الحرية، من شهور كان سجيناً، هناك كان السجناء يحملون أطباقهم كالمنومين، وهم يجرجرون أرجلهم في صمت وأدب، يختلسون النظر إلى السجانة، لو ندت صيحة صائح منهم، لارتفع السوط وهوى على ظهور الجميع.

هو بوجه خاص اختصه السجانة بمعاملة فريدة في وحشيتها وقسوتها، لأنه ثرثر في أول عهده بالسجن، حكى حكايته، وجاهر بأنه سيطلب بإعادة محاكمته، ولما انتهى الأمر إلى مسمع المأمور، امتدت يد خفية لتسكته أبداً، حتى غاب في محيط من الصمت، فارق فيه عالم السجن نهائيًا، عاش كما أراد العيش حراً طليقاً بلا قيود، هناك قابل وجوه من أحب، لم يعد يعبأ بأمر الزيارة الشهرية، متى أخبروه بها، مشى إليها كالمنوم بلا مبالاة.

وجد السجانة في الأمر لهم بإسكاته فرصة للانتقام من قوته الجسمانية الهائلة، كانوا ينتظرون أدنى هفواته، ليجعلوا منه أمثولة وعبرة، كأنما أرادوا أن يؤكدوا لأنفسهم أن ذلك الكائن الضخم لا يستطيع حيالهم شيئاً.

بمضى الوقت هدأ تمامًا، ماتت أشياء بداخله، وانبثق نوع من الجنون الهادئ سكن عينيه، وأقام في روحه فرح دائم يشبه البلاهة، يتمثل في ابتسامة باقية راضية مطيعة، كان من الممكن لأحقر صف ضابط أن يجعله يهرول ككلب ذليل نحوه، فقط بإشارة من إصبعه، لم يعد يملك حتى تلك المقاومة العاجزة التي تبدو في أعين من يقومون بأعمال ضد إرادتهم.

اكتشف سيد العجوز المحنك بدربته الطويلة أى رجل من الرجال إبراهيم ذلك، إنه يستطيع فعل أى شيء به، جعل منه صبياً من الصبيان، واستخدم قوته الهائلة أول الأمر في تنظيف الحظائر، وإفراغ العربات المحملة بأجولة علف الخيل، أو في تنظيف حوضه والأرض المحيطة به، وادخره لما تأتي به الأيام من مهام،

ربما استخدمه فى تأديب سائس سليط اللسان، أو لإخافة الصبيان به، فألزمهم الطاعة العمياء.

ثم استخدم ما له من سطوة، فأولاه أمر شهاب نكاية فى بقية السواس، قال له:

ـ امسك شهاب، بشرط، إياك يوسوس لك شيطانك وتركبه، فاهم.

* * *

لماذا كرهه الجواد؟ لا يدرى، هو لم يكن يعلم عن أمر الخيل شيئًا، كل ما يملكه قلبًا يشعر بحنين خفى للإنطلاق كما تنطلق الخيل فى المروج، لكن الخيل تعلم من أمر الرجال أكثر مما نتصور، فبمجرد أن جذب لجامه ليخرجه من حظيرته أول مرة، أحس الجواد بغشم صاحبه، جفل منه وحمحم غاضباً متراجعًا، لكنه جذبه عنوة، مشى بجانبه مملوءاً بفخر غريزى غير عابئ بنظرات السواس الساخرة، حاول أن يبادله الجواد الرائع عاطفته الطيبة، لكن الجواد أبدى نفوره، وحمحم فى شوق دفين إلى أرض أجداده البعيدة، رفع رأسه ومط رقبته ليتنسم الهواء بحثاً عن رائحة سيده القديم.

صباحًا بعد صباح أيقن أن ذلك الجواد لن يدين له أبدًا، يجذب اللجام فلا يطيع الجواد حركته، يجذبه مرة أخرى فى عنف متوعداً منذراً، يتحرك الجواد متثاقلاً عنيداً، يشيح بوجهه، كأنه يقول له (أنا لا أدين لخادم).

طيلة الأيام العشرة التى تولى فيها أمر ذلك الجواد، كان يجلس مع السواس متى انتهى نهار العمل ومات الغروب أمام حجرة نومهم، يوقدون النار فى القصعات ويدسون أكواز الشاى فيها، تدور الأحاديث والأكواب، يتعجبون من أمر سيد، ويعرضون بإبراهيم، بينما يغرق لاهيًا عنهم. فى توتره الليلى، يتذكر زوجه وابنه اللذين أتى بهما من المنيا مؤخراً، وتركهما يقيمان فى غرفة من الآجر بكفر فاروق، لا يزورهما إلا لماماً.

* * *

بالأمس ناداه سيد، قال له:

ـ طبعاً عارف عبد الواحد؟

هز رأسه له، واصل سيد:

ـ الكلب لوى رقبته فى وجهى، عليك به.

ـ الباشا يطردنى يا عم سيد.

ـ هه، الباشا سلمنى مفاتيح الإسطبل من زمان يا جحش.

* * *

فى المساء كانوا يثرثرون، ترامى إليه صوت عبد الواحد ساخراً منه:

ـ يا شيخ، ماله هو ومال الخيل.

كيف أمسك بالخيط الذى انفلت منه طوال سنوات، ارتفعت بداخله ثورة غاضبه، نهض من قعدته، مشى نحوه، حتى توقف عنده، سأل:

– تقصد من بكلامك يا عبد الواحد؟

نط عبد الواحد من مكانه متحفزاً:

ـ أقصدك أنت يا رطل.

هم برفع يده ليوجه لكمة إلى وجه إبراهيم الذى تلقى القبضة بكفه واعتصرها بأصابع قاسية، وروح سابحة فى وحشية قديمة دفينة، فمال عبد الواحد بجسده متألماً يحاول الإفلات، لكن إبراهيم هوى برأسه على جبهة عبد الواحد فشجها، وتركه لساقيه الدائختين، فسقط، تبادل السواس النظرات، أدركوا أن الجنى الآن خارج قمقمه، تقدم بعض منهم بأقدام محاذرة نحوه، قبضوا بأكفهم على ساعديه عند بروز عضلاتهما المنتفخة بالغضب، سرت كلمات التهدئة إلى أذنيه، فهدأت روحه:

ـ خلاص يا أبو شافع، طول بالك.

* * *

لم يكن يبدو عليه الغضب، كان واقفًا يرنو إلى بعيد، يحاول عبثًا أن يمسك بلحظات بعيدة فرت منه مرة أخرى لتوها، كان كلما حاول أن يلحق بها راوغته.

فى نفس الليلة زارته أطياف كوابيسه المتكررة، سوط يهوى به شبح ملثم، تشع عيناه وميضاً خاطفًا مرعباً، يرفع السوط، يهوى على ظهره العارى وهو مشدود إلى عروس السجن الخشبية، يتسلل اكتواء ثاقب إلى قلبه ناراً ترتفع برأسه، يجأر بصرخة هائلة، ترددها جدران العنبر، لكن أحداً من السواس المكدودين لا يستيقظ.

بقى ساعات طوال مضطرب الحال غائم الذهن يتأرجح بين الموت والحياة، أفاق، وجد نفسه فى متاهة، على مشارف نهايتها أمسك أخيراً بلحظة ساطعة تفصل عالم الحلم عن الواقع، نهض، تناول كوز الماء بيد مرتعشة، ارتجف فكه السفلى فى حين انسكب الماء إلى حلقه، بلل صدره كله، ارتمى على فراشه، ظل مسهداً ما بقى من ليله.

فى الصباح أخبر الواشون سيد بما حدث، فابتسم ابتسامة ماكرة، رأى إبراهيم يقطع المسافة إلى حظيرة شهاب، هتف به:

- إبراهيم.

تسمر مكانه، أشار إليه بكفه حين التفت، هرول نحوه صاغراً، قال له سيد:

- عفارم عليك.

فابتأس وجه إبراهيم، نظر إليه السائس العجوز، قال:

- مالك حزين؟

لم يجب، عندها خطرت لسيد فكرة شيطانية، قال وهو يحك ذقنه:

- اسمع، هات المرزبة الكبيرة، وتعال ورائى.

حمل المرزبة، مشى خلفه، وقف به سيد عند أعمدة الواجهة السامقة التى تحمل شرفة القصر الأمامية المطلة على الطريق، قال:

- قبل الزوال عايز العمود كومة واحدة.

ضحك إبراهيم ضحكة مسحوبة، فرماه سيد بنظرة غاضبة، رفع بعدها يديه بالمرزبة ليدك العمود، لحق سيد يديه فى الهواء، هتف مذعوراً:

ـ يخرب بيتك أنا أهذر معك.

غامت الدنيا أمام عينيه، وغاب فى لحظات قديمة، انبثق فيها كابوس ليلته الفائتة، صرخ صرخة مدوية، ارتج لها جسده كله، دار على عقبيه، وسقط، اجتمع حوله السواس وحملوه إلى العنبر، رشوا على وجهه ماء حتى أفاق، نهض ومشى بآلية نحو حظيرة شهاب دون أن ينظر إليهم.

* * *

قال رمضان الطباخ:

ـ أول شخص يملأ طبقه هو الرجل الكمل الواقف هناك، تعال يا عم إبراهيم.

لما خرج من السجن عاد إلى بلدته، هناك أيقن أن الفلاح الذى غادرها منذ سنوات لم يعد هو، إنه الآن شخص آخر، شخص دائم الشرود، لا يستقر على حال، تقطعه لحظات غريبة، لم تألفها الحياة المحيطة به، من قال إنه ممسوس مساً أرضياً، وآخرون قطعوا بجنونه، اتسعت المسافة بينه وبين الناس، كان يرى بعضهم يملص فى مكر حتى لا يلتقى به. يوماً، وهو واقف عند بحر يوسف، فكر لم لا يرحل هو وبدوية زوجته وشافع ابنه إلى القاهرة؟ فلم تعد تلك الأرض تعرفه.

فى شهر ونصف تنقل بين صنوف المهن، عمل أول ما عمل خفيراً فى فيللا (واحد مزيكاتى من بتوع المزيكا)، يوماً وجده نائماً يشخر، فطرده بلا رحمة، ثم عمل عند حذاء يدعى يوسف، كان الرجل يترك الدكان ويذهب لقضاء بعض شئونه، يعود فيجده مرمياً بجوار الحائط محمر العينين، يتأثئ، ويفأفئ، وزبد أبيض يكسو فمه، صدره مبتل بالدموع وبما تقيأه نتيجة شرب منقوع البراطيش من الدلو الذى

تخمرت فيه قطع الجلد. لم يتحمل الرجل مثل تلك الحركات، إذ وجده مرات مممدداً، ملأ دلواً بالماء دلقه عليه وطرده من الورشة.

من مهنة إلى مهنة، ذاق وامرأته وابنه مر الحاجة، كان يرنو إليهما، طفله على مشارف المراهقة، بجسد ناحل، وعينين وفكين هم دسيسة العرق فى الدماء، ينظر إليه، يرى عينى الطفل ذاهلتين، وامرأته مقعية فى الركن منحلة العزم، ببطن تقرقر من الجوع، التقوا فى لحظة بكاء مر، الطفل انتحب، والمرأة بكت فى صمت، أما هو فجأر حتى اهتزت أركانه، ألهمه الضياع أن يذهب إلى نور جودت، ففعل.

* * *

أخذ الطبق من يد رمضان الممتدة به، جلس ووضعه أمامه على الطاولة الخشبية توالى جلوس السواس وهم يضعون الأطباق وأرغفة وفحول البصل، كان يأكل فى تؤدة وصمت، وهم يثرثرون حوله.

قال شحات لعبد الواحد الذى كانت ضمادة الجرح ما تزال تلف رأسه، تشى ببقعة دماء حائلة اللون:

- طبعاً سيد خاف على الفرس منك.

أدرك السواس اللمزة، فانفجروا فى الضحك، غنى واحد منهم ساخراً:

- عينى ع العازب عينى عليه   ياخد المخدة بين رجليه

انتقلت السخرية محاذرة إلى إبراهيم:

- والله ما فى واحد تريحه فرس غير أبى شافع.

- ربك يستر على شهاب.

كان كلاهما مطرقًا برأسه، عبد الواحد ينظر إلى الأرض، وإبراهيم فى طبقه، حتى جاءته عبارة هامسة:

ـ يركب من؟ الحصان كرهه.

رفع عينيه بحثًا عن مصدر العبارة، التقت عيناه بعينى عبد الواحد، انكسرت نظرة الأخير وأشاح بوجهه، نهض إبراهيم، لمعت عيناه بنظرة تشى بعزم سائب مجنون لا يكبح، ربت على كتف عبد الواحد، فأزاح الكف فى خشونة، ارتعشت شفتا إبراهيم، سمع طبولاً تدوى فى رأسه، نداءات خفية تأخذ قدميه خطوة فخطوة، انبثق بداخله شعاع من ضوء غريب، انسل إلى روحه، وبدد ظلمة أعوام ثقال عن قلبه، ملأه بقوة هان معها أمر الباشا، وتلاشى أمامها سيد، لم يعد يرى إلا ذلك الجواد الأنوف اللعين، اندفع من باب الميس، تبادل السواس النظرات، وقفوا، تزاحموا عن باب الميس، رأوه يمضى بجثته الهائلة، يدلف الحظيرة، يخرج الجواد مسرجاً، يمتطيه.

* * *

يداك ملوثتان بالدماء :

كانت الساعة توشك أن تبلغ السابعة، عندما دخل (البوكس)، التقت عيناه بعينى الجواد الذى أدرك ما فى العينين من عزم وغضب، نهض من مربضه، اشتم رائحة انفعال إبراهيم وعنفوانه الفالت، جفل وصهل مرتداً إلى الخلف، التقط إبراهيم اللجام وألجم الجواد، ثم تناول السرج المعلق على الحائط، فصلصل المهمازان، أمسك بمقوده وشد رقبته لأسفل، رمى السرج على ظهره، وشد أبزيمى السرج حول الخاصرة بقوة تداعى لها ظهر الحصان قليلاً، فحمحم غاضباً، جذبه، وأخرجه، مط الجواد رقبته وصهل صهيلاً غاضباً، قفز إبراهيم واستوى على ظهره، لكزه بالمهمازين فى بطنه كما يفعل السواس متى يتأبى عليهما الجواد، انطلق جامحاً به، حاول أن يقوده صوب المضمار.

كان الباشا قد انتهى من تناول إفطاره، فأرخى جسده على كرسى (فوتييه)، أغمض عينيه، نامت شفتاه وتدلى شاربه على مبسم كهرمان لشيشة مدندشة، التقط

على مهل أول أنفاس الطباق الفاخر، عندها ترامى إليه صهيل يعرفه، انتفض منتبهاً، ترك (لى) الشيشة على الطبق الفضى بجوار الجمرات الخابية، نظر من النافذة، رأى إبراهيم يركـض بالجواد، جن جنـــونه، هس (يا أولاد الكلب، ما هذا؟ طيب والله، ألم أقل لك يا سيد الكلب إن الجواد لم ينس بعد صاحبه القديم، وأنه لا يطيق أحداً بعد على صهوته، وما هذا السائس الثقيل كفحل الجاموس حتى توليه أمره)، هرول يلتقط نظارته المكبرة، رأى الجواد يتأبى ويحرن، يرفع رقبته ويخفضها فى ضجر، وإبراهيم يلكزه ويخزه، هس الباشا «ابن القحبة يمتطيه كما يركب أتانا فى بلدته».

كان زمام الجواد قد أفلت فجنح بالسائس، قرر أن يتخلص من كيس الرمل الموضوع على ظهره بلا حول ولا قوة، وفى لفة المضمار ألقاه عنه، لكنه كبا كبوة عظيمة.

انتفض جسد الباشا من الغضب، وصعدت الدماء إلى عروق رقبته، فنفرت من سورته، هرول يلتقط السوط المعلق على الحائط وهو يدمدم.

ركب الكارتا وألهب ظهر السيسيين، عندها أدرك السواس الواقفون أن شيئًا حدث، تصايحوا وهم يركضون إلى خيولهم. سيد أيضًا ترامى إليه الصياح، زج نصفه الأسفل فى بنطاله وزرر أزرار سترته على عجل، هرول لاهثًا (إستر يارب، كرامة للنبى ما يكون شىء حصل) كان السواس قد انطلقوا فى أثر الباشا، حتى حاذوه، أولاهم نظرة تشع غضباً واحتقاراً صاح بهم:

- أنا يا أولاد الكلب أعرف أربيكم.

عندما ترجلوا، جرى بعضهم إلى إبراهيم الملقى بعيداً عن الجواد بأمتار قليلة، أوقفوه، بدا واضحاً أنه لم يصب سوى ببعض رضوض خفيفة، لكن وجهه كان يعانى ألماً داخلياً صامتاً.

توقفت الكارتا عندهم، كان الهواء قد فرق شعر الباشا، كسى وجهه المحمر هياج ملتاث، طاح فى السواس الملتفين حول إبراهيم بسوطه، فتشتتوا يحكون جلودهم.

كان شهاب مرمياً يئن أنيناً مكتوماً موجعًا، نظر بعين متوسلة شاكية إلى الباشا الذى أطل بوجهه عليه، أدرك أن ألماً يعتصر الجواد حتى يكاد يزهق روحه، تلفت الباشا حوله فى جنون، رأى سيد قادمًا يلهث، مصفر الوجه مغبر الجبين، تقوست كتفاه واندس رأسه بينهما، تسلل إلى المكان، وبنظرة واحدة أدرك ما حدث، فسقط قلبه فى رجليه، وحين هم بالانكفاء على الجواد نال لسعة وسبة من الباشا، رفع يده حك مكان الضربة، وهو يولى الباشا نظرة عاتبة، جأر لها الباشا:

- شف يا حمار الحصان ماله.

تحسس سيد الحصان بكفه، توقفت أصابعه الخبيرة عند الكتف الأيمن، وأدركت أن الكتف فى غير موضعه، حمحم الجواد ألماً، لكز الباشا سيد بمقبض السوط فى ظهره سائلاً:

- قل لى، الحصان ماله؟

تسلل صوت وان من بين شفتيه:

- كتفه انخلع يا باشا.

كان الباشا هادئاً، يمسك جيداً بالخيط بين العقل والجنون، ويبعث بعصف غضبه الداخلى إلى قلبه، فتشب به نار تتقد، أبداً لن يضيع الرغبة المسعورة فى الثرثرة الفارغة، أو الهياج الأحمق، رفع وجهه المطرق، التقت عيناه بعينى إبراهيم، فح صوت الباشا وصفر فى الوجود الساكن من حولهم:

- سأجلدك بيدى لحد الموت.

التفت إلى سيد وهو يهم بركوب العربة الصغيرة:

- هاته.

وهو يمضى عنهم، رمى سيد ظهره بنظرة لاعنة، ثم التفت إلى إبراهيم، رآه واقفاً، عيناه راحلتان إلى سماء بعيدة، اقترب منه سيد، ربت على كتفه همس بصوت

يكاد لا يسمع (الصبر عند الابتلاء)، فنظر إليه إبراهيم متعجباً، لم يكن به خوف ولا حزن، يكاد يمس بنظرته جزالة فرح خفى، همس سيد لنفسه (أمجنون هو؟)، مضى فتبعته أقدام السواس وهم يسحبون خيولهم حتى انتهى به عند شجرة كازورينا، وقف.

* * *

شد الجسد شداً مكيناً إلى شجرة الكازورينا، التف الحبل على رسغى يدى الساعدين المحتضنتين الشجرة، ثم التف مرات ليحكم حركة الخصر، ودار نازلاً إلى القدمين فأطبق على الكاحلين.

صعد سيد درجات السلم المفضى إلى بهو القصر، وقف بالباب، التفت إليه الباشا الجالس ينفث دخان شيشته فى غضب، قال سيد:

ـ يا سعادة الباشا، الولد جاهز.

نهض الباشا، خلع سترته، وثنى كمى قميصه، تناول السوط، فارتعش طرفه، تسمر سيد عند الباب بنظرة متوسلة، لكن الباشا أزاحه فى عنف.

* * *

كان الظهر مكشوفاً أمامه، محفوراً عليه سبل قديمة للألم، صنعتها سياط السجن. هس الباشا (هه، يعنى معتاداً على الجلد، طيب)، اختبر ثقل السوط فى كفه، رفعه وهوى به، سمع الوقوف (هوء) مكتومة جوانية، بعضهم أدار وجهه، والبعض الآخر انسل مبتعداً.

لم يكن هناك سوى حفيف الأشجار وفحيح السوط، وسيد يكز على أسنانه وهو يهس (قل حاجة يا ولد المحروق، ليقتلك)، لو أنه توسل أو انتحب أو أوهن لنجا، لكنه ترك رحمة الباشا تنتظر، حتى تساءل متعجباً (أراغب فى المــوت أنت؟ طيب)

واصل عزفه المنفرد على جسد خَبرَ طريق الألم مرات، وروح اعتادت عبور لحظاته القاتلة كأنها تَخبئ رغبة دفينة في الاستشهاد.

* * *

حين قال الباشا لسيد (هاته)، مشى معهم صامتاً، تقبل قدره بشجاعة زاهد في الحياة، وهم أيضاً مشوا صامتين مأخوذين بغريزة الدواجن، متى خطف منها وحش واحداً، انكمشت على نفسها خوفاً، لكن ما بقى عالقاً فى أذهانهم تلك الصورة الغريبة، إنسان سائر فى طريق الموت غير آبه به، حتى داخلهم شك فى عقله، ثم أورثهم الشك يقيناً أن شيئاً سيحدث تمنوا لو لم يحدث له.

* * *

كان الوقت يمر، ولم تكن هناك سوى (هؤ)، ألن يصرخ حتى لو قُتل؟ ألن يضج من الألم ابن القحبة هذا؟، لم يلحظ أن الرأس يميل إلى جنب شيئاً فشيئاً، ولا أن مقلة العينين ازدادت اتساعاً وهى تستقبل رؤى ملائكة تصعد وتهبط، تدور من حوله وهى تترنم بأهزوجة حزينة.

استلقى الرأس على الكتف تمامًا، فلم تعد (هؤ) تقطع الصمت المخيم، توقفت، لكن الباشا كان فى حالة من الاندفاع الأهوج، فلم يتوقف ولم توقفه الدماء التى تبذلت أولاً ثم سالت فى خيوط متقاطعة، سرعان ما تداخلت وتطاير رشاشها على وجه الباشا وقميصه، ولوثت قطراتها المتناثرة مقبض السوط فى يده. خرج به الحال من نشوة الانتقام إلى لذة مؤلمة. صارت جنوناً، انتهى به إلى وهن تسلل من قلبه إلى يده التى كلت، كان يضرب فى آلية ضربات واهية، لكن عيناه كانتا قاسيتان، تشيان برغبة طليقة فى القتل، قتل أى واحد سيجرؤ على الاقتراب منه ليوقفه، بدا ذلك فى

نظراته التى رمى بها أجساد السواس التى تململت، أما سيد فقد قلب الأمر فى رأسه غير مرة، لكنه فى كل مرة كان يهز رأسه كأنه يطرد هاجساً شريراً عنه.

* * *

كان مراد أفندى نائمًا يحلم حلماً مزعجًا، فتح عينيه، تعجب لهذا الترديد (هؤ، هؤ)، انتفض واقفاً، مضى إلى مصدر الصوت، وقف بباب القصر، صفع عينيه مشهد رأس إبراهيم مائلاً على كتفه، وفى لحظة ألم ذهنه المكدود من أثر الزمن بالمعنى كله أخذته هزة عنيفة، وغضب جامح، اندفع يحاول أن يسبق وهن العمر، حتى كاد يعثر بدرجات السلم لولا أن أمسك بأفريز الدرابزين، مضى حتى توقف أمام الباشا، رشقه بنظرة ظنها توقفه، لكن العجوز مد يده وأمسك السوط، فأربد وجه الباشا، قال متحدياً:

ـ حاذر يا مراد، إياك أن تتخطى حدودك.

شعر بالاحتقار لكل شيء، لنفسه، وللسواس الحقراء الواقفين، وللباشا، استجمع ما تركته له الأيام من بقايا، وفى لحظة واحدة خاطفة دفع الباشا إلى الخلف وانتزع السوط من كفه، ارتد إليه يلهث، بجبين مندى وعينين دمويتين تنضحان بشهوات شريرة، لكن مراد العجوز لم يهتز أمامه، وقف متلفعاً بقوة غامضة، طوح السوط إلى بركة سقاية الخيل، خرجت الكلمات من فمه قاسية قاطعة مفعمة بسخرية أب يوبخ طفل صغير يقف أمامه متسخاً بالوحل:

ـ رح إغسل يدك ووجهك من الدم، إذهب.

نظر الباشا إلى كفه وقميصه، مشى بأنامله على خده، أحس بلزوجة الدم على وجهه فتلفت مذعوراً حوله، صرخ فى السواس:

ـ أنتم واقفون، كل واحد يروح يشوف شغله.

تفرقوا بخطوات متثاقلة، تبادل الباشا ومراد أفندى نظرات احتقارعميق.

كان الباشا يلهث من الانفعال، تركه ومضى.

عند درجات السلم المفضى إلى القصر، رأى الخادمات النوبيات يقفن متلصصات يولولن، والدموع تنساب من أعينهن، صرخ فيهن، فجرين من أمام وجهه الغاضب.

اختفى داخل القصر، عاد الساسة يطلون كالفئران المذعورة، قال لهم مراد أفندى:

ـ بسرعة فكوا الحبل.

حلوا وثاقه، وحملوه إلى غرفة ضمادات الخيل.

* * *

تلك الليلة لم ينم الباشا، ولا نام مراد أفندى الذى تلفع بعباءة من وبر الجمل يدفع بها البرد عن عظامه وروحه المتألم، كان يسمع خطوات الباشا تذرع الغرفة التى تعلو غرفته، نهض عن فراشه، وتناول المصحف وأخذ يرتل (والسماء رفعها ووضع الميزان).

* * *

انصرم أسبوع بعد حادثة الجلد، كان الباشا قد اتصل بمستشفى بيطرى متخصص، عملاً بنصيحة بيطار الإسطبل الذى اكتشف بخبرته شرخًا فى المرفق، لكنه لم يصرح للباشا الهائج بذلك، ألمح بأن حالة الحصان خطيرة بحيث تقتضى خبرة وإمكانية لا يتوافران له.

جاءت عربة بوكس كبيرة شحن فيها الجواد، وكان على الباشا أن ينتظرشهوراً ثقال حتى يعود إليه الجواد مرة أخرى.

* * *

كانت شمس النهار تموت حين استأذن سيد في مقابلة الباشا، دق باب المكتب، جاء صوته آمراً (إدخل)، أدار مقبض الباب في رفق، دخل بخطوات محاذرة حتى وقف صاغراً عند الباشا الجالس يراجع بعض أوراق عمله، رفع رأسه إليه متسائلاً قال (خير؟)، كانت نظرة سيد متحيرة، قطب الباشا حاجبيه، قال:

- إنطق، مالك؟

رمى سيد بالعبارة إليه:

- إبراهيم يموت.

صدمته سرعة العبارة، لكنه تماسك، أطرق برأسه مفكراً، رفع عينيه إلى سيد:

- وما ترى؟

- الأمر لمعاليك.

احتقن وجه الباشا بالغضب، صاح:

- لا تلف ولا تدور، ماذا يجب أن أفعل؟

صمت سيد فلم يكن يلف ولا يدور، كان حائراً، لم يرد، راقب الباشا صمته، أدرك أنه عاجز، غمغم، ثم قال:

- خذه إلى أهله، ليموت بعيداً عنا.

- كيف؟

ندت الكلمة عن سيد غاضبة دون أن يشعر، صمت الباشا قليلاً قبل أن يفتح درج مكتبه، أخرج ورقة بنكنوت فئة مائة جنيه، ألقاها فى الهواء، دارت ثم سقطت على الأرض، قال الباشا لسيد الذى انحنى ليلتقطها:

ـ إرجعه لأهله، إعطهم المبلغ، تولى الأمر بنفسك.

حرك أطراف أصابعه فى قرف لسيد، فخرج يقلب الورقة النقدية فى يده.

* * *

فى باكورة الصباح، فتحت البوابة الحديدية الكبيرة لتخرج العربة الحنطور، يقودها عبد الواحد، بجواره جلس سيد متعثراً فى أطراف قفطان فضفاض لم يكن لبسه من قبل بينما تمدد إبراهيم تحت مظلة العربة كتلة شوهاء من اللحم، ووجهاً هضيماً فارقه رواء الحياة، وعينين مطفأتين استحال وهج نظرتهما إلى رماد، تلون جلد محجريهما هالات سوداء ضاربة إلى ازرقاق داكن، هس سيد وهو يوليه نظرة تطمئن إلى ما تبقى فيه من حياة (ربنا يستر لحد ما نوصل)، قال لعبد الواحد بلهجة أبوية:

ـ يللا يا ولدى.

انطلقت بهم العربة مسرعة حتى فارقت الطريق المرصوف إلى طرقات متعرجة وعرة المطالع والنزلات، توقفت أمام غرفة من الآجر مرمية بجانب نهاية طريق العشرين، تسرح حولها دجاجات سائبة تلتقط الحصى الصغير والحبوب التى تناثرت من مرور عربات الأعلاف، تفرقت الدجاجات مذعورة عندما توقفت العربة.

هبط سيد، تلفت حوله، رأى عموداً من الدخان يصعد من فرن للخبيز، كان باب الغرفة المصنوع من قطعة صاج مفتوحاً، صفق بكفيه، خرج له ولد فى نحو الثالثة

عشر من عمره، عيناه وفكاه واستطالة ساقيه كلها تقطع بأنه (شافع) ولد إبراهيم، كان يمسك بكتاب مطالعة منزوع الغلاف، التفت أطراف أوراقه، سأله سيد:

ـ أنت شافع، ابن إبراهيم؟

أجاب الصبى:

ـ نعم أنا شافع ولده، خير يا خال.

اقترب منه سيد متردداً:

ـ تعرف تقرأ؟

ـ لا، لكن أقدر اتهجى الحروف، خالى فى البلد علمنى كيف اتهجى.

أمسك الكتاب منه، صافحته صورة الملك شاباً رائقاً، فى ملامحه عذوبة أنثوية، فتح الكتاب ثم أغلقه فجأة، وكأنه تذكر ما جاء من أجله، سأله:

ـ أين أمك يا ولدى؟

ثغا الصبى:

ـ أمى، أمى.

خرجت إليهم امرأة تلبس جلباباً أسود، تناثر عليه غبار دقيق الخبيز، ولحق بعض خصلات شعرها النافرة من تحت عصبة رأسها، كان وجهها متضرجاً بحمرة نار الفرن وعلى خديها بصمات أصابعها الملوثة بالسناج، وفى يديها بقايا عجين، تطلعت إلى الغريبين بعينين فيهما انكسار من تلقى كل أنواع الذل والمهانة فى الحياة، قالت موجهة كلامها إلى سيد:

ـ خير يا مولانا؟

ـ كل خير يا بنيتى.

تحير من أين يبدأ الكلام، كان شافع يتلهى بالالتفاف حول العربة الحنطور، حين سقطت عيناه على جسد أبيه الذى مال وتدلى رأسه خارج العربة، صرخ الصغير:

ـ أبى!؟ أبى هنا يا أمى.

تساءلت المرأة:

ـ أين يا ولدى؟

جرت إليه، قفز خلفها عبد الواحد، فتبعه سيد، تعاون رباعتهم على رفع كومة العظام المدقوقة، خطوا حتى دخلوا به البيت، وسحبوه على مصطبة، تحركت المرأة نحو سيد وفى عينيها ثورة داخلية، سألت:

ـ قل لى يا مولانا، ماله إبراهيم؟

نكس الرجل رأسه، أجاب فى لهجة محاذرة:

ـ هو بعافية حبتين يا بنتى، الباشا ربنا يخليه، قال لى خذه يشوف عياله، وبعث معى حاجة بسيطة.

(مد يده بورقة البنكنوت).

مدت يدها، وأخذت الورقة، نظرت إليها، ثم نظرت إلى الرجل الواقف أمامها، لم تكن بلهاء حتى يخدعها بسمته الطيبة، ولا بحبات مسبحته التى يرسلها واحدة بعد أخرى، لكن الموت والحياة كانا يتساويان فى فوضى الفقر والضعف، الأيام قالت لها ذلك أكثر من مرة، لم تقل شيئاً للرجل، هزت رأسها، وصمتت.

انسحب سيد خطوة، قال:

ـ طيب، أسيبك بعافية، لو احتجت شيئاً تعالى الإسطبل، أنا موجود.

استدارخارجاً، فتبعه عبدالواحد، وقفت المرأة على باب البيت ترنو إليهما وهما يبتعدان، عادت إلى إبراهيم، كان شافع منحنياً عليه، يرقب عينيه الصامتتين، رفع رأسه إلى أمه، التى ركعت بجانبه، انكفآ معاً فوق الجسد يبكيان.

* * *

إبراهيم لم يمت، أصابته حمى قاتلة، ازادت حالته سوءاً على سوء، لكن جسده القوى وبنيانه المتين كانا معاملى الحياة اللذين واجها الفناء، نشبت بداخله حرب بين فارس أسود مدجج بالسلاح مكلل الجبين بغار الموت، وقوى داخلية تبدت له أطيافها ملائكة رفرفت حوله، قاتلت من أجل أن يبقى حياً، خرج من المعركة نصف منتصر ونصف منهزم، نجا الجسد الذى شفت عظامه وخف جلده، لكن الحمى كرست اضطراباً ذهنياً لا فكاك منه ما تبقى من حياة، وروحًا يغوص فى لحظات قديمة، ترقب عوالم مجهولة تخايله، تصعد به درجًا يضيئه وعى لحظى، يكاد يزيح ظلمة غيبته، ثم تنفلت القدم وتهوى به، يظل يلوب فى فراغ قاحل، لم يتبق له سوى تلك الابتسامة الأسيانة المنكسرة التى تنفجر دفقات ود إلى الأشياء من حوله، كان يمنعها من ذبح الدجاجات:

- سيبيها يا أم شافع.

تسأله متعجبة:

- كيف يا رجل، يعنى نأكل طوب؟

لكنها تتركها أمام تشبثه العصبى بالسكين.

لحظات نومه الخاطفة تعبرها أصوات منشدة، تسيح به فى صحارى عطشه المقيم، يستيقظ، يظل يجرع الماء من الإبريق بلا حساب، لا شىء يطفئ عطش الظمآن، لا الماء ولا غناؤه المبحوح، يرنو له شافع، يشير إليه ليأتى ويجلس معه، يقترب الصبى يقف عنده، يجذبه ليجلسه، يسأله عن كتاب المطالعة:

- أين وجدته؟

- وجدته ملقى بجانب الطريق.

- أتعرف القراءة؟

- خالى علمنى اتهجى الحروف.

كان الصبى يحاول أن يحل طلاسم الكلمات، ربت الأب على كتفه فى حنان بالغ، ابتسم له، قال:

- سأعلمك القراءة.

لكن كفيه أمسكتا بالكتاب فى عصبية، ظل يحملق فى أشباح قادمة من بعيد نحوه، أشباح لن تأتى ولن تقطع المسافة القائمة بينهما أبداً.

* * *

لم تخبره المرأة بحصة المال الكبير التى وقعت فى يدها، اشترت نصف فدان من الأرض، فانصلح لها الحال، بنت بيتاً أكبر، ألحقت به زريبة، واقتنت جاموسة تدر عليها لبناً وجبناً، كانت تفلح الأرض بنفسها وتغرس البذور، لها فى شافع ذراع قوية، بينما يجلس وهو يتأملهما بلا معنى وهو يرقب تغير أحوال الخلق من حوله، يهز رأسه، يدور فى بسمته الخالدة.

حتى استيقظا ذات صباح فلم يجداه، ظنا أول الأمر أنه لن يبعد به الأثر طويلاً لكن انحدار شمس ذلك النهار خيبت ظنهما، وشتت يقينهما الساذج، كانت تدور فى أركان البيت كأنها تبحث عنه، الصبى قال لها:

- اهدئى يا أم، من باكر أدور عليه فى كل النواحى.

* * *

لم يصلح العطار ما أفسد الدهر

مائة وثمانون يومًا مضت ولن تعود، وما كف موتور المياه عن إصدار رناته الرتيبة المتواترة التى تؤذن ببدء يوم عمل جديد فى الإسطبل، لكن اليوم كان له مذاق آخر.

منذ البارحة وهم ينتظرون عودة شهاب، وفى جلسة السامر أمام قصعات النار، انقسم السواس فريقين، أحدهما راهن على عودة الجواد سليمًا كما كان يومًا، والقسم الآخر رأى أن ما انكسر لا يعود كما كان أبداً.

أما الباشا، فلم ينم ليلته، ظل يروح ويجئ كبندول الساعة، تترامى دقات خطواته إلى مراد أفندى الذى كان يهس (أحمق، لا يعلم أن الدنيا والحلم شيء واحد)(١). كان الباشا قد تلقى برقية، لم يكف عن قراءتها (الجواد فى الطريق إليكم، بعد أن أتم علاجه، عربة الجمعية ستصل غداً، الرجاء دفع بقية الأتعاب وأخذ فاتورة مخالصة من البيطار المصاحب)، يقرأ البرقية مرة بعد مرة، وفى كل مرة يقرأها بعين أخرى، تارة يأخذه اليقين بتمام الشفاء، فيعود طيباً وديعًا مسالماً، ثم يداخله الشك، يهز رأسه فى عنف، يطرد هواجسه المشاكسة بكل شر ممكن.

* * *

مرت به الثوانى بطيئة، وخيم صمت على الجمع الواقف ينتظر، صمت لم يقطعه إلا صوت المزلاج وهو يسحب، لينفتح الباب الخلفى لعربة الجمعية، مد السواس ألواح من الخشب البلطى امتدت من طرف العربة إلى الأرض، ليخطو عليها مهلاً وفى رشاقة ذلك الجواد. انفتح مصراعى الباب تمامًا، فانحبست الأنفاس وجحظت العيون ترقبًا، أطل الجواد برأسه أنوفًا متكبراً، حمحم فى حنين، فأمسكت رعدة جسد الباشا، ود لو مد كفه لتتلمسه وتجوس فى صدره العريض، لكن البريق الذى لمع فى عينى الحصان لحظة خبا وانطفأ، حل مكانه حزن عميق، خطا أول خطوة على الألواح فاعتصره الألم، وما إن أطلت رقبته السارحة ونحره المزدان بخرزة زرقاء وهلال عاجى، حتى تراجع الوهم ليفسح مكانه للحقيقة، شعر المعرفة

---

(١) مقطع من أغنية تركية قديمة .

استطال، وفقد الجلد بريقه وشف عن عظام جسد كده طول المرض وقلة العناية، خطا متحاملاً بلا ثقة خطوة أخرى، فتبين له جواداً آخر غير الذى عرفه، كان يقف فى منتصف لوح البلوط يرنو إلى الوجود فى أسى. اجتاح الغضب عقل الباشا وهو يسأل نفسه (أهذا الحصان حصانه الذى لم ير فى حياته حصاناً مثله؟)، ماله ثقل فخذاه، وارتعشت قوائمه، وتدلى شعر ذيله متقصفًا صارخًا بالإهمال الذى لاقاه هناك؟ أدار الباشا رأسه مفتشاً عن البيطار وجده منزوياً خلف السواس، دفعهم الباشا بيديه، فتنحوا جانباً، قبض بكفه على رقبة الرجل حتى جحظت عيناه، فح فى وجهه:

ـ أنتم متخصصون فى الإهمال إذن يا لصوص.

انفلت الرجل من قبضة الباشا، تراجع مذعوراً، قال بصوت متحشرج:

ـ يا سعادة الباشا، عملنا أقصى ما فى جهدنا والله.

ـ يا حمار، الحصان يعرج، هل عملتم أقصى ما فى جهدكم لجعله يعرج؟

ـ اهدأ سعادتك، فما أنا إلا موظف.

ـ موظف؟ هه، سأقاضيكم حتى أخرب بيتكم.

ضرب بمقبض سوطه القصير انتفاخ البنطلون الكاكى الذى لبسه ليركب الجواد، ويختبر جريه، دار فى مكانه، فتراجع كل من كان حوله خشيـة انفلات أعصابه، لكنه كظم غيظه، صاح فى البيطار:

ـ ولا مليم يا أولاد الكلب، فاهم، ولا مليم سأدفعه لكم، إمش.

استدار الرجل فى ذعر، هرول إلى السيارة ووقف بجانب بابها، ينتظر حتى يفرغ السواس من مساعدة الجواد على النزول من العربة، لما استوى على الأرض داروا حوله، تصنعوا فحصه وهم يمصمصون شفاههم.

* * *

فى ذلك المساء، جلس الباشا يدق بظهرقلمه سطح المكتب محاولاً ترتيب أفكاره، بعث بمن يحضر له سيد الذى أوجس شراً وهو يسأل الخادم:

ـ خير يا ترى؟

فرد الرجل كفيه، قال:

ـ الله أعلم يا عم سيد.

ـ ربك يستر، سآتى فى الحال، رح أنت.

دخل على الباشا كعادته مقوس الظهر متحصناً بالزمن والانكسار، ألقى تحية المساء، فهز الباشا له رأسه، قال:

ـ إقعد ياسيد، اتفضل.

هجس قلب سيد، ربت على صدره بيده ممتناً:

ـ أزاد الله فضلكم، لا يصح أن أجلس.

علا صوت الباشا منذراً بفقدان الصبر:

ـ قلت إقعد يا سيد الكلب.

جلس على حافة المقعد المواجه للباشا كأنه يهم بالفرار، فاستثار مرح الباشا، قال:

ـ لا تخف يا عجل، قل لى، ما العمل الآن فى شهاب؟

همس السائس العجوز لنفسه (إذا كان الأمر كذلك، بسيطة، الحمد لله)، قال:

ـ معاليك لا تشغل بالك، لا عليك من أمر شهاب.

نظر إليه الباشا فى غضب، قال:

ـ ما علىّ من أمر شهاب كيف يا غبى يا مخرف.

ـ تمهل وأنا أوضح لسعادتكم.

ـ ها، قل، هات ما عندك.

ـ الحصان رجع مهدود الحيل، سيبه لى، أنا أتولاه بنفسى.

ـ تتولاه بنفسك، والعرج يا فالح.

تأتأ العجوز، دارت عيناه فى أرجاء الغرفة تبحث عن مهرب إذا ما فقد الباشا صوابه ليقول ما يعلمه الباشا جيداً لكنه يرفض الاعتراف به.

ـ شهاب انتهى يا باشا.

انتفض الباشا غضباً، صاح:

ـ يا ابن الحرام، انتهى؟! أتقولها هكذا بكل بساطة؟

ـ سعادتك اهدأ وتمهل، فيه حل.

ـ أى حل هناك، قل؟

ـ قلت لسيادتك، سيبه لى، وأنا أخليه ينهض.

ـ وبعد ما ينهض.

ـ نطلقه على عفراء.

قال الباشا متهكماً:

ـ عفراء، هه، الجاموسة العربية.

ـ لا سعادتك، أنا طول عمرى خيّال وأعرف إن عفراء حجازية شريفة وأصيلة، غير كثرة الحبل والولادة أخذا منها حبتين.

ـ فى الحقيقة، هى أصيلة، لكن من مدة لم تجاوب.

ـ لو تسمعنى معاليك.

آثر الباشا أن يستمع، فاطمأن السايس العجوز أكثر، نهض ومال على المكتب، لمعت حدقتا عينيه، وهو يطرق سطح المكتب بإصبعه، همس للباشا:

ـ نحن الآن فى أكتوبر، والفرس عالقة لأننا فوتنا عليها الحمل من شهر، كنا ننتوى إراحتها، لكن أنا أعرف كيف أجعلها تطلب، وأعرف كيف أجنن أم شهاب هو الآخر، وإلا ما أكون سيد.

هز الباشا رأسه، قال:

ـ تعجبنى الثقة بالنفس، والماء يكذب الغطاس، خلينا نشوف الهمة، والآن إذهب لأن أمامى عملاً كثيراً.

انحنى السايس تحية واستدار ليخرج.

* * *

تولى سيد أمر الجوادين بنفسه، فأسكنهما حظيرتين متجاورتين، ليُسمع عفراء حمحمة شهاب وشكوى غريزته الحبيسة، ظل بها حتى جاوبت شكواه شكواها، لكنها حبيسة، وهو أيضاً بعيد المنال، فى الصباح، يخرجونها، وعند عودتها تراه يطل برأسه من الباب العلوى للبوكس، تصهل حين تلتقى عيناها بعينيه، يهمس سيد (أول الحب نظرة يا هانم، يا مسهل يا كريم)، يجذب لجامها، يرى الجواد يرفع الرأس ويخفضه مرات، تأبى عفراء أن تساق إلى حظيرتها إلا عنوة، يقول السائس وهو يخشن عليها (هو أنتِ شفتِ حاجة، الوقت بدرى علينا يا حلوة).

سيد الماكر قص معرفة شهاب بك، وشذب شعر ذيله، ودلك جسده، وصبغ غرته بالحناء، فأطار لب عفراء، ولم يزل يلعب بها، مرة يدخلها بوكس شهاب دقائق معدودة، ثم يستردها قبل أن يتعارفا، فأيقظ أنوثتها التى تكاد تنحو إلى الذبول، حتى توردت مشاعرها، وجرت فى عروقها دماء حارة صاخبة.

لكنه أسرف قليلاً فى مكايدتها، حتى أضجرها، وكادت ترتد إلى قبول حرمانها من شهاب الذى ازداد ترفعاً وبهاء وسيد يجرى به خبباً من بعيد، حتى جاء صباح

وضجت بالصهيل فى أرجاء الإسطبل، جرى سيد إليها، وجدها حائلاً مملوءة شوقًا شديداً، مد يده الخبيرة، وفى حنو تحسس استرخاء عظام حوضها، دارت فى عصبية بالغة، وفى دورتها رأى حياها متورداً بحمرة خفيفة يسيل منه المخاط، حمحمت له شاكية باكية، فربت على كفلها وهو يقول فى جذل:

ـ الصبر يا قحبة، يعنى أحضر الباشا ينزى بك، قلنا حاضر.

هرول الباشا معه، رأى حال الفرس، ابتسم ومسد شاربه، قال:

ـ عفارم عليك يا سيد، لكن أمتأكد أنت من أن اليوم هو أول حيولها؟

ـ طبعاً يا سعادة الباشا، أنا لا أفارقها إلا عند المغيب.

* * *

عندما اصفر وجه ذلك النهار، وقبل أن تنتهى أيام حيولها العشرة، أحضروا لها (ماجد أفندى)[1] بجسده الهزيل الضعيف، وعرضوها عليه، قال الباشا:

ـ خد بالك لتناوله رفسة، يروح فيها.

رد سيد:

ـ هو أنا غشيم معاليك، سأقيد رجليها الخلفيتين، ونسيبه يهيجها.

ضحك الباشا، قال:

ـ وبعد يا شيطان.

هز سيد رأسه وهزج:

---

(١) ماجد أفندى جواد ضعيف تُعرض عليه إناث الخيل الحائلة كنوع من التجهيز والإثارة قبل العرض على الفحول القوية .

ـ وبعدها ندق الدف والطار، ونحضر عريسنا متزيناً ونطلق البخور فى الإسطبل، ونزوج الشطار.

قبيل المغيب بساعة، كانت عفراء قد انتهت من أمر ذلك الجواد المهزول المذعور الذى ما إن رأته حتى بلغت بها العصبية مبلغها، وكادت تناله برفسة لولا قيد قدميها، دار حولها الجواد ودار حتى تعب ولم ينل منها منالاً، سحبه سيد قائلاً:

ـ كفاية يا ولد المحروق لتموت.

* * *

عند الغروب، أطلق السواس شهاب على عفراء، أغلقوا عليهما البوكس، وذهبوا يدقون الطار، فطرطق الجوادان أذنيهما، واهتز جسداهما طرباً، وحين التقت العيون حمحم لها، تقدم منها، تشمما عبقًا جنسياً فواحًا لذكر وأنثى طال بهما الشوق، وملأ أريجه المكان، اقترب أكثر، لبثت فى مكانها، تمسحَ بها وعضها عضًا خفيفًا فى رقبتها، فبادلته عضًا، هاما معًا فى نشوة بعثت قشعريرة فى جسديهما قبل أن يلتقيا ويصلا إلى الذروة.

أفاق من نشوته على يد سائس تأخذه لتسكنه الحظيرة الخاصة به.

* * *

يوم تال:

فى اليوم التالى، قبيل شروق الشمس جاءه سيد ألقمه قطعة سكر واحدة، وأخذه ليدخله جنة الجسد، أغلق على الجوادين باب البوكس واسترق النظر، تأكد من أنهما أبليا بلاءاً حسناً.

ثلاث دفعات تم فيها العرض، كانوا يدخلونه الجنة ثم يستردون منه مذاق خمرها وعسلها، عندما أخذوه بعد الدفعة الثالثة كان شهاب منتشياً سعيداً بالوجود، أما هي فقد كانت خجلة متدللة فرحة بما غرس في أحشائها وراح ينمو رويداً مع كل شمس نهار جديد. وعندما مر عليها شهران عافت العليق حيناً، وعافت ذلك الشهاب الأعرج الذي كانت تراه من بعيد.

مد سيد كفه وتحسس أسفل بطنها وقال لها (مبروك عليك يا بنت ومبروك علينا).

* * *

صارت عصبية المزاج، فأخذوا شهاب بعيداً، كان يذبل كما تذبل أوراق الأشجار، انطفأ بداخله ذلك الوهج الذي اتقد حيناً، فانطوى حزيناً تلوح له عفراء من بعيد قاسية أنوف متغطرسة، يشعر بعجزه مريراً متى رأى الخيل تركض في المضمار، حتى سيد لم يرحم عجزه، مرة لكزه في كفله بقبضته الجافة القاسية العظام قائلاً:

ـ هددت حيلي يا أعرج.

مط الجواد رقبته في كبرياء، لكنه لم يستبح أحزانه إلا لليل ولوحدته المريرة.

* * *

(لا أمل في شفائه من العرج، بعه يا سيدي)، هكذا قال سيد للباشا فصعدت الدماء إلى رقبته وأذنيه غاضبة ثائرة وهو يقول:

ـ يا جلف بكم أبيع وكم يساوي؟

صمت السائس، قال له الباشا وهو يضمر في نفسه شيئاً عقد عزمه عليه:

ـ إسمع، خذه للمضمار الخلفي، وانتظرني هناك حتى آتي إليك. سانتهي اليوم من أمر ذلك الجواد.

* * *

ارتدى الباشا ملابسه وذر قليلاً من الحناء العراقية على شاربه المبتل ومسد طرفاه، فتح درج مكتبه، وأخرج علبة كبيرة مطعمة بالصدف، جذب مقبضها الفضى فانفتح بابها، قلب محتوياتها، غدارة عثمانية طويلة، تذكر من أهداها إليه، هز رأسه وابتسم، لها صوت مدفع قديم، ماذا لو خابت الطلقة، أيعود ليحشوها، وضعها فى منيمها، تناول مسدساً له ساقية، نظر إلى رأس الحصان المحفور عليه، وجده غير لائق، امتعض ووضعه فى مكانه، كان يقلب فى رأسه تلك الميتة التى يجب أن يحظى بها ذلك الجواد، يجب أن يموت فى رفعة كأمير من أمراء الانكشارية، وقعت عيناه على الطبنجة الفضية المهداة إليه من القصر، فيها رشاقة، ولها وزن خفيف يجعل من السهل إحكام قبضته عليها، وبها نعومة ورغبة فى القتل، عبأ خزانتها بالطلقات واحدة فواحدة وهو شارد البال، اندفع إليه هواء الغروب فجأة من النافذة حاملاً عبق أغصان محترقة تأتيه من بعيد، امتلأ صدره العريض بأريج خصوبة الحياة التى تلفه، دس الطبنجة فى حزامه العريض، وهبط الدرج متواثبًا كالقط، قفز على ظهر جواده، استيقظ بداخله فارس تركى قديم وهو ينهب المسافة بين القصر والمضمار.

* * *

وقف سيد بجوار الجواد مطرقاً برأسه ساهماً، لقد خبر طيلة أعوام كثيرة نزوات الباشا وحماقاته، مد كفه وربت على عنق الجواد لاعناً الباشا حتى آخر جد له، همس للجواد:

- سامحنى يا ولدى.

كان الجواد مطرقًا حزيناً كاسف البال، عندما وصل الباشا، رفع الجواد رأسه وحملق فيه بعينين صافيتين، وحمحم محيياً، فارتعد قلب الباشا، أشاح بوجهه عنه وجز على أسنانه يستجمع كل قسوة روحه لتسرى إلى دمائه صاعدة إلى رأسه فتعمى

عينيه وتلهب جنونه، لكن الجواد اقترب منه ورنا إليه، فكاد يشتت عزمه الغاضب، صرخ الباشا فى سيد:

ـ إطلقه الآن.

أرخى سيد يده وترك اللجام يتدلى، لكز الجواد فى كفله ليتحرك، لكنه بقى ثابتاً فى مكانه، مط رقبته مترفعاً، عاد الباشا يهتف بسيد:

ـ خليه يتحرك يا غبى.

نظر سيد للباشا وهز رأسه فى أسى، تأجج غضب الباشا، رفع شهاب رأسه وأرسل صهيلاً موجعاً، ليودع عفراء والأشجار والإسطبل والقصر، ثم أدار رأسه إلى الباشا، واجهه فى كبرياء صامت، التقت عيونهما للحظة، لم يتركها الباشا لتعتمل فى نفسه، ضغط بسرعة على زناد الطبنجة، فانطلقت الرصاصة أصابت رأس شهاب، فتطاير مخه وتناثر فوق النجيل، قفز الباشا واعتلى صهوة جواده تاركًا سيد يحملق مذهولاً فى جسد الجواد المسجى عند قدميه.

(٧)

طـريـق الإنـسـان

عندما أذن الفجر، كان شافع قد استجمع للقلب مرارة طرقات كثيرة قطعها بحثاً عن أبيه، الأماكن التى أوصته بها أمه، والمساجد المتناثرة بالكفور القليلة المحيطة بهم، كلها هزت رءوسها نفياً.

فى طرقات الإياب التى قطعها قافلاً، لاح له وجه أبيه طائراً غريباً رفرف فوق رأسه، ثم ضرب بجناحيه وطار مبتعداً، خاتلت قلبه الصغير أسئلة كثيرة، لكن سؤالاً واحداً ظل يلح عليه، سؤال لا يحتمل سوى إجابة واحدة، رفضها قلبه وراغ منها مرات. راوده أمل قوى، لم لا يكون قد عاد إلى الإسطبل؟

عندما أزاح ضوء كليل غبشة الفجر، نهض، لملم جسارة روحه الحائرة، وشوقه إلى أبيه، لم يخبر أمه بما راوده من أمل قبل أن يعرف الإجابة، صر الباب خلفه وانغلق.

* * *

معارج الطريق أمامه ثعباناً زاحفًا، على جانب منها ترعة، أهاج الصيف كائناتها، وأخرجها من بياتها، كانت القراميط تلعب فى مائها لعباً مسموعًا، تضرب أجسادها الماء، تتداح أمامه دوائر، مرق أمامه ورل واندس فى جحره.

على الجانب الآخر منها ترامت حقول تسيجها أشجار عالية متواشجة وكثيفة، خلاء العالم من حوله أهاج مخاوف قلبه، تماسك تماسكاً مصطنعًا، مد الخطو ليقتل الطريق خطوة خطوة، انتهت إليه أنات نائم كده عمل اليوم الفائت، فرأى رأسه متدلياً من على مصطبة، أوسع الخطو، أول وجه قابله فى ذلك النهار كان وجه امرأة تجلس أمام بيتها، ترضع طفلاً صغيراً باكيًا فى حجرها، كانت تهزج له بصوت مبحوح وهى تهزه هزاً هيناً.

مر بهما، الطفل الآن يضحك ضحكة عذبة، سريت ضحكته بعض طمأنينة لقلبه. تحسس كتاب المطالعة الرشيدة الذى اصطحبه معه فى كل الطرقات والخلوات، ليؤنس بصوره وحشته، جلس ليستريح أسفل شجرة، فأخرج الكتاب، راقب الأحرف، وقفت عيناه على الجيم نطقها عطشانة مثل ظمأه، أعجبه نصف التفافها. واصل المسير، عند رأس طريق تفرقت إلى عدة سبل، أخذته حيرة، أى السبل يتخير، راجع ما اختزنته الذاكرة، تخير طريقاً مدكوكة تركت فيها عربة قطعتها وهى موحلة آثار عجلاتها، تابع السير على هديها.

من بعيد لاح له بناء ضخم يقبع ملفوفًا بما تبقى من ضباب الصباح، أوسع الخطو، مخدوعًا بالنظر، ظنه قريبًا، نصف ساعة مشى، قبل أن يقف أمام الواجهة المزدانة برأس حصان من الجص المطلى بلون بنى، أطلت خرزتا العينين عليه، رفع رأسه يرقبه، كل شيء تطابق مع براعة الوصف الذى وصف به أبوه المكان ذات يوم، أسوار عالية، ونوافذ واسعة زجاجها ملون، شرفة مطلة على طريق ترفعها أعمدة ضخمة وسامقة، تذكر قول أبيه (لو لفينا إيدينا أناوأنت يا شافع لن نحيط بها)، الأميرة التركية التى لم يرها أبوه، لاحت لخياله أكثر سحراً وغموضاً وروعة، حاول أن يتذكر اسمها، كل ما دلته عليه الذاكرة هو وسوسة السين على طرف لسانه.

أمام البوابة الحديدية ترددت كفه المبسوطة، كان الوقت مبكراً جداً، آثر أن ينتظر، جلس على الأرض منكمشاً على نفسه كطائر مبتل الريش من نداوة الصباح، تنفس تداخلات الباكورة الطازجة، تأرجحت نفسه بين شقشقة العصافير الفرحة، وبين نعيق الغربان المقبض، جاءه صهيل الخيل، أحس أن خلف الأسوار عالماً مسحوراً، لا يعرف إلا القليل عن أسراره، ذلك القليل لا يزيده إلا غموضاً، أهى الجنة التى حكى له عنها شحاذ جائع مر يوماً بالكفر، وجلس أمام غرفتهم، فأطعمه، ألم يقل له وهو يمسح كفه فى صدره (ما لم تسمع به أذن وما لم تره عين، وما لم يخطر على قلب بشر).

عدل جلسته، تأمل الباب الضخم بمصراعيه، واطمأن إلى يقين بأن الأبواب تفتح حتمًا، سينتظر، ومن أين له العلم بأن ذلك الباب لا يفتح إلا لدخول زائر عارض، أو لخروج الباشا غير المتواتر فى سفرات قليلة، ربما لزيارة أبيه فى البحيرة، أو لقضاء شأن من شئونه، أو أن ذلك الباب يفتح مرة كل أسبوع أمام عربة العلف، أذلك ما يجعل طريق الإنسان مرتهنة بالصدفة العارضة؟

لكن الباب فُتح، سَمع صريره، فنهض، وانتحى عن طريق السيارة الفيات، التى جلست فى مقعدها الخلفى سمية هانم، كانت ذاهبة لزيارة ولدها وحفيديها.

والبوابة تنتحب لتغلق من جديد، التقطت عينا مراد أفندى الذى كان من عادته مراودة الصباح طيف كائن غريب لم يسعفه بصره الكليل لأن يتعرف من هو، مضى إلى البوابة، أمر الحارس أن يفتحها، مشى بخطواته اليابسة إليه، حتى توقف عنده، هز رأسه متعجباً رافضاً التصديق، لعلها أطياف الزمن واختلال الذاكرة ووهن عصب العين، همس لنفسه (أمان ربى، إبراهيم صغير).

أمسك بالفتى من كتفيه، وقرب وجهه منه، تفحص القسمات الواشية بانتماء الدم، تأمل الجسد الضخم، الذراعين المتدليتين من ثقل الكفين وامتلاء العروق بالدم، الشعر الأسود الداكن، وبنظرة عجوز محنك دقق النظر فى العينين الصافيتين ليسبر عمق الروح، رأى الجبهة الضيقة المقفولة، والفكين العريضين، فتأكد مما دلته عليه حصافته، هز رأسه فى يقين وهس (ذكاء قليل وروح مفعمة بطيبة طليقة)، سأله عبر ابتسامة واهنة:

- أنت ابن إبراهيم هوارى؟

هز الفتى رأسه إيجاباً، عاد العجوز يسأله فى لهفة:

- أأبوك ما يزال حياً؟

طأطأ الفتى رأسه، قال من خلف حيرته:

ـ أبى لا أحد يعرف له أثر جرة من شهرين، قلت يمكن يكون بحّر نواحيكم.

ربت العجوز على كتفه فى تحنان، قال:

ـ تعال يا ولدى، استرح من تعب الطريق.

أخذه من يده، فمشى بجانبه مذهولاً، توقفا عند بركة سقاية الخيل، كان السوط الذى سيط به أبوه ما يزال قابعاً فى قعرها، انحنى الفتى ليجلس، فسقط منه كتاب المطالعة، دفع الهواء غلافه، انتبه العجوز على رفرفة أوراق الكتاب، وشت عيناه بالدهشة، انحنى الفتى والتقطه، تناول مراد أفندى الكتاب من يده وتفحصه، سأله:

ـ أتعرف القراءة؟

تلعثم الفتى، قال:

ـ أعرف الحروف.

صمت، ثم استدرك:

ـ وأحب الصور.

ابتسم العجوز لبراءة الإجابة، تطلع حوله، غمر عينيه بهاء الوجود المحيط به، وسرى فى دمائه وخلاياه التعبة وجداً إلهياً، رتل بصوت مهموس:

«اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

صدّق فامتلأ بقوة خفية، وشعر بجسده خفيفاً مرحاً، مسح وجهه بكفيه، سأل:

ـ أتحب أن تقرأ؟

لم يحر الفتى جواباً، لكن نظرته المتوسلة وشت بحنين روحه، وتوقه الدفين ليعرف ما الذى تخبأه الكلمات خلف حروفها.

رنا العجوز إليه متأملاً جلبابه التيل النظيف، ابتسم له، قال:

ـ تعال سأعلمك القراءة، عندى من الكتب الكثير، يقيناً سيرمونها بعد موتى.

جنة من الخيال تراءت أمام عينيه وهو يرقب انعكاس مشهد العجوز أمامه، وجهه الطيب ينضح بحب مصفى للأشياء، كتفاه المعقوفان تنزل منهما ذراعان نحيلتان تنتهيان بأصابع طويلة شمعية، ترددات صوته المتكسر تخلخل الهواء من حوله وتعبر به انحناءات الزمن، بسمته ممتلئة وعداً يختزل قوة إنسانية لنفس صادقة، سمع الصغير رفيفاً خفياً أحس بوجوده من حوله، لكن عينيه لم تدركه، انتبه على ترتيل العجوز العذب الذى لم يفهم كل كلماته، قال:

ـ أنت منذ اليوم صديقى.

مضى الفتى بجانبه بقلب يسبح فى فضاء لا نهائى، فضاء يشع فيه نور يضيئ سديم حياته، حاول أن يتعرف دروبه المتشابكة، أحس كأنه قطرة فى محيط لا حدود له، وللحظة تجرد من كل خوف، لم يعد أبوه يشغل باله، ولا أمه التى رأى طيفها ينوح فى الطرقات بحثاً عنه.

* * *

هبط مع العجوز إلى غرفته الواسعة، أدار عينيه فى رفوف المكتبة، رأى كتباً كثيرة متراصة، فغمت أنفه رائحة القدم وعبق كعوبها المجلدة وأريج الحكمة الذى يلفها، أثارته كعوبها المزدانة بحروف مذهبة، وللحظة تمنى لو قرأها جميعاً، شاهنامة الفردوسى، الشرفنامة الكردية، رباعيات الخيام كانت فى متناول يده، أمسك بها بين كفيه، وقلب أوراقها المزينة بصور مصقولة، فيها جوار مرحات، وقصور وجواسق واجهاتها منمنمة، وقنان مترعة مرسوم عليها طيور زرقاء.

فتح العجوز النافذة، فأعشى الضياء القوى عينيه، راقب العجوز وهو واقف يرفع عينيه إلى السماء البعيدة، التى يتفرق على صفحتها رباب أبيض. مشى إليه حتى

وقف بجانبه، مد بصره، رأى طائراً جارحًا ينقض، يخطف كتكوتاً صغيراً من كتاكيت امرأة السائس، والمرأة تعدو يائسة نحوه، وهو تلوح بشمروخ النخل، لكن الطائر ارتفع محلقًا قابضاً بمخالبه على فريسته، أفاق على صوت العجوز وهو يهمس (الإنسان لم يزل طفلاً يعدو خلف حماقاته، وأمانيه، وكل لحظاته العابرة) . قاطعت أفكارهما خطوات الباشا فى الغرفة التى تعلوهما، تساءل العجوز (ماله يدور؟) .

* * *

لم يطل بهما المكوث، قال العجوز:

ـ تعال لنكمل نزهة الصباح، أتحب أن ترى الخيل حين يخرجها السواس؟ رد شافع إيجاباً، خرجا حتى وصلا إلى فسحة المكان التى تسبق باب القصر، كان جودت الرشيدى يقف مستنداً بكفه على حدبة مقببة لعمود قصير من الرخام الأبيض الذى يلف المدخل فى هيئة سور، منتظراً أن يأتى له الخادم بالكارتا التى يمر بها كل صباح مروره الاعتيادى فى الإسطبل، سمع نحنحة العجوز، فانتبه من أفكاره، استدار، رآهما قادمين نحوه، حين رأى الفتى أدرك لتوه من هو، فصعدت الدماء غاضبة إلى رأسه، عندما وازياه شعر شافع بلفح أنفاسه الغاضبة تضرب وجهه، ومسه خوف مما أشعت به العينان اللتان كانتا ترسلان كراهيةً واحتقاراً وهما ترمقانه، طوى جناحيه كطائر واجف يهم بالفرار، ارتد خطوة ليحتمى بالعجوز الذى همس:

ـ صباح الخير يا معالى الباشا.

رد الباشا متهكماً:

ـ خير؟ من أين؟ من هذا الولد يا مراد أفندى؟

ـ هو، ابن إبراهيم هوارى.

قال الباشا فى قرف:

ـ أليس له اسم يتسمى به؟

أجاب الفتى فى شجاعة مباغتة:

ـ اسمى شافع.

استدرك مراد أفندى:

ـ نعم، هو صديقى الصغير شافع.

انفجر الباشا فى ضحك ساخر قبل أن يرمى بغمزة قاسية:

ـ لكن، ماذا تراك فاعلاً به؟

أدرك العجوز اللمزة، وابتلعها بغصة محاولاً الرواغ منها:

ـ لا شيء يا باشا، ليكون لى عصا اتكأ عليها فى شيخوختى.

همهم الباشا متصنعاً التفكير، قال فى طيبة شيطانية وهو يضع كفه على كتف العجوز:

ـ ولكن زمن الخصاء قد مضى على ما أعلم يا مراد أفندى.

كانت الطعنة غادرة بأكثر مما يتحملها رجل عجوز يحمل مثل تلك المشاعر النبيلة تجاه الحياة على عمومها، امتقع وجهه، وارتجت الأرض تحت قدميه؛ تراجع ليستند على شافع، فامتدت يد الباشا فى غباء لتمسك بالفتى، قال:

ـ إسمع ياولد، أنا عندى ما يكفى من الحثالة، ولست فى حاجة إلى المزيد منها، إخرج من هنا، لا أريد أن أراك مرة أخرى، فاهم؟

كان الفتى يقف يائسًا حائراً بين كفين تتنازعانه، لم يستطع التراجع قبل أن يتساند مراد أفندى على أفريز الدرج وهو يغمغم بكلمات مبهمة، كانت عيناه ذاويتين، أشاح بوجهه عنه، حتى لا يراه وهو يلملم أحلامه الخائبة، ويستدير موليًا وجهه شطر البوابـة.

* * *

كان الخادم قد جاء بالكارتا، توقف بها عند الباشا، عندما سمع زومة غريبة مزقت سكون الإسطبل، رأى مراد أفندى بجسده النحيل ينهار ساقطاً على الأرض، جرى الخادم نحوه، التقط الباشا اللجام المتدلى، قال آمراً الخادم (خذه إلى غرفته).

تعاون الخدم على حمله، حتى دخلوا به إلى غرفته، أناموه على سريره، وحاولوا جاهدين أن يفيقوه، رشوا الماء على وجهه الشاحب شحوب الموت، ودلك أحدهم صدره الذابل الأعجف بكف يده، تأوه العجوز وفتح عينيه، أدارهما فى رعب فيهم، تمتمت شفتاه بكلمات لم يفهم منها الخدم شيئاً، كان يهذى بعبارات غريبة، آثروا أن يتركوه ليستريح.

كانت روحه فى منطقة بعيدة، منطقة تلفها أطياف تدور فى غبشة ذكريات أليمة، كم مرة حاول الإمساك بها لكنها كانت تفر أمامه، وفى كل مرة لاحت له، انفلتت وغاصت فى جب سحيق الغور، لكنه الآن يراها فى قاع نفس صافية، يراها بادية وجلية الوضوح.

* * *

طفل يجلس منكمشاً فى غرفة علوية، عندما ينفتح الباب تعلو أصوات، وتترامى إليه موسيقى لعوب تتثنى نغماتها الراقصة، وتتلوى معها ضحكات غنجة، تعقبها همسات حوجاء لوجاء.

دخل رجلان الغرفة، أشار أحدهما إليه أن يقف ويتبعه، كان أحد الرجلين يلبس استمبولينا سوداء(*)، ويضع على رأسه طربوشاً أحمر قانياً، يتأبط عصا قصيرة من الأبنوس، مد إصبعيه وبرم شاربه القصير، اقترب الرجل الآخر من الطفل، أمسك به

(*) الاستمبولينا : هى البزة التركية الرسمية .

من ياقة قميصه المتسخ، وفع وجهه بكفه الأخرى، ليجعل الوجه يواجه الضوء المنسل من النافذة، غمغم الرجل الآخر راضياً، بينما قلب التاجر جفن الصغير بإصبع سبابته، قال (ليس به أية صفرة معاليك، نحن لا نغش أبداً، إنظر بياض العينين بنفسك).

ثم ضغط بإصبعى السبابة والإبهام على الشدقين، انفتح الفم، قال الرجل للسيد:

ـ انظر معاليك، الأسنان مكتملة، ليس بها نقص أو عوج، وليس هناك أى حفر أو بخر فى الفم أو اللثة، حقيقى إنه لقطة، أتمنى ألا يفوتكم شرائه.

هز السيد رأسه مبتسمًا فى رضا، لكن المساومة ما كانت تفوته، انتهيا إلى الاتفاق على ثمن ارتضياه، أنقد السيد الوجيه الرجل، بعدها صفق الرجل بكفيه وهتف:

ـ كاظم.

جاء بغل يشبه البشر فى بعض ملامحه، قال:

ـ أوامركم.

ـ خذ الصغير وضعه فى عربة البك، هيا.

هز البك رأسه محييًا واستدار لينزل السلم، انحنى البغل وحمل الصغير، وهو يمضى به، واجهت مؤخرة الصغير الرجل صاحب الخان، الذى دس إصبع الوسطى فى إست الصغير، استدار الطفل مذعوراً، فقهقه الرجل، قال:

– حتى لا تنسانى.

أجلسه البغل فى العربة بجوار البك الوجيه، الذى ابتسم له ومسح شعره الأسود بكف يده، يستطيع الان أن يراه بوضوح كلما تقاطعت أضواء شوارع سالونيك على وجهه، هو أبو سمية هانم، دخله شيء من الاطمئنان، بعد أن تلاشت أصوات الموسيقى الصاخبة والغناء الممزوج بضحكات مخمورة، أرخى الطفل جسده المكدود وزحف ليستند بظهره، فاستقامت ساقاه، نظر السيد إليه، قال:

ـ اسمى عاكف بك، وأنت، ما اسمك؟

تمتم الطفل باسمه، فاهتز مراد العجوز المدنف هزات متتالية عصبية، رأى طفلاً صغيراً يخرج من بين ضلوعه، وينتصب فى منتصف الغرفة، كان فى نحو الخامسة، جذلاً بطفولته الغضة، ياه. كم من السنين لم يره، كل تلك الأعوام مرت من بين أصابعه، اقترب الطفل منه، وقف أمامه، انحنى له فى أدب، قال:

ـ أسعدت صباحاً مراد أفندى.

ـ أسعدت صباحاً يا ولدى، من أنت؟

نظر الطفل متعجباً، قال:

ـ أنا، أنتَ، ألا تعرفنى؟

ـ أنا؟ كيف، وأين كنت طيلة كل تلك الأعوام.

ـ ظللت هناك قابعاً فى ركن بصدرك، قبل تلك اللحظة المشئومة بثانية واحدة، لم أشأ أن أغادر براءتى.

أغض مراد أفندى عينيه لحظة، ولما فتحهما، سمع عاكف بك يقول:

ـ لا، لا، سأسميك باسم أفضل.

رآه يزن الهواء بكفه، قال: مراد، نعم مراد، ما رأيك؟

هز الصغير رأسه موافقاً، أطل برأسه من العربة وراقب السماء كانت معتمة، لم يستطع أن يدرك تلك الزرقة التى يعشقها، أخفض عينيه، كانت طرقات المدينة مرشوشة بالماء، صفت أحجارها متجاورة بيضاء، تقطعها موتيفا من بازلت أسود، أشعرته بالدوار مع حركة عجلات العربة التى اخترقت شوارع ضيقة يضوع فيها المسك، راقب الصالونات، والمقاهى بواجهاتها الزجاجية، وهم يعبرون محلات العطارة فغمت أنفه رائحة توابل حريفة، ملأ عينيه بمشهد صبية العطارين وهم يديرون أعمدة حديدية ضخمة بأذرعهم العارية المجدولة العضل، ليصحنوا التوابل

فى أوعية حجرية قدت من الجرانيت. قاطعت سير العربة مجموعة من الرجال يحملون قنانى زجاجية مملوءة بزيت الزيتون، رأى رتلاً من النسوة المنقبات، اللواتى رمقن العربة من خلف النقاب. أدركن أنها لجاه واسع الثراء، فتبادلن الهمسات والضحكات الصغيرة، رمى البك طرفه، وتصيد مواضع الأجساد الأنثوية واختبر بعينيه الخبيرتين استدارتها وطراوتها، ومسد طرف شاربه، لكنه أفاق على صوت المؤذن يرسل دعاء صلاة العشاء، لسان أعجم غير مضبوط الإيقاع، فارتد إلى الخلف كأن الله ضبطه متلبسًا، رأى بعض الرجال يهرولون وهم يخلعون أحذيتهم قبل الدخول إلى صحن المسجد.

بأمر من البك أوقف السائق العربة ونزل ليشترى بسبوسة من محل حلوانى، نعم كانت بسبوسة، ناوله قطعة وأخذ لنفسه قطعة، ابتسم الطفل فى فرح طفولى، أكل، فصعدت حلاوة البسبوسة إلى رأسه، والتصقت لزوجتها بأصابعه، أخذ يلهو بمراقبة لزوجة السكر بين أصابعه، اختفى الآن كل خوفه، وآنس للبك.

* * *

توقفت بهما العربة أمام بيت له طراز قديم، يحتوى على ثلاثة مبان ذات شرفات مغطاة بالخشب، تنتصف كل شرفة نافذة كبيرة تعلوها من الجانبين نافذتان صغيرتان، ويحيط المبنى كله سور به ما يشبه الأبراج، دق عاكف بك الباب بالمقبض الحديدى، وانتظر. برز خادم أسود داكن السواد ضخم الجثة لحيم البدن، له مشفران غليظان وأنف يتدلى منه خزام نحاسي، كان صوته أنثوياً، سأل:

- ماذا تبتغون؟

أجاب البك:

ـ مقابلة مصطفى أفندى.

فُتحت البوابة الكبيرة على مصراعيها، ودخلت العربة، نزل البك، ورفع الصغير وأنزله، مشيا بجوار الخادم حتى دلفا من باب البيت الأوسط، كان أمامهما بهواً فسيحاً تتوسطه فسقية ماء، حولها مثلثات من المرمر الأبيض والرخام الأسود تتعاشق لتصنع دائرة، انساب الماء من الفسقية فأحدث خريراً وشعشعت برودة عذبة فى البهو، جلسا على صوان من خشب لوزى اللون، وانتظرا.

ربع ساعة مضت، قبل أن يهبط الدرج الخشبى رجل متطيب بعطر قوى نفاذ، كان وجهه حديث الاغتسال، وشعره مبتل بقطرات من الماء عند الجبهة، لون بشرته أبيض يميل إلى الشحوب، وله عينان صفراوان ذابلتان من أثر النوم، تثاءب، فهو لم يفق بعد جيداً، مد يده وسلم عليهما، داعب الطفل بأصابع باردة، فسرت قشعريرة إلى جسده، رفع الصغير عينيه إلى السقف الذى تدلت منه ثريات ثلاث ضخمة، أصابه مشهدها بالدوار، خالها ستسقط فوقه، ارتد بصره، رأى الرجلين يتهامسان، أخرج البك حافظة نقوده الجلدية الفاخرة، بدا الفضول فى عينى الرجل، أمسك بالحافظة يتأملها، ثم أعادها إلى البك الذى أخرج منها أوراقاً نقدية، ناولها إلى الرجل، فابتسم شاكراً، بعدها نهض البك، فوقف الطفل، لكن يد الرجل الباردة أمسكت به من معصمه، وأجلسته، رأى البك يمضى عنه بعد أن حياه تحية رقيقة.

أخذت برودة البهو جسده، وتملكه خوف بعد مضى عاكف بك، خوف لم تبدده ابتسامة الرجل المطمئنة، ولا التصاقه المفاجئ به، تزحزح مبتعداً، فأولاه الرجل نظرة ازدراء، بعدها صفق بكفيه، جاء الخادم الأسود الضخم، نهض الرجل وهو يومئ إليه، أمسك الخادم بكف الطفل وابتسم له ابتسامة واسعة أبرزت أسنانه البيضاء النضيدة، رأى مصطفى أفندى يصعد الدرج الخشبى المفضى إلى الدور العلوى، نهض مع الخادم الذى أخذه من يده، ومشى به حتى خرجا من البيت، وعبرا ممشى مفروش بالحصباء يقطع الحديقة بعرضها، وينتهى عند غرفة بجوار سور البيت، توقفا

أمامها، أخرج الخادم مفتاحاً كبيراً من عبه مربوطاً إلى سرواله بخيط من الحرير، أدار المفتاح فى قفل الغرفة، وفجأة دفع الطفل بكفه فى بعض عنف، وأغلق الباب عليه.

كان المكان غارقاً فى ظلمة حالكة، فلم يستطع أن يرى شيئاً، تحسس طريقه فى الظلام، سمع أصوات أطفال ترشده، وتحاول أن تبعد قدميه متى اصطدم بهم، تساند على الحائط، وظل واقفاً حتى اعتادت عيناه الظلمة، رأى ستة أطفال فى مثل سنه، كانوا جالسين على بساط يغطى أرض الغرفة كلها، سرت برودة فى أطرافه، وأمسك به رعب قصى، أمسك طفل من الجالسين بيده، وهمس فى خشية له (اجلس)، جلس معهم، كانوا جميعاً متلاصقين أحدهم بالآخر، أنس إلى الدفء المنبعث من أجسادهم، تحادث معهم فى همس، كانوا فى مثل جهله، بعضهم أبدى خوفه، والبعض الآخر هون الأمر بكلمات ساذجة، صمتوا حين سمعوا وقع خطوات تقترب، فتح الخادم الأسود الباب، فتساقط ضوء من فانوس كبير تتوسطه شمعة، أداره فوقهم، سأل:

ـ أين الولد الذى أحضرته أخيراً؟

وقف فى أدب، مد الخادم له سلطانية من الخزف بها لحم مسلوق وثريد، قال له:

ـ هذه لك، تأكلها وحدك الآن أمامى.

أخذ السلطانية من يده وجلس على الأرض يأكل فى صمت ونهم، بعد الأكل جاء خدر ثقيل وأمسك بأطرافه، فأمسى راغباً فى النوم، مرت دقائق بعدها جاء خادم آخر يكاد يتطابق فى الشبه مع الخادم الواقف عند رأسه بالفانوس الذى تكسرت ظلاله على بقية الأطفال، كان الخادم يلبس مريلة بيضاء ناصعة البياض محزومة من الوسط، ومثبتة بشريط يلف الرقبة، أشار إليه بإصبعه لينهض، لكن قدميه كانتا خائرتين، فلم يستطع، تقدم نحوه الخادم بينما أضاء له الآخر المكان بأن رفع الفانوس عالياً، انحنى الرجل عليه وطوقه بذراعيه ورفعه، وخرج يحمله، سمع قرقعة صوت المفتاح فى قفل الغرفة، مشى به الرجل حتى دخلا داراً صغيرة ملحقة بالدار

الوسطى، أنزله، وأجلسه على أريكة خشبية، نظر له الطفل متسائلاً بعينين دائختين، جفف الرجل عرقه بمنديل أبيض وعدل من هندامه، بعدها مد يده إليه، وأخذه إلى غرفة متسعة مطلية باللون الأبيض سقفها عال بعيد، ونافذتها المفتوحة ثبتت عليها قضبان حديدية، أغلق الرجل الباب عليه وخرج، دار الطفل بعينيه فى أرجاء الغرفة، رأى فى أحد أركانها طاولة عالية مغطاة بملاءة بيضاء، ملمسها طرى قليلاً، لاحظ ذلك عندما حاول الجلوس عليها ليرى ما وراء النافذة، لكن النافذة كانت أعلى من أن يطاولها، سمع وقع أقدام آتية، فتراجع وعاود الجلوس مكانه، فتح الباب، فسمع له صرير موجع، أطل الرجل الأسود بوجهه وابتسم له، كان الرجل الآخر الذى يشبهه معه، توقفا عندالباب وراحا يثرثران، ثم صمتا فجأة عند سماع صوت أقدام تمضى نحوهما، بعدها سمع الصغير صوت مصطفى أفندى، أطل بوجهه الأبيض الشاحب، بدا له شمعى الملامح، تفوح منه رائحة صيدلانية، اقترب منه، وضع كفه على رأسه، ابتسم له، ثم نظر إلى الرجلين الآخرين، ابتعدا قليلاً عنه وتهامس معهما، هزا رأسيهما.

فجأة ضربه الخدر ضربة قوية، فغامت عيناه وتراقصت أمامه أطياف الرجال الثلاثة ورفعه أحد الخادمين، وأجلسه على الطاولة، أمره (نم)، تمدد بجسده، جاءت موجة أشد من الخدر أمسكت أطرافه، وسرت ببرودة كالصقيع إليها، انحنى عليه مصطفى أفندى، نظر فى عينيه، أمسك معصم يده، راقب انخفاض النبضات، وبادل الرجلين الواقفين النظرات، رأى الطفل يغوص إلى عمق أكبر فى خدره، تكاد عيناه تنغلقان على الرغم من مقاومته اليائسة، مد مصطفى أفندى كفه ونزع سروال الطفل، أطلت ذكورته منكمشة خائفة، مرتدة إلى الخلف تكاد تغوص فى عانته، داعبها الخادم بأصابعه كأنه يداعب طفلاً صغيراً، ضحك فزجره مصطفى فى حزم.

بلغ الخدر بالطفل مبلغه، لكن عينيه ظلتا مفتوحتين، تقدم الخادم الآخر منه جمع ذراعى الصغير وقبض عليهما، ارتد الخادم الثانى إلى الخلف، فتح قدمى الصغير على آخرهما، بين توسطهما مصطفى أفندى، رفرف قلب الطفل فى صدره كطائر ذبيح، وكسا الذعر قسمات وجهه، نظر إليهم متوسلاً متسائلاً، لكن حيرته ضاعت بين همهماتهم السريعة المقتضبة.

كان صوت مصطفى أفندى آمراً حازماً، ووجهه يشع إصراراً وقسوة، غامت عينا الطفل وانعدمت أمامه الرؤية، لكنه أحس بأصابع الرجل الباردة تمسك جلد الصفن، تفركه لتفك تغضنه، وتشده لتسرى بالدماء إليه، أحس بوخزة ألم من جراء ضربة مبضع محترفة فتحت فتحة صغيرة فى جلد الصفن، دس الرجل إصبعاً داخل الصفن وجذب إليه الخصية بقوة حتى أخرجها بعروقها التى تشدها إلى الجسد، قطعها، وعقد حبال رجولتها المنتظرة، عاود فعل ذلك مع الخصية الأخرى، كوى الجرحين بسائل حارق انساب بين فخذيي الطفل، ثم لفهما بالقطن والشاش فى دربة يد خبيرة، وبنظرة أرخى الرجلان أصابع أكفهما المتشنجة على اليدين والقدمين، بعدها خرج الرجل الأبيض الشاحب وغادر الغرفة.

حمله أحد الخادمين، ودخل به غرفة أخرى فائقة النظافة، بها عدد من الأسرة أنامه على واحد منها، خلع عنه ثيابه، وللحظة تأمل الجسد الأبيض الغض، ولمعت فى عينيه نظرة مخيفة، ضرب الطفل على جنب إليته وهو يلبسه جلباباً أبيض، قال:

- إياك والحركة من سريرك، وإلا قطعنا لك يديك ورجليك، فاهم.

هز الطفل رأسه، بعدها خرج الرجل وتركه وحيداً، كان يود أن يبكى، لكنه خائف، ارتعش جسد الطفل مرات، حاول النوم فلم يستطع.

* * *

مضت ساعتان وهو مستلق، يذوب فى خوفه، بعدها توالى وصول الأطفال، يحملهم ذلك الخادم أو ذاك، يمددهم، يبدل ثيابهم، يحذرهم مثلما حذره، أشعره وجودهم بالمؤانسة والألفة، فتراجع بعض خوفه، لكن قلبه الصغير مزقه أنين بعضهم وبكاؤه، ولما أوغل الليل ناموا جميعاً، ما عداه، هو فقط ظل صاحياً حاضر الذهن يراجع ما حدث مرة تلو مرة.

* * *

فى الصباح تجرأ ومد أصابعه، تحسس جرحه، فتش فى لهفة عن اللؤلؤتين اللتين كان يداعبهما عندما يندس تحت الأغطية فى ليل الشتاء الفائت، فيشعره ذلك بلذة قصوى، خاصة إذا ما انتصب قضيبه الصغير، فتش فى سرعة فلم يجد شيئًا، عاود التفتيش بعد أن داخله الشك، لكنه فعل ذلك فى قسوة وجنون، أحس بسائل لزج بين أصابعه، رفع كفه، صرخ عندما رآها مصطبغة بالدماء.

على أثر صرخته جاء الخادم الأسود مهرولاً مذعوراً، توقف عنده، أمره أن يرفع جلبابه، نظر إلى الجرح، كان الدم ينز منه، طهره الرجل بقطنة مبللة بصبغة اليود، ثم صفع الصغير على وجهه محذراً إن فعل ذلك مرة أخرى سيلقى جزاء أشد، ثم تركه وخرج.

يوم، يومان، ربما ثلاثة، لا يذكر، جاء عاكف بك، وأخذه معه إلى البيت.

* * *

مرة أخرى خرج الطفل المختبئ فى صدره، مشى ووقف عند سريره، مال عليه، ومس بأصابعه الرقيقة جبينه، فتح العجوز عينيه، رآه، ابتسم له ابتسامة وديعة، قال الطفل له:

- جئتك مودعاً.

- إلى أين؟

هز الطفل رأسه، قال:

- إلى حيث لا يدرى أحد، سيرحل كل منا إلى وجهته.

- أية وجهة؟

- ليتنى أدرى، وداعاً أيها الشيخ الطيب، ودا...

كان يرقبه فى صمت وهو يتلاشى، فجأة انقطع الخيط به، دار فى فراغ هائل، غام وجهه وأربد، تشنجت أطرافه، وتعكر صفو البللورة التى كان منذ لحظات ينظر فيها، سمع صوت إناء زجاجى يرتطم بشدة وينكسر، فاحت رائحة توابل شريرة ملأت أنفه بتلك الرائحة الصيدلانية التى فاحت يوماً من الطواشجى، ارتعد جسد الرجل العجوز رعدات قوية متتالية، صرخ صرخة عالية، سمع هرولة الخدم، وصوت الباشا يأمرهم باستطلاع الأمر.

غاب عن وعيه، حاول الخدم جاهدين إفاقته، رشوا ماء الكولونيا على وجهه، ودلكوا له صدره، فارتد الصحو إلى عينيه، لكن الجسد كان يهتز اهتزازاً عصبياً شديداً. وبعد نصف ساعة طلب جرعة ماء بلل بها شفتيه، بعدها انصرف الخدم عنه، ولم يبق إلا واحد ظل يلازمه، طلب العجوز منه أن يفتح النافذة، ففعل، انسلت نسمة هاربة من قيظ ذلك النهار ولثمت جبينه، تنهد وابتسم، أدار وجهه نحو النافذة، رآه، كان جالساً عند أفريز النافذة ضاماً جناحية، بادله التحية، تأمل محياه المحايد ونظرة عينيه الغائمتين اللتين تختزلان وتختزنان كل مشاعر الأرواح المقبوضة.

* * *

داهمها شعور مفاجئ بأن شيئاً جللاً يحدث هناك، ذلك الشعور ظل يلازمها طيلة مكوثها فى بيت ابنها، استأذنتهما، تعجبا، حاولا أن تبقى معهما أياماً أخرى، لكنها رفضت رفضاً قاطعاً، وفى طريق العودة كانت سمية هانم تطلب من السائق أن يزيد من سرعته، وصلت إلى القصر والغروب يزحف وئيداً، وحين نزلت من السيارة، باغتها صمت مريب، لف الأشياء من حولها، كانت الأشجار تحنى هاماتها، انسلت العصافير إلى أعشاشها، وقبعت ذكورها على الأغصان واجمة، وصار الهواء ثقيلاً من حول السيدة، أوسعت خطوها نحو القصر، وعندما صعدت إلى غرفتها، تبعتها الخادمه،

أسرت لها بأخبار ذلك النهار، هرولت، كان الباشا واقفاً عند أول الدرجات فتجاوزته محيية تحية مقتضبة، هبطت السلم الداخلي المفضى إلى غرفة مراد أفندى، ركعت بجوار السرير، راقبت الوجه الذابل والعينين المطفأتين، أخذت كفه الباردة المدلاة بين راحتيها، همست فى حنو:

ـ أبى، مراد أفندى.

فتح عينيه، أشعت فيهما فرحة ساذجة طفولية، ابتسم لها بسمة طائر عجوز متعب فابتسمت له، توحدا فى لحظة لم تدم طويلاً، شهق العجوز شهقة طويلة، أبقت عينيه مفتوحتين، تعجبت وهزته هزاً خفيفاً، أدركت ما حدث، فانكفأت على الجسد تبكى.

الباشا الذى تبعها مد ذراعيه تحت إبطيها ليرفعها، رفعت عينيها إليه، رمته بنظرة قاسية، تقطع بمعرفتها لما حدث، همست:

ـ قاتل حقير.

فارتد مبتعداً والغضب يكسو ملامحه، تبادلا نظرات العداء، لكنها حين عاودت النظر إلى مراد أفندى، لم تر سوى وجه طفل صغير لم يتجاوز الخامسة من عمره.

* * *

بانوراما

بهزيمة النازى وانتهاء الحرب، عادت مريدة جودت إلى باريس لاستكمال دراستها للآداب فى السوربون، بينما عاد نور الرشيدى إلى حوزة الأمن العام لمتابعة الأنشطة السياسية المختلفة التى نحتها ضرورات الحرب وقللت من فعاليتها، بينما لم يتغير وقع الحياة اليومية لجودت باشا كثيراً، واستسلمت سمية هانم لحالة من الاعتكاف والتأمل بعد موت مراد أفندى، وأنجبت ليلى كمال الدين طفلها الأول من

نور الرشيدى، فى ظل زواجهما السرى، أما القاهرة -المدينة التى بناها جوهر الصقلى من ألف عام- فلم تزل تبحث عن حلمها المزمن فى أن تصبح عاصمة لبلد مستقل، وبما أن ذلك الحلم أصبح أكثر بعداً بعد اغتيال أحمد ماهر فى الممر المفضى بين مجلسى النواب والشيوخ حاملاً معه وثيقة إعلان مصر الحرب على ألمانيا فى فبراير ١٩٤٥ عملاً بوصية تشرشل للملك وإلماحه بأن الدول المعلنة للحرب هى فقط التى سوف يتاح لها الاشتراك فى مؤتمر سان فرانسيسكو.

* * *

وبانتصار الحلفاء، بدأ النجم السوفيتى الأحمر أكثر النجوم لمعاناً فى سماء العالم، كان انتصاره انتصاراً للاشتراكية، تأججت دماء الشباب المصرى المملوء حماساً، واندفع فى جماعات للانضمام إلى التنظيمات اليسارية، التى كان أهمها (حمتو)، و(اسكرا) وعلى الرغم من أن برامج تلك التنظيمات لم تكن تولى القضية الوطنية الأولوية فى مقابل بحثها عن تربية الكادر الثورى على قيم الاشتراكية الدولية، إلا أن واقع الأمر هو أن القضية الوطنية كانت الأتون الذى تنصهر فيه مشاعر كافة الاتجاهات الوطنية، من يتخلف عنها، يحترق.

* * *

قبض على مطبوعات الرينيو بيديه حين مد له (كمال الضوى) يده بها، تأملها (فتحى إبراهيم) لحظة قبل أن يدسها فى جيب معطفه الداخلى، ذلك المعطف الرث الذى حصل عليه من معونة الشتاء، كان معطفاً ثقيلاً يليق بصقيع شمال أوروبا، يضفى عليه مظهر زعيم من زعماء الفاشيست، شد كل منهما على يد الآخر، قال (ضوى):

ـ يونس يبلغك السلام.

قال فتحى:

ـ إبلغه أيضاً تحياتى.

لم يكن بعد سوى متعاطف، انضم مؤخراً إلى (حمتو)، لم ير يونس بعد، لكنه سمع عنه الكثير، وتمنى أن يلتقى به.

فتح باب الغرفة، تلقفه على الفور السلم الخشبى، درجاته المتآكلة أزت تحت وطأة حذاء ثقيل من أحذية جنود الحلفاء تم تعديله على يد حذاء القرية ليصبح قابلاً للاستخدام المدنى، كان عليه أن يظل محتفظاً بها فى حالة جيدة طيلة أعوام دراسته فى كلية الطب.

عندما صافحت قدماه رصيف الشارع كانت الساعة تقارب الثامنة مساء، مست وجهه ريح باردة، وداعبه رذاذ مطر خفيف، فرفع ياقة معطفه، رأى وجهًا يتفحصه، تراشقت عيونهما لحظة، لكن المخبر نحا عينيه بعد أن أدرك من الحذاء الميرى المهذب والمعطف الأوروبى أن من يعبره لابد أن يكون ضابطاً من ضباط الإدارة يتفقد الأحوال.

دق المخبر الأرض بحذائه تحية، قال:

ـ تمام يا أفندم.

زم فتحى شفتيه، وهز رأسه، قال فى ثقة وهو يتكتم ضحكة:

ـ كله تمام؟

ـ الأمور على خير وجه.

قال وهو يعبره:

- افتح عينيك جيداً.

أحكم المخبر لف تلفعيته، غزا الفتى السير، أمامه ارتسمت القاهرة أمًا حزينة دوماً، وأرملة أدمنت ترملها لمجانين وخونة وحالمين وأطفال لم يبلغوا بعد سن الرشد، كل من حكمها صفق له جيش من الإمعات والمنافقين وسلسلوا نسبه حتى وصلوا به إلى الأولياء. لكنه فى وسط الظلمة الحالكة رأى شجرة الدّر وهى تقاتل بملك ميت جيش الفرنسيس وتدحره ، ثم أطل صلاح الدين يشق طريقاً ومن خلفه صيحات الجند وهم يدخلون بيت المقدس .

كانت أفكاره تمور داخله، والوجوه تترى، حتى وقفت به عند أب وأم فلاحين يقتطعان من قوت يومهما القليل ويمدان له يديهما، أمه الآن منحنية تضرب الأرض بفأسها ثم تعتدل لتمسح قطرات عرقها، ثم جاء أبيه ومد له يده بريالات فضية مستديرة، تبرز وجه الملك الجديد، خالها قطرات حمراء من دماء البلهارسيا، ومن قطرات عرق أبيه، هتف فى دمائه هاتف (ستولد مصر من جديد)، فاجأه رتل من جنود الاحتلال فى عربة جيب عائدين إلى معسكراتهم ، وهم قادمون من سهرة بإحدى بيوتات القاهرة الأوروبية، انتهت إليه أصوات غنائهم أجشة مشروخة (جنتلمان، جنتلمان) همس لنفسه (صبراً، يا أولاد القحبة، صبراً)، تذكر قولة ضوى الساخرة (الملك؟ هه، الملك ضرورة وليتنى أعرف لماذا؟) فابتسم.

فى ركن الشارع المفضى إلى حجرته الحقيرة وقفت مومس، همست (بس، أنت، الساعة كم؟) نظر إليها ثم عبرها، كانت تضع طبقات من الأصباغ على وجهها، تبدو نحيلة عجفاء، صرخ له جسدها (يمكنك أن تجامعنى أو تواقعنى دون أن تدفع سوى القليل الذى يسد رمقى، أو رمق أطفالى، لقد طارحت قبلك عشرات، كانوا متى انتهوا يرمون لى ككلبة ما يقيم أود أولادى الجياع المهيضى الجناح المرضى، الذين تزورهم الأوبئة كالغجر فى مطلع المواسم، أوبئة من كل نوع، ملاريا، كوليرا، طاعون، بحسب ما تحمله الريح الصفراء إليهم، تعال إذن)، توقف، واستدار راجعاً

إليها، ابتسمت حين أصبح قبالتهـا، صرخ فيهـا (ماذا تريدين؟ ومن أنت؟)، داخلها شك في عقله، فهرولت مبتعدة، عاد يعبر الشارع إلى النيل، توقف أمامه، تكسرت ظلال الأضواء على صفحته الساكنة الداكنة العتمة، ومن بعيد رأى ضوء مصابيح بيوتات القاهرة الأوروبية ساهرة في يوم أحد، سمع أبواق السيارات المكتظة بالسكارى تمرق أمامه تسبه بكل اللغات (فكينج، لازى، موف)، بينما تفرقع قهقهاتهم في الفضاء وتهوى على قفاه العريض الفلاح، مضى إلى غرفته الوضيعة فوق سطح بيت من بيوت شارع سيدى العليمى ببولاق، وهو يمرق إلى زقاق بيته اصطدم به بعض أولاد الزقاق بأقدامهم الدائخة من أثر المنزول، هتف أحدهم (رحت لطبيب الغرام، قال لى يا..)، عبر البذاءة صاعداً إلى غرفته، ارتمى على حشية من مزق الخرق الموضوعة على حصيرة، اقتلع نعله، وألقاه مصحوباً بتحية المساء إلى إسماعيل الخولى الطالب الدارعمى، فغمغم بما يشبه التحية وواصل انكفاءه على كتاب أصفر قديم يحاول أن يفك مغاليق بيت من بيوت ألفية بن مالك:

- ومن مضارع لكان منجزم تحذف نون وهو حذف ما التزم.

رآه يتمايل جيئة وذهاباً وهو يستظهر كالحمار (وإذا جزم الفعل المضارع من كان قبل لم يكن والأصل يكون فحذف الجازم....)

إسماعيل هذا صاحب أعوامه الثلاثة التى قضاها فى القاهرة، كل شهرين يغيب عنه عائداً إلى قريته أيامًا، ثم يعود إلى القاهرة حاملاً زنبيلاً يفوح برائحة الريف، الحلبة والأرز المعمر والعيش المرحرح، يفض الدوبارة التى تخيط وجه المقطف ويحصى الأرغفة، عليها أن تكفيه أطول مدة ممكنة، وهو لا يكف عن المذاكرة والتحصيل، لكنه بالكاد ينجح كل مرة يسب الحظ والدنيا وهو يتلو على فتحى أسماء أصحابه:

- أحمد واكد يدخن السجائر تصور، ومع ذلك حصل على جيد، وعلى عويضة ابن الحرام الذى يسرق فى كل مرة يزور فيها بلدهم ريالاً من جيب أبيه ثم يذهب

إلى مومس فى درب طياب، بعدها يظل شهوراً يقترض من طوب الأرض ليدفع للصيدلانى ثمن حقن البنسللين لعلها تخلصه من السيلان الذى كلما برأ منه عاوده، ابن الكلب حصل على جيد جداً، جيد جداً، تصور، جيد جداً مع مرتبة السيلان، لابد أن إدارة الكلية أنشأت له هذه الدرجة خصيصاً.

كان فتحى غائباً، يدور فى سمائه الجديدة الواعدة، فلم يسمع كلمة واحدة مما قاله إسماعيل الخولى الذى أدرك شرود صاحبه فانصرف إلى ألفية بن مالك وراح يستظهر نظمها.

انتظر حتى تسلل النوم إلى أجفان إسماعيل، رآه يتثاءب، قال وهو يخفض ضوء اللمبة الجاز:

- تصبح على خير.

بادله التحية، ولما انتهى إليه شخيره، رفع ضوء اللمبة، وأخرج نشرات الرينيو من جيب معطفه المعلق، لم يكن فى حاجة لأن يقاوم النوم، ظل يقرأ حتى الفجر وحين أحس بحركة إسماعيل يستعد للنهوض لصلاة الفجر كعادته، أخفى النشرات عنه.

عندما نهض إسماعيل، رآه مستيقظاً، عجب من شأنه، سأله:

- مالك يا فتحى، من البارحة وأنت شارد، لا ترد، أهناك شىء يضايقك؟

غمغم، لم يفهم منه إسماعيل شيئاً، فانصرف إلى وضوئه، وهو يتمتم:

- لله فى خلقه شئون يا أخى.

انتظر حتى خرج إسماعيل، وأعاد إخراج النشرة الأخيرة،لم يسترح حتى أتى عليها، وضوء الصباح يملأ الغرفة عليه، لم يكن أكل شيئاً منذ الأمس، قلب فى قفة إسماعيل، أخرج كسرة خبز جافة وقطعة من الجبن القريش التهمها التهاماً، ولما انتهى تناول معطفه من على المشجب، لبسه، ومضى.

* * *

دهش (كمال ضوى) بوجهه النوبى المستدير وعينه الضيقتين الحادتين اللتين حملقتا دهشة فيه، لمحت عينه الثاقبة طرف أحد النشرات يتدلى من جيب المعطف، فخمن أنه جاء ليعيد الأوراق إليه وينسى الموضوع كله، قال متوجساً:

- تفضل، ادخل.

لساعات لم تفارق الدهشة ضوى، حذق فى المحاورة، فهم عميق للمعانى، ترتيب رائع للأفكار، ووصول منطقى للنتائج، وصوت هادئ واثق يكاد يتابع نفس تعبيرات المنشورات، خرج ضوى عن صمته، قال:

- قطعت بقفزة واحدة ما لم يستطعه غيرك فى شهور، لا أدرى أأهنأك أم أهنأ نفسى برفيق جديد، معنا حتى نقتلع حكم جلادى الفلاحين والعمال، دعنى أختار لك اسماً، (صمت مفكراً، ثم قال) اسمك بيننا (الجارحى).

بعدها بأيام، نزل من بيته مخدوعاً بوهم صباح شتائى مشرق، انحنى ليلتقط جريدة (المصرى)، طالعه وجه كمال ضوى صـارمًا كما عهده دوماً، ومقتولاً كما لم يدر لحظة فى خياله أن ذلك ممكن، اغتيل كمال ضوى برصاصة واحدة فى منتصف جبهته، رصاصة قالت عنها الشـرطة بعد ذلك (أن أحداً لم يسمع دويها)، لا شهود، لا أدلة، ولا أحد يتعب نفسه فى تقصيها، قيدت القضية ضد مجهول.

أمسك عن عينيه دمعتها بإرادة من حديد، لا وقت للبكاء، سيدفعون الثمن، أقسم على ذلك.

دون تدقيق كبير، جاءه الأمر سريعًا (أنت مسئول المنظمة فى جامعة فؤاد الأول) ومع الأمر رزمة من الأوراق تحتوى على تحليل لآخر تصورات المشهد السياسى، وقراءة للمذكرة الإنجليزية فى فبراير ٤٦، التى جاءت رداً على مذكرة النقراشى باشا، بما يعنى أن الإنجليز متمسكون بمعاهدة ١٩٣٦ وبمصر حتى الرمق الأخير لإمبراطوريتهم الغاربة.

أسبوعان مضيا، وأصبح اسم الجارحى يتردد همسًا بين صفوف الطلبة، فقد أضرم ناراً أقسم ألا تطفئ قبل أن تحرق من قتلوا كمال ضوى، كانت المنشورات تتجاوز الحدود التى رسمها التنظيم، أزعج ذلك المكتب السياسى، لكنه غض البصر أمام أعداد المجندين الجدد الذين وافاهم بهم.

ثم...، تعليمات صدرت إليه بوجوب تنظيم مظاهرة محدودة لصهر الكادر الجديد فى أتون العمل الثورى، همس وهو يطوى الورقة (مظاهرة محدودة، هه، بل ثورة أيها الأغبياء، ثورة سيقودها كمال ضوى من مثواه، سيعلمون كيف يكون ثأرنا).

* * *

كل من يمضى فى طريقه إلى الجامعة، يراه قاعداً مفترشاً الأرض، متدثراً فى أسمال بالية، عيناه سابحتان فى فضاء خاص به، وما من أحد رآه إلا عجب وتساءل (كيف لكل هذه القوة الخارقة، وهذه العظام الضخمة، أن تظل مكومة على الأرض بلا حول ولا قوة! آه لو تحركت هذه الكومة، لأطاحت بكل تلك السخريات البذيئة التى يلقيها عليه بعض الطلبة الطائشين).

فتحى إبراهيم نفسه لم يفته طيلة سنين دراسته أن يتأمل ذلك الكائن أكثر من مرة، وأكثر من مرة أعلاه خيالاً ليصبح رمزاً للقوة الحبيسة التى لا تعى ذاتها، لو أنها أدركت نفسها مرة واحدة، لتغيرت أشياء فى وجودها، ولانقلبت من السكون الهادئ إلى الحركة الفاعلة، إنه رمز لمصر هذه الأمة الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ. لكنها فى أول منحنى فقدت فيه وعيها بذاتها وقوتها، استسلمت لسيل من الغزاة.

كم من مرة راوده خاطر أن يجلس إليه ويحادثه، لكنه فى كل مرة يحجم فى اللحظة الأخيرة، ويظل يتأمله، تلك اللحية المتدلية ألا تخبئ خلفها حكمة أو بصيرة،

أشد ما كان يثير أحاسيس متضاربة فيه، تلك الابتسامة الوديعة الطيبة، التى يوزعها مجاناً بلا تمييز، كل من أعطاه ابتسم له، وكل من لم يعطه ابتسم له أيضًا، وأولاه نظرته التى تفيض حباً لتلك الأجساد الغضة التى تمضى فى طريقها لالتماس العلم.

كان شافع قد كف منذ عامين عن البحث عنه، بعد أن أيأسته الطرقات والوجوه التى نفت معرفتها به، وهو لم يعد يذكر إلا من بعيد طيفين أحياناً يختالانه، ثم ما يلبثان أن يغيبا مع الأقدام الساعية إلى الجامعة.

* * *

خليته التى يرأسها، بها أربعة وجوه فتية حالمة جموحة، ووجه واحد تمسك به صفرة متمكنة تقطع بذات الرئة، لا يعرف أحدهم عن الآخر سوى اسمه الحركى، فترشيحاتهم جاءت بهم من أماكن متفرقة قام بها المكتب، وعندما ينفضون لا يرى أحدهم الآخر إلا فى الموعد التالى، أو إذا اقتضت مهمةٌ ما، كان لقاءهم كلهم أو بعضهم، كثيراً ما حملق فى وجوه المارة لعله يلمح وجهاً واحداً منهم، لكن ذلك لم يحدث أبداً.

فى هذه المرة كان اللقاء من أجل تنسيق العمل للمظاهرة التى طُلب منه تنظيمها للخروج من الجامعة إلى الشارع بأعداد محدودة من أعضاء التنظيم، لكنه أخبر أعضاء الخلية بغير ذلك (الهدف من المظاهرة هو الالتحام بالجماهير فى الشارع، نريد عملاً ضخمًا كبيراً، تهتز له مصر من أقصاها إلى أقصاها، بالطبع ستأتون إلى الجامعة منذ الغد).

وزع عليهم الأدوار والمنشورات والشعارات، وانتهى الاجتماع.

* * *

حول النصب التذكارى لشهداء الجامعة الذين سقطوا فى انتفاضة ١٩٣٥ تجمع مئات الطلبة وبعض من الطالبات، ليعلنوا التعميد السياسى للجامعة، اعتلى المنصة فتحى إبراهيم، تهامست شفاه (أقسم إنه الجارحى، ممثل المنظمة فى اللجنة) اشرأبت الأعناق إليه، قال:

- يا زملاء، منذ أيام تفضلت العظمى بريطانيا بالرد على مذكرة النقراشى، مذكرة أبى خطوة، فانظر ماذا كان رد الإنجليز، إنهم يرون أن المبادئ الأساسية لمعاهدة ١٩٣٦ سليمة فى جوهرها، بمعنى آخر، إنهم لا ينتوون الرحيل، وإن استعمارهم لبلادنا باق، ولم يعد لنا سوى ردنا الخاص عليهم بعيداً عن الحكومات، علينا أن نرد بطريقتنا على ذلك الهراء، طريقتنا، بالطبع تعرفونها، سنشعلها ناراً، فإما الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

زأرت جماهير الطلبة حتى اهتزت أركان الجامعة بالهتاف، وما إن هدأت الهتافات حتى اعتلت المنصة فتاة من يسار الوفد، صاحت بأعلى ما فى صوتها:

– كلمة أخيرة، قبل أن تخرج جموعنا إلى الشارع، حافظوا على وحدة صفوفنا ووحدة شعارنا (الاستقلال التام، أو الموت الزؤام)، لنكن طليعة جديرة بالوطن، بمصر.

* * *

انطلقت المظاهرات إلى ميدان الجيزة فى اتجاه كوبرى عباس تحدوها هتافات مدوية هدفها أن تعبر الكوبرى لتلتحم بجموع الشعب، وكما كانوا يدركون ذلك، كان الإنجليز أيضاً يدركونه جيداً، ولن يسمحوا به مهما بلغ الثمن، وفى اللحظة التى اندفعت جموع الطلبة لتعبر الكوبرى عند منتصفه، امتدت يد غادرة وفتحته، فتهاوت أجساد بعض الطلبة من حالق ساقطة فى ماء النهر.

عندها ارتد فتحى إبراهيم ونزل عن كتف حامله، محاولاً إعادة تنظيم صفوف الطلبة الذين شاعت فيهم الفوضى، وفى لحظة برقت فى ذهنه الفكرة، تخير عدداً من طلبة الهندسة الأشداء ونزلوا إلى غرفة التروس، حاولوا جاهدين أن يديروا عجلاتها حتى بلغ بهم العى مبلغه، اعتدل يجفف عرقه ليستعد لجولة جديدة مع الآلة، فرأى أمامه وجهًا يعرفه جيداً ونظرة سابحة فى مطلقها، غير أنها فى هذه المرة مملوءة عزماً طليقًا وإدراكًا لقوتها العاتية، كان إبراهيم هوارى بجانبه، مد ذراعيه وأمسك بالعجلة التى حاولت أن تثنيه عن عزمه ليس لأكثر من ثانية واحدة، ثم دارت فى سرعة، ولم يعد لها أن تتوقف أبداً، قبل أن تضم شطرى الكوبرى.

رأوه يصعد كالمارد، اختفى فى ثانية عن عيونهم المحملقة، فتبعه فتحى صاعداً خلفه، رآه يتقدم جموع الطلبة، حاول اللحاق به، لكنه كان عند الطرف الآخر من الكوبرى، هناك برزت لهم قوات كثيفة من البوليس المصرى يقودها ضباط كبار من الإنجليز، انهالت زخات الرصاص كالمطر على أجساد المتظاهرين.

كان إبراهيم هوارى ماضيًا فى طريقه تصفر من حوله رصاصات أخطأته، حملقت فيه عيون الجنود مندهشة، وسط صراخ كبار الضباط (فاير)، فيترجمها الضباط الآخرين (أطلقوا الرصاص)، وإبراهيم يشق طريقه بين صفوف الجنود وهم يصرخون فيه، (توقف)، أزاح عدداً من الجند بساعديه، هتف (أنا ذاهب لولدى وزوجى، أنا ذاهب لشافع وبدوية)، عندها أطلق ضابط رصاصة من مسدسه فأصابت منه مقتلاً، زحف متراً، فمتراً وهو يردد (أنا ذاهب لبيتى)، ثم انكفأ بفمه الذى سالت منه الدماء محاولاً أن يقتطع شبراً آخر إلى بيته، لكنه كف عن المسير.

* * *

يوم الشعلة

كان فتحى إبراهيم يدرك أن الموت ينفى الثورة، أدرك ذلك جيداً وهو فى منتصف الكوبرى، فقفز فيمن قفزوا، سبح حتى التقطه قارب صياد مد له يده، فاعتلى القارب، وراح يجدف مع الصياد فى اتجاه شاطئ النهر، عندها نزل بجسد يقطر ماء، كان البوليس قد دفع بقوات إضافية، فدحر المتظاهرين، وتقدم ليلاحقهم. جرى فتحى بين البيوت، توقف بأنفاس متلاحقة أمام بيت فتح بابه فجأة، امتدت يد أخذته من ياقة قميصه ثم أغلقت الباب.

قال رجل عجوز نحيل له: خذ هذا المفتاح، إنه مفتاح البدروم، اختبأ هناك، بينما سأبقى هنا ربما جاء آخرون.

حاول أن يقول كلمة شكراً، فأزاحه الرجل، قال:

ـ لا وقت للكلام، اهبط الآن، هيا.

قبع فتحى بين عجلات وتروس وجنازير آلات جر السفن النهرية، أهاج مجيئه المفاجئ الفئران، ففرت جماعات تحت أقدامه، كان يرتعش من البرد والإعياء، بحث عن شىء يتدثر به، فلم يجد غير مشمع متسخ به بقع كبيرة من الزيت والشحم، نضا ثيابه المبتلة وعلقها على الأعمدة الحديدية، لف جسده بالمشمع وانزوى بين الآلات يرتجف، تلاحقت أمامه مشاهد ذلك اليوم، كل حياته أصبحت أمامه كتاباً مفتوحاً، قرأ فيه:

– أنا فتحى إبراهيم، فتى فى الثانية والعشرين من عمرى، جئت إلى القاهرة منذ ثلاثة أعوام حاملاً شهادتين –البكالوريا، وشهادة فقر، قدمتهما إلى إدارة الجامعة، وانتظمت فى دراسة الطب، لم أكن إلا ابن فلاح من إحدى قرى الوجه البحرى، أحمل معى صفرة الفقر وقصة حب صغيرة ساذجة ودعتها على أبواب قريتى، لم يكن لى حلم فى الحياة سوى أن أنقذ أبى وأخوتى من الموت جوعاً، حتى قابلت

كمال ضوى، حالم من نوع آخر، لماذا انجذبت إليه أنا وآخرون، وهو يقرأ علينا فصلاً مما ترجمه راشد البراوى، ثم أغلق الكتاب، ورسم بكلماته وطناً تمنينا أن يولد حقاً. وطن حدوده رغيف للجياع وهواء لا تدنسه أنفاس الإنجليز، انضممت إليه روحاً وجسداً، ويوم أن وجد مقتولاً فى غرفته الفقيرة مثله، لم أجد دموعاً لأذرفها عليه، لأن الفتى القروى الذى كنته مات أيضاً.

* * *

عند ذلك وضع نور الرشيدى دائرة حول اسم الجارحى.

* * *

اختلسه النوم فنام.

استيقظ، كان ما يزال يرتجف من البرد، الظلمة تحيط بالمكان من كل جانب، مد يده ودفع جرذ كبير كان يمشى على جسده، دارت أفكاره بسرعة، التقط ملابسه، كان ما يزال بها بعض بلل، لكنه ارتداها، كان يعلم أن الغد هو عيد الشعلة، عيد ميلاد جلالته السادس والعشرين، ذلك العجل المسمن جيداً سيحتفل بعيد ميلاده ولو فوق أجسادنا، لنجعله عيداً أسود عليه.

خرج من مكمنه، لم يعبأ بشكر الرجل العجوز، فهو سيقدر ذلك، خرج، ومشى فى هدوء وثقة بالغين، كانت الشوارع متشحة بالسواد، ووجوه المارة المسرعين مسكونة بالغضب وبالخوف أيضاً، ورياح حزينة تكنس بعض وريقات منشورات ذلك الصباح، ومن خلف الخصاص أطلت عيون أحس بنظراتها ترقبه وهو ينتزع كل الصور واللوحات التى يطل منها وجه الملك، ثم يدهسه بقدمه.

* * *

فى الصباح انطلقت المظاهرات فى الشوارع تهتف لأول مرة (أين الكساء يا ملك النساء)، وترددت الصيحات والهتافات حتى وصلت إلى الإسكندرية، هناك أمسك الناس بالطلبة العدائيين الذين كانوا يحملون الشعلة ورموا بها إلى الأرض.

* * *

كان قد أقسم ألا يتوقف أبداً هذه المرة، قال لهم:

ـ من هنا سيمر موكبه فى طريقه ليضع حجر أساس مدينة فاروق الأول الجامعية حيث سيوقد شعلة المعرفة التى لم يستطع تحصيلها بنفسه، وهنا – أشار بقلمه إلى شارع آخر – سننتظر على بك الكبير، «كان ذلك اسم الفتى المصدور»، وعندما يقترب الموكب يخرج منديله ويلوح له ثلاث مرات، وعندما تصبح سيارته فى مواجهتنا تماماً سأقوم أنا ولاشين بإلقاء قنابل المولوتوف على السيارة، وسيقوم واصف بإطلاق الرصاص على الموكب للإرهاب ولتغطية هربنا، عند طرف الشارع ستكون هناك سيارة حمراء فى انتظارنا يجب ألا يتخلف أحد، سنستقل السيارة إلى قلب المدينة حيث سنتفرق. لا يجب أن يلتقى أحد منا بالآخر قبل أن أضع قصاصة حمراء صغيرة على أول عمود إنارة بشارع نوبار، عند ذلك سيكون أول لقاء لنا عند رأس كوبرى عباس فى العاشرة صباحًا، اسم العملية (كوبرى عباس) – صمت قليلاً، ثم واصل، لتعلموا أن هذه العملية لحسابنا الخاص، استدعيت إلى المكتب اليوم صباحًا، ووجه لى توبيخاً شديداً لأننى لم أنفذ التعليمات. لقد كانوا يريدون مظاهرة صغيرة هدفها تربية الكادر الثورى، مظاهرة لا تثير حنق الإنجليز ولا غضب الملك، لقد ادعوا أننى تصرفت بطفولية ثورية، الانتقام لمقتل ضوى لا يساوى عندهم شيئًا، فما نحن إلا بيادق على رقعة الشطرنج، يضحون بها فى سبيل كسب الجولة الأخيرة من الدور، أما أنا فأرى شيئاً آخر، مقتل ضوى هو مقتل أى فرد منا، ولن تكون دماؤنا رخيصة أبداً، رأس برأس، إذا عد ذلك الغلام رأسًا، ومن هو بجوار ضوى، إنه مجرد رأس فارغ بلا قيمة ولا موهبة، بل إن الملكية نفسها من أحط الأنظمة التى اخترعها البشر كما تعلمون، نظام يتبع خطوات الطبيعة، كأن البشر نمل أو نحل – صمت وابتلع غصة اعترضت حلقه، ثم واصل – الآن ما يزال فى الوقت متسعاً لمن يرغب منكم فى التراجع للاحتفاظ بهويته الحزبية، أما أنا فماض فى طريقى، وسأفعل ما اعتزمت فعله ولو كنت بمفردى.

كان وجهه يضيء بحماسة ملتهبة، ألهبت حماسهم، فأجاب الجميع إجابة قاطعة (لنزح ذلك الغلام عن المشهد، فهو مجلبة لمصائب كثيرة).

* * *

صباح ذلك اليوم، استطاع أحد رجال الأمن السريين المنوط بهم تجسس الشوارع التى سيمر بها موكب الملك فى طريقه لوضع حجر أساس المدينة الطلابية أن يلتقط من طرف خفى التقاء خمسة من الشباب عند ناصية أحد الشوارع، واحد منهم له بنية رياضية، يحمل جربندية ثقيلة على ظهره، ويمشى بخطوات متوازنة بطيئة، تابعهم، رآهم يتركون فتى نحيلاً أصفر عن ناصية الشارع، بينما تابع الآخرون سيرهم حتى دخلوا أحد البنايات، أثار رجل الأمن مشهد الفتى المصدور الذى لا يكف عن التلفت حوله، وهو يتكتم سعالاً متى اجتاحه هز جسده كله، مضى فى حرص، عند مدخل البناية، رمى بنظرة عابر، لمح الأربعة الآخرين يكمنون فى بئر سلم البناية، فقطع بأن الأمر يتعلق بمرور موكب الملك، وأكد حدسه أن أحد الفتية بادل المصدور إشارات خفية.

* * *

وهم قابعون، ترامت إليهم صدحات فرق موسيقى الجيش المتراصة فى ميدان عابدين، كان رجل الأمن قد أبلغ رئاسة الديوان الملكى بما رأى، فأصدر رئيس الديوان أوامره بضرورة تأخير موكب الملك لحين إشعار آخر، لأن أحداثاً مريبة يتم استطلاعها فى أحد الشوارع.

* * *

مر الوقت ولم يظهر موكب الملك، نظروا لساعاتهم وتبادلوا نظرات متسائلة، وهم في حيرة من أمرهم، رأى لاشين جنديين قويين يقتلعان على بك من الأرض ويلقيان به في سيارة ملاكى، فأدرك ما حدث، ارتد محذراً الجميع، تجهزوا للهرب، خرجوا من مدخل البناية، لم يستطع لاشين شيئًا حيال حمله الثقيل وجربنديته المملؤة بقنابل المولوتوف، انحنى ليفتحها محاولاً إخراج أحد القنابل ليغطى هروب الآخرين، فنال ركبة في ذقنه من أحد رجال الأمن، ارتمى بعدها بجوار الحائط بينما وقف الآخرون أمام فوهات البنادق والمسدسات المصوبة إليهم، إلا أن الجارحى آثر أن يراوغ الموت، اندفع وساعداه ممدوتان في الهواء وقبضتاه مضمومتين، واخترق الجند مارقاً بينهم متخذاً أساليب أرانب الجبل، جرى في خط متعرج وتقلب في الهواء والرصاص يئز من فوق رأسه، ويمر من بين قدميه، وخلفه كلاب الصيد تعدو، ومن زاوية إلى زاوية، اتسعت المسافة بينهم، انحرف يميناً إلى ميدان إبراهيم باشا، إلى مسرح جورج أبيض، ومنه إلى الرويعى، إلى الفواطية، هناك اختفى في أحد الجحور.

* * *

في الصباح، مد له رفيقه يده بالجريدة، قرأ في صمت كلمات رئيس مجلس الشيوخ (علمت أن البوليس ضبط في إحدى العمارات أشخاصاً بتهمة أنهم يعتزمون إلقاء متفجرات على الموكب الملكى...)، طوى الصحيفة، كان شارد البال، ربت رفيقه على كتفه، قال:

ـ لقد أسقطتموه فعلاً، مهما تأخر الخلع.

رفع عينيه إليه، قال:

ـ أنا أفكر في الآخرين، ماذا سيكون من أمرهم.

* * *

اقتيد الفتية الأربعة إلى باب الخلق، رموا بهم فى زنزانة ريثما يتولون أمرهم، قال لاشين:

- ليعلم الجميع ما سأقوله جيداً، علينا بالصمود أمام التعذيب، إذا عبرت الضربات الأولى صامداً، تصبح الزيادة بلا معنى، وتأخذ الروح فى السباحة فى محيط من الصور والذكريات، وإذا أصر كل واحد على فكرة واحدة ووطد نفسه عليها، فسوف تسقط يد جلادك من الإعياء، هذه الفكرة مؤداها سواء اعترفت أو صمت فالنتيجة واحدة، سيظلون يعذبونك كنوع من الانتقام، إنه الملك، فلا تدلى باعترافك أبداً، يجب أن نصر على أن القنابل كانت بغرض هدم الهرم الأكبر لأنه رمز للعبودية وسيطرة الماضى ولا شيء آخر.

عند ذلك، فتح الباب، دارت فيهم أعين بعض الرجال، تقدم نور جودت خطوة، مد يده والتقط على بك من ياقة قميصه، انتزعه من الأرض انتزاعًا، فتقدم نحوه جنديان اقتادا الفتى وهما يلكمانه فى جنبيه وظهره.

* * *

جاء وفد مشكل من وجوه متنافرة، ضابط إنجليزى، اختصاصى فى استجواب المتآمرين على الإمبراطورية، طلبه الديوان الملكى بالاسم، كما جاء معه ثلاثة محققين من مكتب النائب العام، دخلوا غرفة نور جودت، فنهض عن كرسيه محيياً، سأل الضابط الإنجليزى:

- هل حصلتم على اعترافات؟

أجاب نور:

- ليس بعد، إننا لم نستجوب إلا واحداً، ما زلنا نعالج أن ننتزع منه اعترافه.

نظر إليه الضابط الإنجليزى فى صلف، وهو يخطو نحو مقعد نور ليحتل مكتبه، قال وهو يدير بين يديه عصاوين قصيرتين مشدودتين من عند منتصفهما بحبل:

ـ تعالج ماذا؟ أن تنتزع اعترافه، هه.

جلس ثم واصل:

ـ ابعث بمن يحضر لى زجاجة مرطبات، وإحضر ذلك الفتى، لنرى إن كان سيصمد أمام هذه الوسيلة العبقرية التى اخترعها العزيز كرومويل منذ أربعة قرون، ولم يصمد أمامها أحد أكثر من دقيقتين.

هز الحبل فى الهواء، بينما دق نور الجرس، دخل جندى ضخم قوى البنية، قال له نور:

ـ قم بواجب الضيافة نحو ضيوفنا الأعزاء، وإبعث بمن يحضر ذلك الفتى.

* * *

لم يكن ما قاله لاشين صحيحاً كل الصحة بالنسبة لفتى مصدور مثل على بك، لقد اقتيد إلى غرفة جهزت لأغراض التعذيب، وعندما هوت خيزرانات الجند على جسده بلا تمييز لمواضع معينة، حاول أن يركز كل تفكيره فى الصمود أمام هجومهم الهمجى الذى لم يسبقه إنذار بأن الاعتراف هو الأفضل، لكنه بعد عشر دقائق سبح فى محيطات الألم، لا وجوه ولا ذكريات، ولاشىء سوى موت يحاول أن ينتزع روحه، وهو يلهث بحثًا عن هواء بصدر مثقوب، وفى لحظة تساوت أمامه كل الأشياء والمعانى، لكنه قرر الصمود، فاجتاز الجولة الأولى مع جلاديه، قال له نور:

ـ الأفضل لك أن تعترف، سنتركك قليلاً، لكننا سنعود.

نظر الفتى فى ازدراء إليه.

* * *

فتح الجند باب الغرفة عليه، كان مستنداً بظهره إلى جدارها، وجهه ممتقع، وأنفاسه تتلاحق، وفى عينيه نظرة إصرار من نوع خاص، قال جندى له:

ـ إنهض.

وقف، دفعه الجندى أمامه.

مضى به الجند حتى توقفوا عند غرفة نور جودت، دق أحدهم الباب، أدخلوا الفتى ووقفوا به فى منتصف الغرفة، أشار الضابط الإنجليزى إلى نور فصرف الجند، قال الضابط الإنجليزى موجهاً كلامه إلى الجلوس:

ـ والآن أيها السادة سترون أداءً عملياً لهذه الوسيلة الفريدة.

ثم وجه كلامه إلى الفتى:

ـ أرجو ألا تضيع كثيراً من وقتى، ستعترف الآن وتدلى بتفصيلات عمليتكم القذرة التى كنتم تنتون القيام بها.

كان على بك قد قرأ عن تلك الوسيلة، قال بإنجليزية رفيعة لينهى الأمر بضربة واحدة:

ـ استمع إلىّ جيداً أيها الضابط، هذا الحبل الذى تمسك به فى يدك، ينتهى بعصاوين، للأسف قصيرتين، عليك أن تضع إحداهما فى إستك، وأن ترسل بالأخرى إلى مليكك ليضعها بنفسه فى إسته، هذا هو رأيى النهائى فى الموضوع.

بُهت الضابط وعقدت الدهشة لسانه، ثم صعدت دماء غاضبة إلى وجهه فاصطبغ بحمرة قانية. وحين هب من مقعده ثائراً، وقف أحد محققى النيابة العامة، قال بهدوء:

ـ انتظر أيها الضابط، لى أن أسجل انسحابى من هذه المهزلة.

عندها وقف زميليه، قال واحد منهما:

- أنا أيضًا أشارك زميلي نفس الرأى، لم نأت إلى هنا لنلفق قضية، ننتزع الاعتراف فيها بمثل هذه الأساليب التى تنتمى إلى عصور بائدة.

أُسقط فى يد الضابط الإنجليزى، وضع الأداة الإجرامية على المكتب كأنه يتخلص منها، قال:

- ولكن الأمر يتعلق بحياة جلالته.

قال أحد المستقيلين:

- ليكن الأمر كما تقول، إثبت لنا ذلك، عندها سنأت لنستكمل التحقيق بطرق أكثر قانونية من هذه.

أشار إلى الأداة الموضوعة على المكتب، ثم استداروا خارجين.

نظر نور جودت إلى الضابط، ثم إلى على بك، قال:

- لقد انتهى أمرك، وسترى.

دق الجرس، دخل جندى، قال له نور جودت:

- خذه، ليس من المهم أن يعترف، المهم أن تدقوا عظامه دقًا جيداً

* * *

كان الجند قد هشموا له فقرتين من فقرات ظهره، وتركوه ملقى على أرض الزنزانة، ثم ذهبوا ليلتقطوا رفاقه واحداً فواحد، ليعرضوا على الضابط الإنجليزى الذى نحا أداته جانباً وعمل على التلطف مع الآخرين محاولاً أن ينتزع فى مكر اعترافًا ولو ضمنيًا بمحاولة الاغتيال، لكن أحداً منهم لم يزد عن إنهم حملوا تلك القنابل لهدم الهرم الأكبر الذى يمثل لهم «رمزاً للعبودية ومعنى لسيطرة الماضى على الحاضر»، ولم يبق إلا لاشين وتنتهى الجولة الأولى إلى لا شىء.

* * *

ثم انقلب المشهــد كـله، فلم يكن لاشـين فقط هو الاسم الحركى لواحـد منهم، بل كان أيضاً اسم الجد الأكبر لعائلة إقطاعية ضخمة، لها صلة وثيقة بالديوان الملكى، فلما أُخذ ابنها، لم تعدم وسيلة لمعرفة الأمر كله، عندها اتصل عميدها برئيس الديوان الملكى، وأقنعه أنه ليس من مصلحة أحد وخاصة الملك، أن ينظر إلى الأمر على أنه محاولة اغتيال، ومن الأفضل للجميع قبول ذلك الافتراض الطريف جداً والواقعى رغم غرابته، فهو يعرف هؤلاء الفتية الجامحين الثائرين على رموز الماضى.

غمغم رئيس الديوان الملكى بعبارات مبهمة. بعدها لمعت فى رأسه الفكرة، أقنع جلالته بها، من غير الممكن أن يفكر واحد من الرعية أن تمس ملكها المحبوب، رفع سماعة الهاتف واتصل بحافظ بك وكيل الداخلية، أخبره بوجوب انتهاء التحقيق إلى هذه النتيجة، ليمكن تكييف القضية بعد ذلك على نفس النحو.

* * *

هرع حافظ باشا إلى نور جودت، رأى الضابط الإنجليزى يدور حول لاشين، فأوقف التحقيق، قال:

- تلقيت من الديوان الملكى معلومات تكشف غموض ذلك الموضوع الملتبس، بالفعل، هؤلاء الفتية مجموعة من الجانحين الذين ينتمون إلى أفكار غربية، لقد كانوا عازمين على هدم الهرم الأكبر.

نظر الضابط الإنجليزى متعجباً، هتف:

- سبعة وعشرون زجاجة مولوتوف لهدم الهرم الأكبر، هذا عجيب.

رد حافظ باشا بفرنسية ساخرة ومتعمدة:

- إنها مصر **C'est l'Egypte** يا عزيزى.

ضايقه أن يتلقى إجابة بالفرنسية، قال متسائلاً بإنجليزية شدد فى نبراتها:

ـ أهذه مصر؟ ما كنت أعرف هذا من قبل.

فتح حقيبته ووضع فيها أداته الفريدة، وبعض أوراق كان قد سجل فيها عدداً من الملحوظات، قال وهو يهم بالخروج:

ـ هذا درس لى، ما كنت أتلقاه إلا هنا.

هز حافظ باشا رأسه مبتسماً محيياً:

ـ أسعدت مساء أيها الضابط.

* * *

فجر ذلك اليوم، حملت سيارة على بك، واخترقت به شوارع القاهرة، وأمام فيللا بضاحية مصر الجديدة، هدأت من سرعتها كثيراً، ليلقى به جنديان أمام بابها.

وفى الصباح وجد عثمان نايح بواب فيللا منير فريد (على بك) ملقى أمام الباب يئن من آلام مبرحة. كانت أمه الأرملة قد قلبت الدنيا بحثاً عنه فى اليومين الفائتين بلا جدوى، دق البواب باب البيت بعنف وهو يصرخ صراخاً عشوائياً لم تفهم منه الأرملة شيئاً، كان يشير بيده إلى باب الفيللا، جرت معه، رأت ابنها ممدداً على الأرض.

أسرعت به إلى المستشفى اليونانى، فحصه عدد من الأطباء، تبادلوا فيما بينهم النظرات وانتهوا إلى تقرير مبدئى بأن فقرة أو أكثر قد كسرتا فى ظهره، وهو مهدد بالشلل مدى حياته.

* * *

تزيى بملابس أولاد البلد، ارتدى جلباباً، ولف لاسة حول رقبته، مضى ليزوره فى المستشفى. هناك رآه للمرة الأخيرة، وهو لا يستطيع أن يبصق لعابه الدامى، فتح عينيه، رآه، ابتسم له همس (نموت وتحيا مصر)، قال فتحى له:

ـ أرجو أن تحتفظ بابتسامتك هذه، للمرة القادمة التى سوف أزورك فيها، حاملاً أخباراً تسرك ، سيدفعون الثمن.

انسل خارجاً.

* * *

فى الصباح، أخبر خادم جودت باشا أن رجلاً من طرف نور جودت يطلب مقابلته، قال الباشا:

ـ احضره إلى غرفة المكتب.

أبدل الباشا ثيابه، وصعد إلى غرفة مكتبه، هناك كان فتحى جالساً يقلب فى صحيفة الصباح، نهض محيياً، ثم عاود الجلوس، قال وهو يفتح حقيبته ليلتقط مسدساً أشرعه فى وجه جودت باشا، الذى بهت وألجمت الدهشة لسانه:

ـ يجب أن تعلم من أنا قبل أن تلقى حتفك، أنا واحد من كثيرين مهمتهم تصفية العملاء المحليين للاستعمار، حقيقة إن الحية لا تنجب إلا حوية.

وقبل أن يقول الباشا كلمة واحدة أطلق فتحى النار من مسدسه على رأس جودت باشا، عندها رفعت سمية هانم رأسها وتأففت من ذلك الضجيج ثم عادت تدس وجهها فى كتاب الخيل لتكمل قراءته.

توقف الخادم الذى يحمل صينية القهوة إليهما عند منتصف الدرج المفضى إلى الدور العلوى بعد أن سمع صوت الطلق النارى، مرت لحظات بعدها فتح باب مكتب الباشا، واندفع شاب يعدو مشرعاً سلاحه فى الهواء، أزاح الخادم ونزل درجات السلم قفزاً، وانطلق يعدو نحو بوابة القصر.

لملم الخادم حاله، صعد الدرجات قفزاً، فتح غرفة المكتب، وجد الباشا ممداً على الأرض وخيط من الدم يسيل من فمه، جرى نحو النافذة المفتوحة، صرخ بالحارس أن يغلق البوابة.

دوى صراخ الخادمات فى القصر، واندفع الخدم الآخرون نحو البوابة، هناك كان فتحى واقفاً يهدد الحارس بمسدسه، وهو يأمره أن يفتح الباب، جاء عدد من السواس جرياً وتحلقوا حوله، قال الفتى مهدداً:

- إذا اقترب أحد منى، سأفجر رأسه.

كان عبد الواحد فى مخزن القش حين سمع الضجة، أطل فرأى المشهد، أخذ المذارة فى يده وانضم إلى لفيف السواس، حاول سيد العجوز أن يخطو مقترباً من الفتى، وهو ينصحه:

- هات السلاح يا بنى، كن عاقلاً.

هوش الشاب عليه، ولوح بسلاحه فى الهواء، قال:

- إبق مكانك وإلا..، إفتح البوابة حتى أخرج، أنا أدافع عنكم، أنا واحد من الطليعة الثورية للطبقة العاملة، أنا واحد منكم.

تبادلوا النظرات، لم يفهم أحد شيئاً مما قاله، ظنوا به جنوناً، كان سيد قد خطا خطوة أخرى نحو الفتى فالتفت إليه، ثم أطلق رصاصة من مسدسه أصابت كتف العجوز الذى صرخ وتنحى وهو يلمس جرحه.

والشاب يحاول أن يأخذ طلقة فى ماسورة المسدس ليكون جاهزاً للإطلاق اندفع عبد الواحد كالثور بمذراة القش، غاص بأسنانها الثلاث فى بطنه، رأوه يهوى، فاندفعوا نحوه يركلونه، قال من بين موجات ا لألم التى تعتصره، وهو يلتقط أنفاس الهواء بصعوبة:

- عاش كفاح...

ولم يكمل، ارتمى رأسه إلى جنب، وحملقت عيناه فى فراغ أبدى نهائى.

* * *

اهتزت أوساط القاهرة الأرستقراطية للميتة المأساوية التى لقيها جودت باشا، كان ما حدث نذيراً مرعباً غير مسبوق، تداولت القصة ألسنة الجميع، واستخلص البعض أسباب ونتائج الحادثة، قال نور جودت:

ـ ذلك من جراء السياسة الناعمة التى تقودها الحكومة مع مثل تلك التيارات، ولم يعد سوى سياسة واحدة لإصلاح الأمور وإعادتها إلى نصابها، إنها سياسة العصا الغليظة.

* * *

عادت مريدة إلى القاهرة جواً بعد خبر وفاة أبيها، لتجد القاهرة مدينة تقف على حافة ثورة شعبية جارفة، فلم يمض سوى أسبوع واحد على تولى إسماعيل صدقى الوزارة، حتى اندلعت مظاهرات الطلبة والعمال التى تجمعت فى ميدان الأوبرا، ثم تحركت إلى ميدان قصر النيل، حيث تقع ثكنات الجيش الإنجليزى، واتجه قسم منها إلى ساحة عابدين، وبينما كانت المظاهرات تسير حريصة على الأمن، وبلا أية محاولة للعنف أو التخريب، برزت سيارات الجيش البريطانى، اندفعت تشق صفوف المتظاهرين، قابلوها بقذف الحجارة، ففتحت القوات الإنجليزية مدافعها الرشاشة عليهم.

بذلك انفلتت العقدة الأخيرة فى أعصاب الجماهير، فهاجموا قشلاقًا إنجليزياً يقع أمام الجامعة الأمريكية، ومعسكرات لجند من الأفريكان تقع خلف المحكمة المختلطة، وعصفوا بمخزن أدوية تابع للجيش الإنجليزى، ونادى الطيران الخاص بتلك القوات، وظل الحال على ما هو عليه من ثورة حتى منتصف الليل، وحملت الجماهير مناديل مخضبة بدماء الشهداء، ومضت بها ملوحة إلى ميدان عابدين، سرت تلك الروح الثائرة فى عموم مصر، انتقلت إلى أحياء القاهرة، شبرا، وباب الشعرية، والقبة والعباسية،

ثم جاوزت العاصمة إلى بورسعيد والإسكندرية والإسماعيلية، وأغلب مدن الوجه البحرى، وأسفرت عن عشرين شهيداً، وجرح مائة وخمسين، وباتت مصر على أعتاب ثورة شعبية جديدة تشبه ثورة ١٩١٩.

* * *

هكذا صاحب حدادها على أبيها حداد عام على شهداء انتفاضة فبراير ١٩٤٦، وباتت الكآبة تحيط بعالمها الصغير، ولم يعد يشغلها أن تعود إلى باريس لإنهاء دراسة الآداب، بل أمسكت بها رغبات عبثية، نحت عنها أية رغبة فى استكمال تعليمها، وفى ذات الوقت أخذت نور ثورة مجنونة فى الانتقام من كل الأشكال الثورية، وواكبت ثورته اتجاه طاغية أكبر وأشنع، هو رئيس الحكومة إسماعيل باشا صدقى وواحد من أبشع الشخصيات التى حكمت مصر فى النصف الأول من ذلك القرن، كان يدرك أن لا مفاوضات مع الإنجليز قبل أن يقدم اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال كبش فداء على مذبح الوطن، فاشتعلت المطاردة.

* * *

فى اندفاعه المسعور ليشفى غلة قلبه الموتور حانت له الفرصة فى العاشر من يوليو ٤٦، تحت دعوى رئيس الوزراء الذى احتفظ لنفسه بمنصب وزير الداخلية أيضاً، إذ رأى ضرب كل الاتجاهات المعارضة دعماً لموقفه التفاوضى من جهة، ومن جهة أخرى ضربة وقائية لإجهاض عزم اللجنة الوطنية للعمال والطلبة فيما انتوته من اعتبار يوم ١١ يوليه (ذكرى ضرب الإنجليز للإسكندرية فى ١٨٨٢) يوماً للحداد العام وتجديداً للجهاد الوطنى؛ فقد تلقى أوامر الاعتقال وهو يفرك كفيه ليشرف بنفسه على اعتقال مائتين من الكتاب والصحفيين والأحرار وزعماء اللجنة الوطنية ونقابات العمال والشباب الوفدى.

* * *

لم يأل جهداً أو يضع دقيقة واحدة، كان يشعر أن ذلك ثأراً لأبيه، فاختص الاتجاهات اليسارية بكرم خاص فى قسوته وهو يغلق صحفًا مثل الفجر الجديد والجبهة وأم درمان، وما إن تنفس الصعداء باعتبار أن ما قام به عمل حاسم ونهائى، وبما أطلقه رأس الحكومة نفسه على الحملة بأنها قضية المبادئ الهدامة، ألصقت تهمة الشيوعية بجميع من اعتقلوا بلا تمييز بين اختلاف تياراتهم.

* * *

وبينما حافظ باشا مجتمعًا مع حكمداريى المناطق الأمنية والمحافظات على عموم القطر، حدثت الفضيحة، اندفعت مشيرة صاعدة درجات المبنى، تجاوزت الجندى الواقف على الباب عندما حاول منعها من الدخول بصفعة هائلة على وجهه، تنحى بعدها جانباً يتحسس وقع الصفعة على خده، اقتحمت الغرفة فنهض سكرتير المكتب بشعره الملمع بالبريانتين محاولاً إثناءها عن عزمها الطليق، أزاحته جانبًا، أدرات مقبض الباب واندفعت إلى غرفة الاجتماعات، كان الأب جالسًا يتبوأ رأس الاجتماع، حين رآها امتقع وجهه، كانت تصرخ فى هستيريا. انتاب الذهول حكمدارو الأمن، هتفت من بين دموعها:

ـ تعال وشف، ابن الكلب متزوج من راقصة، متزوج على أنا، وأنت لا تدرى.

نهض من مقعده بسرعة خاطفة ضمها بين ذراعيه، همس لها:

ـ مشيرة أفيقى لنفسك، احتسبى للفضيحة، أرجوك اصمتى الآن، اذهبى إلى بيتك وما أن ينتهى الاجتماع، سأحضر إليك، اطمأنى كل شىء سيكون على ما تحبين، مشيرة كرامة لى، أرجوك.

هدأت ثائرتها، لكنها أصرت أن تبقى خارج المكتب حتى ينتهى الاجتماع.

* * *

اصطحبها فى سيارته إلى بيته، هناك قصت عليه ما علمت، بعد أن أخبرتها صديقة بأنها رأت سيارة نور واقفة أكثر من مرة أمام فيللا ليلى كمال الدين بمصر الجديدة، وحتى لا تثير ضجة فارغة، تحرت الأمر بنفسها، اعتقدت فى أول الأمر بأنها علاقة عابرة، لكن اتضح أنه متزوج، وله منها ولد يكاد يكمل عامه الأول.

صمت طويلاً، سألته:

- والآن، قل لى، ما الذى تنتوى فعله؟

قال وهو يحاول أن يلتزم جانب الحكمة الأبوية أمامها:

- يا ابنتى، أيًا ما كانت العلاقة بينهما، تأكدى أننى سأنهيها، لن تكون ابنتى ضرة لراقصة مشبوهة، لكن عليك أن تعديننى ألا تتطرقى للأمر مع نور، إتركى الأمر كله لى.

* * *

صارحه بكلمات جارحة بما عرف، فأدهشه ثورته واعتراضه على عبارات المصارحة القاسية، قال:

- أرجو أن تتذكر معاليك أن من تتكلم عنها هى زوجة لى مثل ابنتك تمامًا، وهى وإن كانت يوماً راقصة، فقد اعتزلت تلك المهنة منذ زواجنا، وأننى لم آت شيئاً فاحشاً، بل هى زوجتى شرعاً وقانوناً.

صمت حافظ باشا، ثم خفف من حدة لهجته، قال:

- وإذا رجوتك أنا رجاء خاصاً وأبوياً أن تنهى هذه العلاقة، فهل تقبل ذلك إكراماً لى؟

أجابه نور:

- ليس الأمر على ما تصف، ليس ما بيننا علاقة، بل كما قلت لمعاليك من قبل إنه زواج رسمي، وسل ابنتك إن كنت قد قصرت فى واجباتى نحوها كزوج وأب يوماً.

- هى لم تدعى عليك بمثل ذلك، ولكن مشيرة كما تعرفها جيداً، لن تقبل أن تشرك امرأة أخرى فى حياتكما.

- لها ما ترى.

عند ذلك أدرك حافظ باشا أن نور لن يتنازل عن علاقته بتلك المرأة، قال بلهجة منذرة لم يعبأ بها نور:

- أرجو أن تفكر مرة أخرى فى الموضوع، ربما تغير رأيك.

- ولماذا يجب أن أفكر مرتين فى أمر منتهى أصلاً، هذا ردى الأخير فيه، لن أطلق زوجتى، ولابنتكم ما تراه.

- ما الذى تقصد بأن لها ما تراه؟ أتقصد الطلاق؟

- أقصد أن ما يريحها سيريحنى فعله، فإن تمسكت بزواجنا تمسكت به، وإن طلبت الطلاق فسوف لا أعارض.

نهض حافظ باشا، قال بلهجة موحية، وهو يضع كفه على كتف نور:

- مرة أخيرة أنصحك بأن تفكر فى الأمر، ذلك إكرامًا لذكرى والدك ولى ولنفسك أيضاً.

* * *

ما حدث لم يجل بخاطره لحظة، عصف به عصفًا، وانفتحت بوابات الضياع أمامهما ثم انغلقت عليهما، بناء على طلب من محامى لويجى بيانكا أعيدت محاكمته تحت تأكيد قاطع بأن العوامة التى اختفى بها الجاسوسان كانت مهداة للراقصة، كما ضمت السفارة الإنجليزية طلباً إلى القضية مؤداه رغبتها فى كشف ومعاقبة المتعاونين مع النازى بما توافر لها من معلومات، أما نور فلم يعد اتهامه إلا مسألة وقت متى دارت جلسات القضية. أبرز دفاع لويجى علاقة نور بليلى كمال كدافع لإلصاق التهمة بموكله.

وهو فى مصيبته، فوجئ بدعوى مرفوعة على وزير الداخلية بصفته ونور جودت باسمه من والدة (منير فريد) تتهمه فيها بتعذيب ابنها وإحداثه عاهة مستديمة به.

أصبحت القضية مثار اشتهاء الصحف والمجلات الصفراء، قصة حياة الراقصة بواقعيتها المؤلمة تناولتها الأقلام، ومن بعدها الألسنة، وهو يدور كحيوان جريح فى محبسه أدرك أنه أمام أمرين أحلاهما مر، هرع إلى مكتب حافظ باشا، منعه السكرتير من الدخول ، فعلا صوته حتى خرج له الرجل بنفسه، قال:

ـ دعه يدخل يا على.

ـ أوامر معاليك.

تنحى مفسحاً الطريق لنور جودت.

مثل واقفًا ذليلاً أمام حافظ باشا الذى لم يدعه إلى الجلوس، قال له وهو يتصنع التشاغل عنه:

ـ ها، قل ما عندك.

ـ جئت لنتفق.

ـ جئت متأخراً يانور، العجلة دارت، ومن يستطيع الآن أن يوقفها؟

ـ أعشم أن تفعل.

ـ إذا قبلت ما سأقوله لك سينتهى الأمر.

لم يكن أمامه سوى أن يستمع، قال حافظ باشا:

ـ بالنسبة إلى تلك العاهرة، يجب أن تدرك أنها ستلقى جزاءها، فهى متورطة فعلاً، أما أنت فسأحاول أن تتنصل من تهمة تواطئك معها، وسنعتبر الأمر إهمالاً فى تأدية عملك يستوجب إحالتك إلى محكمة تأديبية، يمكننا أن نسوى أمرها بمعرفتنا، أما بالنسبة للأرملة، فقد دفعت لها من قبل لتسكت وتعالج ابنها المصاب بشلل ثلاثى، ومن الممكن أن تدفع أنت لها فى هذه المرة.

ـ ولكن ليلى زوجتى وأم لولدى منها.

قال ساخراً منه:

ـ أراك ما زلت واهماً مغروراً، يا ابنى السكين على رقبتك والملوخية على رجليك، وما زلت تقول لى زوجتك، إن لم تعتبر هذه المرأة لم تعبر يوماً فى حياتك، ولم ترها فأنت ضائع.

استثارته السخرية المؤلمة، قال:

ـ لم أكن يوماً خائناً.

ـ ولكنك خنت ابنتى.

ـ ليس ذلك صحيحاً بالمرة، أوضحت لمعاليك من قبل.

ـ لننس الأمر إذن.

رمى بورقته الأخيرة، قال:

ـ ولكنك حمى، وما يصيبنى لابد وأن ينالك.

قهقه حافظ باشا مستغرباً:

ـ يا بنى نحن نعيش فى مصر وفى نهاية عام ١٩٤٦، وفى عهد حكومة صدقى باشا، فإن لم تدرك المكان والزمان فما الذى استطيع أن أقوله لك؟، أأقول لك ما تعرفه، نحن نفعل بالبشر ما نريد فعله، وأنت نفسك منذ شهور قليلة كنت تفعل ما تحب وما يبدو لك، استمع إلى جيداً هذه المرة، لم يكن حديثى معك حديثاً جاداً على الإطلاق، للأسف، العجلة دارت وأنت لم تعد تهمنى فى شىء، وكذلك ابنتى، أنت لم تعد تمثل شيئاً بالنسبة لها. ونصيحتى لك فيما أنت مقبل عليه، أن تتنصل من أية معرفة بموضوع تلك المرأة والعوامة وأن تبحث لك عن محام ضخم منذ الآن.

* * *

حـاول أن يطرق أبواباً أخـرى، لكنهـا كـانت مـوصـدة أمـامـه جـيـداً وبشكل أثار استفزازه، بقى منتظراً حكم الأقدار عليه، انتهى الأمر به إلى محكمة خاصة، حكمت بعزله وطرده من الخدمة مع ثلاثة أعوام من السجن والأشغال، أما ليلى كمال الدين فحكم عليها بخمس سنوات من السجن.

ظلال هامسة

غرقت حياة مريدة جودت فى ظلال من الكآبة، للحظة بدا كل شىء أمامها حطاماً، حياتها كلها صارت خراباً كبيراً تجلس لتتأمله ساعات، أمها سمية هانم فى متاهتها تدور سعيدة، كم مرة حاولت أن تخرج بها من عزلتها، لكنها كانت تواجهها بإرادة وصفاء يؤكدان أن ما تعيشه إنما هو اختيار لنوع من الحياة، تراه الأم خلاصاً لها من عذابات الحياة.

مرة قالت لها:

ـ صرت يا ابنتى غريبة عن الدنيا كلها، ألم تقرأى يوماً قول المتنبى (بما التعلل لا أهل ولا وطن) هـذا يلخـص لك حالى، دعينى إذن أنعم بطـريقتى فى الحياة ولا تكثرى فى الإلحاح علىّ.

أما مصيبة نور، فنزلت عليها كالصاعقة، كان ملاذها الأخير، فإذا به بعيداً ممحوناً فى بلواه، وهى بلا خبرة، عليها أن تدير أعمال إقطاعية واسعة تركها لها الجد ومن بعده الأب بعد موتهما. ثم كل هذه الخيول الثمينة، التى أوقف الأب حياته على تربيتهاوإنشائها، ماذا هى فاعلة بها؟ فى أول الأمر تركت أمر الأرض لوكيلهم هناك فى البحيرة لينهبها كما يشاء، وتركت أمر الخيل لسيد وهو وإن كان أميناً إلا أن الزمن أرخى يده كثيراً عن السواس فتسللت الفوضى إلى حياة الإسطبل. كم مرة أخبرها بنفوق جواد أو آخر، وكم مرة رمت فـرس بمهرها الوليد مختنقاً عند الولادة إذ لم يقم أحد بالسهر عليها.

هى أيضاً مالت إلى العزلة، وتركت الأمور تمضى كما تشاء لها الأيام، حتى كان يوم، رأت فيه ذلك الجواد الأسود الممهور بغرة بيضاء فى جبينه، فخالتها نقطة

أمل تضيء في وسط الظلمة الحالة بها، كان قد شق سنه الرباعية واستوى جواداً قارحاً مكتمل الفحولة، نادت سيد وأمرته أن يسرجه ويأتي به إليها، ففعل، امتطته وطارت به في أركان الإسطبل والهواء يشق عن بلوزها وهي على صهوته، نزلت وثدياها الرجراجان البارزان يقفزان خارجين من حمالتهما، وعندما لاحظت أن سائساً متبجحاً يطيل النظر إليهما، امتلأت غضباً، نادت سيد، قالت له آمرة:

ـ اطرد ذلك العجل.

ـ ماذا فعل يا سيدتي؟

ـ لا تسأل، قلت لك اعطه حسابه، ثم اطرده.

* * *

في صباح اليوم التالي، وقفت تسد باب الميس بذراعيها، استمع السواس اللاهون في ثرثرتهم إلى صوت وإن كان رقيقاً إلا إنه منذر:

ـ ليستمع إلى الجميع، نحن لم نفتح معلفاً هنا أو وسية، للطعام موعد معلوم متى تناولتم إفطاركم، نهضتم إلى العمل، لا أحب أن أرى بوكسات الخيل على هذا النحو من القذارة بعد اليوم، وإذا اشتممت رائحة تنبعث من بوكس، طردت المسئول عن نظافته على الفور، لن يكون هذا المكان زريبة لخيول مريضة بعد اليوم، مفهوم.

وضع السواس ملاعقهم في أطباق العدس، وهموا واقفين، قالت:

ـ إجلسوا واكملوا إفطاركم، ولكن ما إن تنتهوا، انصرفوا إلى أعمالكم، وسأمر عليكم لأرى بنفسي ما يجب عمله في هذا النهار.

في ذلك النهار ولد فيها إحساس جديد بالحياة، لقد عادت من فرنسا بأفكار عن عالم جديد يحترم آدمية الإنسان وحريته، وبلا شك أن أفكارالعدالة قد مست روحها، فاعتقدت اعتقاداً جازماً بأن حياة الناس الفقراء الذين يحيطون بها من خدم وسواس

يجب أن تتغير إلى الأفضل، وفى أول الأمر عاملتهم فى بساطة، فاستخفوا بها، ومع الوقت أدركت مدى التشوه الذى يصيب الإنسان من إدمانه للعبودية، فالخدم من حولها، ركنوا إلى الدعة، كانت تكره أن تأمر وتنهى فى مملكتها الصغيرة، لكنها كانت أيضاً من الواقعية بحيث تدرك تماماً أنها لا تملك أن تترك تلك الثروة تتسرب من بين أصابعها، يوماً داعب خاطرها ما فعله رجل كانت تعشق رواياته، فيلسوف ومفكر إنسانى النزعة، وتمنت لو فعلت مثله، حين وزع إقطاعيته على أقنانه وفلاحيه، لكنها توقفت عند عمره الذى قام فيه بذلك، كان قد بلغ الثمانين، إذاً عليها أن تنتظر حتى يجتمع لها من العمر مثل ما اجتمع له لتفعل.

* * *

ذلك الجواد العجيب، إنه يتشممها فى ذكورة وفحولة، كأنه يدرك ما بها من أنوثة يضيق بتفجرها هذا الجسد، نظرت إلى عينيه، أحست بشكواه لها، فى عينيه بريق خاص، كأنه يرغب فى أن يطير بعيداً عن الأرض، نادت سيد، أمرته أن يعلقه إلى الكارتا، وأن يعفى هذين السيسين العجوزين، أجابها الرجل:

ـ يلزم أن نغير عريش الكارتا لتصبح قابلة لأن يعلق بها جواد واحد.

نظرت إليه متعجبة، قالت:

ـ وما الذى يمنعك من أن تفعل؟

ـ لا يوجد نجار بالإسطبل.

ـ تصرف، احضر نجاراً ليعدل من وضع الكارتا.

مضى إلى كفر فاروق وعاد قرب الظهر بنجار محاريث يحمل شنطة خشبية كبيرة ومخلاة يجمع فيها أدواته، وقرب المغرب كان قد انتهى من تعديل وضع الكارتا لتصبح جاهزة لأن يعلق بها (طائر) كما أسمته.

* * *

أيام مضت، وتغير وقع الحياة اليومية فى الإسطبل، فى السابعة يكون طائر واقفاً أمام القصر بعد أن زين بشرائط من الحــرير الأزرق والأحمــر، تقف تلقمه قطعــة أو قطعتين من السكر فيحمحم لها بشكواه، يمد مشفريه، يمسك بشرائط شعرها ويجذبها، تضحك، وهى تبعدها عنه تمسك بمقوده لتكبح جماحه، كانت تدرك أن ذلك الجواد العجيب يملك روحاً مترفعًا، يمتلأ بحب عارم لها، يتجاوز به إلى درجة من العشق، تشعر عندما تجلس بالكارتا وتحكم قبضتها على لجامه، أنها لو أرختهما لحظة، لطار بها مرتفعاً عن الأرض.

تأخذه، فيأخذها، يدور بها فى أرجاء الإسطبل، وحين تتفقد هذه الحظيرة أو تلك تعود إليه، ترى بريقًا يشع من عينيه، يكاد يهمس لها بحبه، تداعبه، فينتشى طرباً ويتشمم عطرها الأخاذ، يضج بالصهيل، فتبتسم.

يوماً غيرت من عطرها بزجاجة «لاروش»، وجدتها منسية بين أمتعتها التى عادت بها من فرنسا، تعطرت قبل أن تنزل إلى جولة الصباح، وحين داعبته، بقى واجمًا معاتبًا، حاولت أن تلقمه قطعة من الحلوى، فتأبى عليها، فاجأتها البديهة، تعجبت، همست له مداعبة:

ـ ألا تعجبك مدام لاروش أيها العاشق الأخرق؟ سوف لا أعود إلى التعطر بهذا العطر.

* * *

غرقت فى العمل، وأصابتها لوثة عشق الخيل، فأهملت مظهرها وتصفيف شعرها، ومالت إلى البسيط من الثياب.

ذات صباح والربيع فى زهوه يوسوس لقلبها الزاهد بهمس خفى يأتيها من غور بعيد، وهى تحاول أن تنحى عن روحها تلك الأفكارالمتلاحقة، لتكمل مرور الصباح،

ومتابعة عملها، جاءها عامل وهى فى عمق الإسطبل، أخبرها بأن سيارة كابورليه تقف عند بوابة القصر، تطلق نفيرها، أخذت الكارتا ونحت بها إلى البوابة، أمرت الحارسْ أن يفتح الباب على مصراعيه، نظـرت دهشـة، حين رأتهما سعاد وحسين الرافعى.

همست وهى تحتضنها (سعاد الرافعى، معقول؟!)، كانت سعاد زميلة دراستها وصفيتها وذلك الشاب الذى يقف الآن بجانبها ينتظر أن تفرغا من القبلات والأحضان هو حسين الرافعى أخوها، مدت له يدها مسلمة عليه بحرارة، ما زالت تذكر نظرته المختلسة إليها كلما زارت بيتهما بالحلمية.

حاولت أن تعدل من حالها ما أمكنها، لكن الوقت كان قد فات، صفرت سعاد كما كانت تفعل أيام الدراسة متى تعجبت من شيء، قالت وهى تغمز لها:

ـ تسلل الإهمال إلى أكثر البنات أناقة.

قالت وهى تأخذ يدها ليصعدوا إلى البيت:

ـ الإهمال وأشياء أخرى كثيرة، تعالى لندخل أولاً.

استأذنهما حسين، ثم عاد حاملاً كومة من الورد محزومة فى غير دربة.

رمقته بطرف ماكر، فرأت شاباً يفيض رجولة، له بشرة لوحتها شمس معسكرات الجيش، يلبس شورتاً كاكى، وقميصاً أبيض يكشف عن ساعدين قويين، قالت مداعبة معاتبة:

ـ لم كومة الزهور هذه؟ لابد أنكما قررتما تعويضى عن كل المناسبات الفائتة التى لم تحضراها.

أجابتها سعاد وهما تصعدان إلى البيت:

ـ اشترى أبى جزءاً من جنينة بلنت، وأقام فوقها مشتلاً للزهور، وهذه أول مرة نحضر لرؤيتها.

عندما دخلوا القصر نادت خادماً حمل الزهــور وأخذ ينسقهـا في الفازات، منذ ما يقرب من عامين لم تر ورداً بعد تلك الكورونا التي وضعتها على قبر الباشا حين عادت، جلسوا يتبادلون الحديث، قالت سائلة حسين:

ـ وماذا عن أخبارك؟

ـ أنا، لا جديد، سوى أنني انتظمت في سلك الجيش برتبة ضابط.

ـ كان ذلك مطمحك.

ـ نعم.

قالت سعاد:

ـ ليس هذا فقط، فالحرب تدق الأبواب، سيذهب فارسنا بعيداً ليشق قلوب الأعداء.

الحرب؟ الحرب تدق الأبواب وهي لا تدري، في أي كوكب تعيش؟ ابتسمت، قالت:

ـ آه، الحرب، اعتقد أنها آتية لاريب. حرب مع من؟

أجاب:

ـ ليست حرباً، ستنتهي بعد أن نؤدب تلك العصابات، الجميع يقطع بأنها نزهة.

أمسكت به وهو يختلس النظر إليها فارتبك، نهض يستأذنها في مشاهدة اللوحات المعلقة على الجدران وتلك الأحاديث التي كتبت بخطوط بديعة، قالت في رقة:

ـ هذا بيتك، خذ راحتك.

لما ابتعد، مالت سعاد عليها، قالت مداعبة:

ـ ما يزال الماكر يسترق النظر إلى فتاة قاسية جادة.

ـ يا شيخة، لا تظلميه.

كانت تدرك جيداً أن الحياة لا تستطيع أن تهمل فتاة مثلها طويلاً، شاهدت الخادم حائراً بما تبقى من زهور كثيرة، نادته، جاء إليها، انتقت صحبة من الورد، قالت له:

- اذهب بها إلى سمية هانم.

حمل الخادم صحبة الورد إلى غرفة سمية هانم، دق الباب فى أدب، دعته للدخول، وضع صحبة الورد على المكتب بين يديها، سأل:

- أأنسقها فى الفازة؟

قالت له:

- لا، أتركها على المكتب.

استدار ليخرج، سألته:

- أهناك ضيوف؟

- نعم يا سيدتى.

- من؟

- شاب وشابة لم أرهما من قبل.

أومأت له برأسها فمضى منصرفاً، تأملت الزهور الموضوعة أمامها، كانت لفيفاً من الزهرات فضت رباطها، أمسكت الزهور زهرة زهرة، تأملتها: تذكرت كلمات مراد أفندى (الزهور بهجة للروح، وألوانها معان، الأصفر حائر غيور، والأبيض صاف طهور، والبنفسجى وميض للخجل، وبريق للأحلام)، وحين أمسكت بوردة حمراء أطل وجه مراد أفندى أمامها مبتسماً وديعاً لائماً، ارتعش جسدها، وضربتها البداهة، همست (للأحمر لون الحب ومعنى الرغبة، ومتى جاءت الزهور جاء الرجل)، نهضت فى عجل إلى مرآتها، هالها مدى التهلهل والإهمال اللذين أمسكا بمظهرها، لا لن تخذل ابنتها أبداً، ليذهب الجنون إلى الجنون، انسلت من باب جانبى وصعدت إلى غرفتها.

* * *

كان ثلاثتهم يتبادلون الحديث، حين جاءهمَ صوت سمية هانم:

ـ أنعمتم صباحاً يا أولادى.

نظرت فارتج كل كيانها، كانت أمها تقف أعلى السلم، وتخطو نازلة إليهم، ترتدى فستاناً ربيعياً تناثرت عليه ورود صغيرة، مشت نحوهم محيية مبتسمة.

كان على مريدة أن تمسك جيداً بتلك المشاعر العاصفة التى اعتملت بداخلها عند مرأى أمها، كادت أن تفلت منها صرخة أو قهقهة عالية تجلجل فى أرجاء القصر، لا تدرى، لو لم يكن هناك ضيفان ماذا كانت ستفعل، لكنها الآن تتبادل النظرات مع أمها، من أين أتت تلك المرأة بتلك النضارة؟ ألم تكن منذ أيام شاحبة يائسة؟ همست لنفسها (أهذا سر من أسرار هذه المرأة؟ أم أنه صفاء الروح التى تسكنها؟ لابد وأنهما الاثنان معاً).

* * *

انصرف الضيفان على وعد بزيارة من سمية هانم ومريدة جودت، وبعد انصرافهما همت أمها بالنزول إلى غرفتها السفلية، فأمسكت مريدة بساعدها، سألت:

ـ إلى أين؟

ـ إلى غرفتى.

ـ ليست غرفتك، لن أدعك هذه المرة تفلتين منى، ستبقين.

ـ أرجوك يا ابنتى، دعينى لوحدتى.

ـ لن أدعك، إبقى معى وحيدة كما شئت، ولكن لا تذهبى إلى هذه الغرفة، فهى غرفة مراد أفندى، ولو أنه كان بيننا اليوم ما ارتضى لك أن تفعلى بى وبنفسك ما تفعلين.

فتت فى عزمها، نظرت إليها تتأملها، أخذتها بين يديها واحتضنتها، أخذهما بكاء طويل.

بعد أيام قلائل تلقت دعوة باسمها واسم سمية هانم لحضور حفل على شرف ذهاب حسين الرافعى إلى حرب فلسطين، عندما وصلتا، واجتازتا باب الفيللا، كان حسين يقف فى بزته العسكرية مع لفيف من الضباط من دفعته، استأذنهما ليخبر ربة البيت لتأتى لاستقبال مريدة جودت وسمية هانم.

* * *

مد يده يطلب مراقصتها، نهضت معه، بينما أمها تستمع إلى أحاديث الحرب:

(سيطردهم الأولاد حتمًا من الأرض، ويلزمونهم جادة الصواب، الملك أقسم أن يؤم المصلين فى المسجد الأقصى بعد الانتهاء من أمر تلك العصابات)، يقول آخر:

ـ كان الملك شهمًا كريماً حين اتخذ قراره بدخول الحرب، فلم يعد فى قوس الصبر من منزع، وهل للفلسطينيين نصير غيرنا فى مواجهة هؤلاء السفاحين.

وهى تدور معه فى دائرة الرقص، همس لها بحبه، قالت:

ـ هكذا، مرة واحدة.

ـ الحسم والحزم وسرعة اتخاذ القرار الصائب من صفات الضابط الكفؤ.

ضحكت لمداعبته، وعندما انتهت الرقصة، أخذ يدها، مضيا إلى حديقة البيت، مشيا جنبًا إلى جنب صامتين تأخذهما مشاعر غريبة، فليس كالحرب شىء يستطيع أن يشعل نار الحب فى الرجل والمرأة حين يمسكان بطرفى معناه، عندها ترى المرأة فى الرجل فارسًا تبعث الطبيعة من جسده عطر دماء قوية محملة بأريج فحولة الفرسان، أما الرجل فيندفع الحب إلى قلبه استمساكًا بالحياة وبالأمل وبالرغبة فى العودة إلى بيته وسكنه وامرأته.

قالت سائلة متوجسة:

ـ ولكن الأمر قد يطول.

قال نافياً أية إمكانية لذلك:

ـ هذا هو المستحيل، قادة الجيش أنفسهم حين أعلنوهم بالقرار أكدوا لنا أن الأمر لا يعدو أن يكون نزهة، سنعود على أكثر تقدير بعد أسبوعين أو ثلاثة، اللواء المواوى باشا، شرح لنا الأمر، فالفرق شاسع بيننا والعدو، إنهم مجموعات من المرتزقة وقطاع الطرق، بينما نحن جيش نظامى يضم خيرة أبناء مصر عقولاً وأبداناً، أضفى إلى ذلك أن جيوشاً عربية أخرى ستشاركنا العمل على طرد تلك الضباع الوالغة، إن الملك عبد الله وملكنا يتنافسان أيهما سيصل بجيشه إلى المسجد الأقصى أولاً ليؤم الناس فى الصلاة، ونحن مصرون ألا نخذل مليكنا.

أسعدتها كلماته، لكنها كانت أيضاً فتاة باريسية الثقافة، تنتمى لجيل عاش حرباً مدمرة أدرك البشر فيها كثيراً من خداع الحكام والسياسيين، فأدركت أن حماس فارسها بلا حدود، قالت وهى تجذب يدها من يده مودعة:

ـ أعاهدك على الانتظار.

* * *

كانت تتفحص بكفها فرس جف أحد ثدييها بلا سبب واضح، أخبرها بذلك سيد كبير السواس، اعتدلت ومسحت بكفها جبهة المهر الصغير، مست براءته الغريرة أوتار قلبها، سألت:

ـ وما الذى قاله البيطار؟

ـ نصح بأن نزد عليق الشعير المجروش وكمية البرسيم الأخضر، وهو يرى أن ثدياً واحداً يكفى لإدرار اللبن اللازم لنمو المهر متى عوضنا الأم بغذاء كاف.

- ألم يقل ما السبب وراء جفاف الثدى؟

- لا، لكن السبب معروف.

- ما هو؟

- السبب واضح، جفف الثدى بعد الفطام الفائت بطريقة خاطئة متسرعة، وهو الذى قام بذلك.

صمتت مغتاظة، لكنها أمسكت نفسها عن أن تظهر غضبها.

وهى تهم بالانصراف، جاء خادم يهرول، قال:

- تليفون لك يا هانم؟

- من؟

لا أعرف، الست هانم الكبيرة هى التى ردت عليه.

تساءلت (من يا ترى؟).

* * *

حسين الرافعى، حمداً لله على سلامتك، متى عدت؟

- منذ أيام قليلة.

- ولماذا لم تتصل لتخبرنى؟

- كان أمامى كثيراً من المهام.

بدا صوته غريباً لها، جاداً وملتزماً يفتقد إلى سابق مرحه، خمنت أن أحداً يقف بجانبه، أخبرها على عجل، بأنه سيمر عصراً ليأخذها.

وضعت السماعة، أمسكت بها رجفة عابرة، وهى تنظر من النافذة، كان الصباح بارداً، والسماء ملبدة بغيوم سوداء حبلى بالمطر، هجس قلبها، لماذا كانت لهجته بلا حرارة

وهى التى انتظرت شهوراً عودته، وتابعت من أجله أخبار الدنيا من مصادر مختلفة. هدأت من هواجسها وانتظرت أن يأتى.

* * *

سمعت بوق سيارته، فأسرعت إليه تستقبله، تحت رذاذ مطر خفيف عانقت كفها الدافئة كفه، أدهشها جمود وجهه، فلملمت دفق مشاعرها، همست:

ـ حمداً لله على سلامتك.

ـ أشكرك.

ركبت بجانبه، ظلا صامتين طويلاً، جربت أن تكسر حاجز الصمت الثقيل، قالت مداعبة:

ـ أهلاً بالبطل.

رد ساخراً فى مرارة:

ـ بطل مكلل بعار الهزيمة.

للحظة أحست بأن من يجلس بجانبها شخصاً آخر غير الشاب الذى راقصها، واستثار بمرحه مشاعرها، تساءلت (ماله مطفأ العينين هكذا؟، أيمكن أن يكون للشارب الكث الذى أطلقه كل هذا الأثر على ملامح وجهه؟)، عادت تسأل:

ـ لماذا لم تتصل بى فور عودتك؟

ـ كنت مسئولاً عن توزيع جرحانا على عدد من المستشفيات.

صمت كأنه يتذكر، ثم قال:

ـ أراك متعجبة، لا تعجبى من حالى.

قالت شبه معتذرة:

ـ لا، لكننى انتظرت عودتك شهوراً حاملة شوقاً لهذه اللحظة.

أجاب بلا معنى:

- نعم.

همست:

- تغيرت كثيراً يا حسين، أهكذا تفعل الحرب بالرجال؟

رفع وجهه، نظر إليها نظرة ثابتة، كأنها ردته إلى لحظة لم يكن يرغب أن يتذكرها، قال:

- لم تكن حرباً يامريدة، كانت مهزلة، خدعة كبيرة مورست علينا، واستغلت فيها كل نقاط ضعفنا، بدءاً من حماسنا الجارف، وطيب مشاعرنا، إلى سذاجتنا، وضعف تسليحنا ونقص ذخيرتنا، استغلنا الجميع استغلالاً بشعًا لا رحمة فيه، الملك وحكومته، لتحسين صورتهما وإلهاء الناس عن قضيتنا الوطنية، وعما تمر به البلاد من أزمات، واستغل الإنجليز ذلك، فتم دفع الجيش إلى حرب يعود منها بعد أن يضيع ذخيرته ويهلك رجاله، فيصبح ذلك مسوغًا لبقائهم وبقاء قادتهم فى قناة السويس، وينعشون معاهدة ٣٦ التى فقدت أى مبرر لاستمرارها.

غاصت فى صمتها عندما صمت، تشاغلت بأخذ رشفة من كوب عصير الليمون الموضوع أمامها، حاولت أن تبتسم، لكنها لم تجد معنى لذلك، قالت فيما يشبه العزاء:

- لكنكم حققتم نصراً تحدث الجميع عنه، وأنتم تنسحبون من الفالوجا.

قال:

- النصر الذى يحققه قائد فى انسحابه، نصر ممزوج بالهزيمة.

كان واحداً ممن حوصروا فى الفالوجا، بعد انهيار الجبهة المصرية وتمزقها إلى جيوب معزولة، فشلت كل محاولات نجدتها أو الحيلولة دون حصارها.

واصل:

ـ ومع ذلك، ما تم هناك يشبه المعجزة، كان هناك من الرجال من أفاق ولم يعد يخدع، لحسن الحظ فى لحظة مناسبة وحرجة، أصبح الشك فيها يشبه اليقين، حين قدم لنا قائد الجيش الأردنى جلوب خطة تقضي بأن ندمر أسلحتنا، ثم نبدأ بعدها فى الانسحاب ليلاً، إذن بلغت الثقة فى سذاجتنا حداً يفتقد حتى إلى الحياء، لكننا لم نعد هؤلاء الأولاد السذج، ولن نعود إلى سذاجتنا مرة أخرى، أصبح واضحاً أن حياتنا وشرفنا معاً فى كفة واحدة، فصمدنا مائة وخمسة وعشرين يوماً نتلهى بالموت ويتلهى بنا، وأخذنا نتصيد سرايا العدو فى دهاء حتى أدرك ما أوقــع نفسه فيه، فخـــرجنا يوم ٢٦ فبراير بكامل أسلحتنا وشرفنا.

انكسرت حدة صوته، قال لها:

ـ لك أن تسعدى أيضاً، فالفتى الذى عرفتيه قبل أن يذهب إلى الحرب، تعلّم الآن كثيراً، وهناك بين أجساد الشهداء دفن سذاجته، وكل ما يعوقه عن رؤية الدنيا رؤية صحيحة، تطهرت روحه بالنار والدم، فتى يعرف الآن جيداً أن البداية من هنا.

دارت عيناها فى الفضاء، ثم حطت على النيل الذى يقبع ساكناً خلفه، أدرك شرودها فداعبها:

ـ هاه، إلى أين ذهبت؟

ابتسمت له، كان يدرك ما يشغل بالها، قال:

ـ أعرف أن لاشيئاً يوقف الحياة، لكننى الآن لست مهيئاً لشيء.

فاجأتها العبارة، نظرت إليه نظرة جامدة، ثم نهضت معتذرة بأنها لا تستطيع أن تتغيب كثيراً عن سمية هانم، أدرك مدى حمق عبارته، وصراحته الفجة التى ألقى بها كلماته، أمسك بيدها، قال:

ـ مريدة، أرجو ألا تأخذين كلماتى بمعنى آخر غير ما قصدت إليه، ما أعنيه أننى محتاج لبعض الوقت لاستعيد شتات نفسى، أقسم لك أننى ما زلت أحمل لك نفس المشاعر التى صارحتك بها قبيل الحرب.

ابتسمت له ابتسامة رقيقة وهى تجذب كفها من يده، بينما التقطت حقيبة يدها باليد الأخرى، لم تقل شيئاً ظلت واقفة.

فى السيارة ظلا صامتين، كان كل منهما يخشى أن ينطق بكلمة تزيد الأمور سوءاً عند باب القصر، ودعها بكلمات لاتفضى إلى أى معنى، بينما كانت من القوة بحيث خبأت كل ما اصطخب بداخلها، مضت، راقبها، استدرات إليه وهزت رأسها مبتسمة وأومأت مودعة، أدار سيارته ومضى.

* * *

لم يطل بها الانتظار كما اعتقدت، فلم يمر أسبوعين حتى جاءها صوته عبر أسلاك الهاتف به رنة مرحة، قالت تشاكسه:

ـ أراك قد استجمعت شتاتك سريعاً.

رد معاتباً:

ـ مريدة لا تكونى قاسية، أنت أسأتى فهم كلماتى.

ـ دعنا من ذلك، أخبرنى كيف أنت الآن؟

ـ بخير، أتعرفين أننى حصلت على ترقية استثنائية بتوصية خاصة لما قمت به أثناء الحرب من مهام.

ـ أخبار طيبة إذن، مبروك الترقى.

ـ أهذا فقط ما لى عندك.

ـ لا تكن طماعاً.

قاطعها:

ـ مريد، أود لقاءك.

صمتت، قالت:

- تفضل بزيارتنا غداً.

همهم، ثم قال:

- زيارة رسمية إذن.

قالت:

- سيسعد سمية هانم أن تراك أيضاً.

- سأمر في الحادية عشر صباحاً، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

في الحادية عشر صباحًا كانت قد انتهت من زينتها، وهي تغلق علبة مجوهراتها، رأت في المرآة انعكاس سمية هانم، كانت واقفة تتأملها، مشت نحوها بخطوات متمهلة، قالت وهي تضع يدها على كتفها:

- تشبهين فتاة كنت أعرفها منذ ما يزيد عن ثلاثين عاماً.

كانت شديدة الشبه بأمها، قالت مريدة:

- ولكن الفتاة ما زالت هنا، فلماذا تنكرينها؟

ضحكت سمية هانم لمداعبة ابنتها، قالت ناصحة:

- اسمعي يا ابنتي، إن الفتاة متى أسرفت في الجد قل نصيبها من إعجاب الرجال حتى ولو كانت جميلة، شيء من الدلال وخفة الظل أيتها العبوس.

ابتسمت مريدة، قالت:

- نحن جيل آخر غير جيلكم.

قالت الأم:

ـ مهما تغيرت الحياة لن تتغير قلوب البشر.

قاطع حديثهما مجيء خادم تخبرهما بوصول حسين الرافعى، فنزلا لاستقباله.

* * *

بعد أن تناول القهوة قال:

ـ أبى وأمى يودان زيارتك يا هانم.

ـ على الرحب والسعة يا ولدى.

صمت، ثم قال:

ـ إنهما يرغبان فى محادثتك فى أمر ما.

ـ سنتشرف بزيارتهما فى أى وقت يرغبان.

كان به بعض الخشية من اتساع الهوة الاجتماعية بينهما، لكنه وجد تلك المرأة بسيطة كل البساطة، تبادل النظرومريدة التى ابتسمت له، قالت:

ـ ألا ترغب فى مشاهدة الخيل؟ ألا تحبها؟

ـ كيف وهى أحد شروط الالتحاق بالكلية الحربية.

عندما نزلا من القصر، كان طائر مشدوداً إلى الكارتا، تأمل ذلك الجواد الرائع، سألت:

أيعجبك؟

ـ إنه رائع حقاً، أيمكن أن أركبه؟

ـ حاول، لكنى اعتقد أنه لا يدين إلا لى.

ـ أنت إذن لا تعرفيننى.

نادت سائساً وأمرته أن يحل الحصان من العربة، وأن يسرجه.

حاول حسين أن يخطب ود الجواد فوجده نافراً منه معانداً له، لكنه لم ييأس، مسح وجهه بكفه وداعبه، اعتقد أنه أنس له، استعد لركوبه لكن الحصان انفلت منه، كاد حسين أن يقع، فضحكت مريدة منه، أحنقه ذلك بعض الشيء، أمسك بشكيمة الجواد جيداً، وأغلظ له قليلاً، ثم قفز على صهوته، أحس الجواد بدربة الفارس الذى يمتطيه، دان له، أخذه خبباً ثم رهواً، لف به عدة لفات، قبل أن يعود به إليها، قالت محيية:

- ما كنت اعتقد أن أحداً يستطيع ركوبه غيرى، أنت حقًا فارس، إسمع هل ترغب فى جولة معاً؟

- بلا شك، سيكون ذلك ممتعاً.

أمرت سائساً بأن يسرج جواداً آخر، فجاءها السائس بفرس أخرى، مشت بجانبه، تبادلا بعض كلمات معاندة، قالت:

- أتسابقنى؟

- أأنت ند لهذا؟

- مهما بلغتَ فلن تصل إلى مهارة فتاة ولدت فى قصر تحيطه الخيول.

- ربما لنر.

تخيرا نقطة للسبق، واندفعا يركضان، لكن جواده عوض فارق خبرته، تجاوزها قبل خط النهاية بأمتار، قال مكايداً:

- قلت لك يا فتاة.

- أنا أتمتع بروح رياضية، لا بأس أن تفوز مرة، لكن عليك أن تدرك أننى لن أدعك تفوز فى كل المرات.

قال يداعبها:

ـ من يستطيع أن يغلب حواء.

تركا الجوادين يلعبان بجانبهما، تشمم طائر الهواء فامتلأ صدره برحيق الأنثى التى بجانبه، أرسل صهيلاً عالياً، تبادلت مريدة وحسين نظرة سريعة، قالت:

ـ إنه جواد غير عادى.

ـ تقصدين فحلاً قوياً.

ارتبكت لعبارته المفاجئة، من زمن وهى تشتهيه، رائحته منذ أن راقصها لم تفارق خيالها، كانت تجمع نفسها حين مد ساعديه حول خصرها، وطوقها حتى كاد يعتصرها، فأيقنت قوته وغشمه معاً.

* * *

تزوجا بعد شهرين، حاولا محاولة صادقة أن يصطحبا سمية هانم معهما، لكنها رفضت أن تغادر القصر، قالت لهما:

ـ عشت حياتى هنا، أنا أحب هذا المكان، هو لى سكن وموطن.

احترم رغبتها، وفيما حفلت به حياة مريدة الجديدة من شئون كثيرة أهملت الإسطبل تماماً، بينما عادت سمية هانم إلى حوزة عزلتها، التى كانت تستولى على روحها دون أن تشعر، أخذتها الوحدة إلى بحور الغرابة، تزيت بملابس مراد أفندى، وعادت تندس بين كتبه، أهملت أمر الإسطبل، وما كانت تعرف عن شئونه شيئاً، وردت السيد كبير السواس كلما جاء ليخاطبها فى شأن من شئون الخيل، الأعلاف تتناقص، وأجور السواس لا تدفع بالأسابيع، فانسربوا واحداً بعد الآخر، ثم تبعهم الخدم، ولم يبق معها إلا خادم عجوز كانت تأنس لها.

خاتمة

مشى بقلمه الرصاص على آخر أيام سجنه، انتظر طوال الليل متيقظاً بلا نوم، حتى فُتح باب زنزانته، أخبره الحارس بأن يجمع حاجاته، ويأتي معه لمقابلة مأمور السجن. هناك هنأه الرجل بحرارة، سلمه بعض الأشياء التي بقت في خزانة السجن على سبيل الأمانة، ملابسه المدنية، وقرار الإفراج عنه، ومبلغاً من المال.

قال الرجل:

- يمكنك الآن الانصراف إلى حالك، أتمنى لك حياة أكثر توفيقاً.

شكره ومضى.

* * *

كانت مشيرة قد حصلت على الطلاق منه بعد شهور من سجنه، أدار عينيه في فراغ العالم من حوله، هس (عليك أن تنسى أو تتناسى كل ما مضى، وأن تنظر الآن إلى حياتك بعين جديدة مملوءة بخبرة تجارب كثيرة)، أوصلته السيارة إلى قلب المدينة، حياه السائق وودعه، التقط تاكسياً، نزل سائقه، ونضا كابه عن رأسه، وفتح الباب له، سأل:

- إلى أين سعادتك؟

- إلى عين شمس.

وجم السائق، لم تعجبه التوصيلة، عليه أن يشق طريقاً طويلاً ينتهي به إلى مجاهل تلك المنطقة النائية.

توقفت به السيارة أمام الإسطبل بمشاعر متضاربة، أنقد السائق، فمضى مخلفاً إياه، دق البوابة بجماع كفه حتى تطايرت أصداء الصوت وتراجعت إليه، مرت دقائق ثقيلة، قبل أن يُفتح الباب الصدئ بصعوبة، أطل وجه عجوز له ظهر محنى ورأس أصلع يشبه بيضة طائر خرافي ووجه متغضن أعمل الزمن فيه أزميله القاسي، صاح العجوز:

- سيدى، نور بك..

نظر إليه متعجباً، وأفسح له الطريق ليدخل، مشى بخطوات ثقيلة، رأى ملاط القصر الذى تساقط، كل شيء من حوله يفصح عن الخراب والإهمال، الأرض يعلوها نجيل هائل تغطيه أكوام من ورق الأشجار الجافة والأغصان الصغيرة المصوحة وثمار الجميز الجافة تفرش الممرات، أشجار الكافور السامقة تقبع فوقها الحدى والغربان مطمئنة، تفزع بعضها لخطواته، فطارت وأرسلت نعيقها المنذز فى الفضاء، رأى كارتة الباشا مقلوبة على جنبها، تعاون والعجوز على إعادتها إلى وضعها الطبيعى، أمره أن يحضر جواداً ويشده إلى الكارتا، فمضى العجوز بخطوات ثقيلة، وعاد ساحباً خلفه حصاناً أسود له غرة بيضاء، يمشى مهزولاً من سوء التغذية، نظر إليه نور متعجباً، قال ساخراً:

- ألم تجد حصانا أسوأ من هذا حالاً؟

أدرك العجوز ما فى كلماته من سخرية، قال:

- هذا أفضلها جميعاً.

فجعته الإجابة، ما الذى حدث هنا، ما كل ذلك الخراب الذى يلف العالم من حوله؟ شد الحصان إلى العربة، مشى بخطو ثقيل مجهد به، وبجانبه مشى السيد، سأله:

- أين سمية هانم، ومريدة؟

ـ سمية هانم فى القصر، ومريدة تزوجت منذ عام تقريباً، وذهبت لتقيم مع زوجها.

توقف عند حظائر الخيل، سأل:

ـ والناس، والخدم والسواس؟

ـ لم يبق أحد سواى أنا وامرأتى وخادمة تقيم بالقصر، مضى الجميع بعد انقطاع أجورهم شهوراً.

بحث عن أعداد الخيول الكثيرة التى كان يحصيها فى طفولته، فلم يجد إلا أحصنة متفرقة، برزت عظامها وشف جلدها، واستطالت شعورها وتقصفت أطرافها، وحين فتح بوكساً من البوكسات فاحت أبخرة عفنة عطنة.

عاد إلى القصر ، حاول وسيد أن يفتحا مكتب الباشا الذى لم يعرفا أين ضاع مفتاحه ، وبعد جهد كسرا الباب ، ففرت أسراب من اليمام وحمام الجبل البرى التى تسللت من نافذة كسر زجاجها، رأى أعشاشها وزرقها يغطى الأثاث والأرض، خاض حتى وصل إلى مكتب الباشا، كسره وأخرج الصندوق المصنوع من خشب اللوز المطعم بالصدف والعاج، فض بابه، كانت الغدارة العثمانية الكبيرة تنام فى هدوء بجانب غيرها من الطبنجات، التقط ذات الطبنجة الملكية الرشيقة التى قتل بها شهاب بك، دسها بين ثيابه، وأمسك بأخرى فى يده، اتقدت عيناه بعزم مجنون أدركه العجوز، أمسك بذراع نور جودت، توسل إليه:

ـ سيدى، كرامة للنبى، لا تفعل.

ـ إنهم موتى بالفعل، دعنى أريحهم من العفن.

مضى ينزل الدرج والعجوز يلهث خلفه.

مر على الحظائر حظيرة حظيرة، كلما فتح العجوز باب إحداها وأطل فرس عجوز بائس، طلب منه أن يسحبه خارج الحظيرة، وبعد أن يمشى به خطوات قليلة،

يصوب نور مسدسه إلى رأس الجواد العجوز ويطلق النار فيرديه، تعالى صهيل الخيل في الإسطبل عند سماعها الطلقات التي أفزعت قلوبها، توقف عند إحدى الحظائر، أمر الرجل أن يفتح بابها ففعل، أطلت فرس عجوز عجفاء جف ثدياها، خلفها يقف صغيرها بأقدام مرتعشة وعظام بارزة، أمره نور أن يخرجهما، هز السيد رأسه رافضاً، صاح فيه:

ـ قلت لك أسحبهما خارجاً.

أذعن الخادم.

* * *

أزعجت تلك الانفجارات المدوية سمية هانم، رفعت رأسها وسألت الخادم التي قالت:

ـ سيدى نور بك يطلق النار على الخيول.

قالت متسائلة:

ـ ولماذا يطلق ذلك الشخص النار على تلك الحيوانات البريئة الوديعة؟

لم تجب الخادم، عادت سمية هانم إلى الكتاب المفتوح أمامها، لكن صوت الطلقات شتت استغراقها، رفعت رأسها في ضجر، نهضت متوعدة (ذلك المجنون)، حاولت أن تفتح باب الغرفة، فلم تفلح انسلت من الباب الجانبي المفضي إلى الدور العلوي، وجدت باب غرفة مكتب جودت باشا مفتوحًا تعجبت، نادت (جودت، جودت باشا، هل عاد من سفره؟) تساءلت، مشت إلى الغرفة خاضت في الأرض المتربة وما تناثر من ريش الطيور، قلبت في صندوق السلاح المتروك على المكتب، تفحصت إحدى الطبنجات وهي تقلبها في يدها، جاءتها الانفجارات المزعجة مرة أخرى، أمسكت بسلاح ثقيل في يدها، قالت وعزم مجنون يطل من عينيها (لا لن أدعه يفعل ذلك بهذه المخلوقات أبداً). نزلت هابطة الدرج، اجتازت باب القصر المفتوح، ومضت إليه.

* * *

كان السيد قد أخرج الفرس وولدها، ونور يسحب أجزاء المسدس للخلف ويستعد لإطلاق الرصاص، ركع سيد على ركبتيه أمامه، قال متوسلاً:

- سيدى نور بك، اتركهما كرامة للنبى، فلم يبق غيرهما وذلك الجواد الذى يشد العربة.

- أتركهما؟ لماذا؟ أما ترى أن بطنيهما منتفختين، إنهما يعانيان الجوع والديدان. إنهما لا يساويان شيئاً.

- إنها عفراء، ألا تذكرها، إنها عربية حجازية أصيلة، سأعتنى بهما، وأعمل على أن يستردا عافيتهما.

بينما يحادثه، رأى سمية هانم مقبلة، توقفت عندهما، قالت:

- عدت مرة أخرى يا جودت لقتل الأشياء البريئة، ما الذى سيفيدك من قتلها؟ هه، أجب.

تعجب نور من أمرها، وأدرك أن المرأة مدخولة، قال:

- أمى، سمية هانم، أنا نور ولدك.

- نور؟ ولدى؟ أنت تكذب، أتحاول أن تخدعنى مرة أخرى يا جودت، نور هناك بعيداً، أخبرنى حافظ باشا بكل شيء، لا تحاول مراوغتى.

حاول أن يخطو نحوها، فهزت المسدس فى وجهه، قالت:

- إبق مكانك يا جودت، أود أن أعرف، أما زلت قاتلاً ودنيئًا وقاسى القلب كما كنت دوماً. تعيش حين تموت الأشياء من حولك، هه، انطق.

انسل السيد، والتف خلفها، لكنه حين حاول أن يطوقها بذراعيه من الخلف ضغطت على الزناد فانطلقت الرصاصة لتصيب قلب نور الذى خر صريعًا، دوت قهقهاتها فى أرجاء الإسطبل، وهى تعدو فى اتجاه القصر.

انتهى

القاهرة ٢٢ يونيه ١٩٩٨

جمال زكى مقار

الفهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٥٣٣ / ٢٠٠٣

هـذا الكـاتـب



جمال زكي مقار

- مواليد عام ١٩٥٥ بمدينة السويس. قاص وروائي.
- فازت مجموعة قصصه الأولي «الضعيفة يأكلها القراد» الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بجائزة د. سعاد الصباح للإبداع عام ١٩٩١.

- فازت روايته «أغنية الدم» الصادرة عن دار سعاد الصباح بالجائزة الأولي بمسابقة «نجيب محفوظ للرواية» التي ينظمها المجلس الأعلي للثقافة عام ١٩٩٥.
- فازت روايته القصيرة «طريد وقصص أخري» الصادرة عن المركز الثقافي العربي ببيروت عام ١٩٩٦ بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٩.
- صدرت له مجموعة «تحولات إنسان عابر» عن سلسلة «أصوات أدبية» التي تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة، عام ١٩٩٨.

تمثل هذه الرواية العمل الخامس من أعمال جمال زكى مقار. إنها ليست رواية تاريخية بالمعنى المألوف للتعبير، بل هى محاولة للغوص فى أعماق أشد غوراً بحثاً عن تلك اللحظات التى أدت إلى تغير الحياة وصولاً إلى نقطة بعينها من الزمن، وما بين مفهومى الإزاحة والثبات - هذا التدافع الذى يغير المعانى - حيث يتقلص دور كائن ليفسح لكائن آخر، وتندحر قوة لتصعد أخرى، وينطفئ سنا رجال ونساء ليومض بريق رجال ونساء آخرين. ربما.. ربما استطاعوا دفع تلك العجلة الهائلة دورة أخرى حقيقية.

